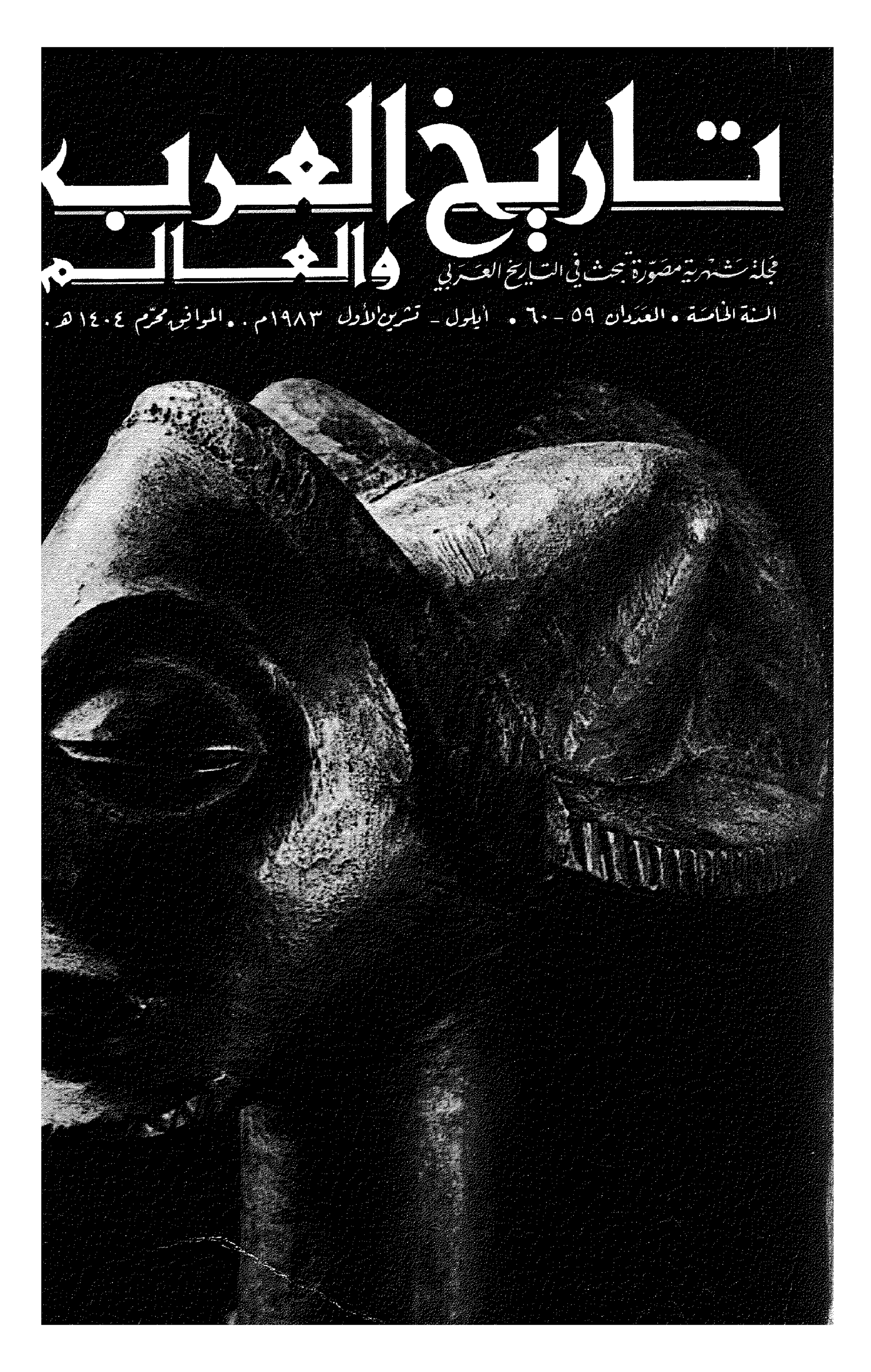


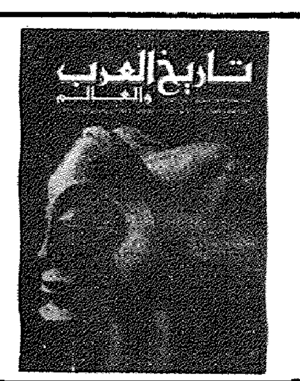
تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

السنة الخامسة • العددان ٥٩ - ٦٠ • أيلول - تشرين الأول ١٩٨٣م . . الموافق محرم ١٤٠٤ هـ .

في هذا العدد

■ المقالات الواردة توزّع حسب التبويب الفني للمجلة ولا علاقة لذلك بمكانة الكاتب مع حفظ المكانة الإجتماعية للكتاب. تراعى في الألقاب الصفات العلمية فقط ■



الغلاف الاول

راس رجل من شمال انغولا ذات طابع «شوكيوي» من كتاب:
Tribal Art of Forest and Savana, Arnold Bamert — Thames and Hudson, 1980.

● المقالات والدراسات ترسل باسم رئيس التحرير على عنوان المجلة ص.ب ٥٩٠٥ في بيروت.

● المقالات والدراسات التي تنشر لا تعبّر بالضرورة عن آراء المجلة.

● المواد الواردة إلى المجلة لا تردّ إذا لم تنشر.

تاريخ العرب والعالم

العددان ٥٩ ـ ٦٠ أيلول ـ تشرين الاول ١٩٨٣

تصدر عن دار النشر العربية في منتصف كل شهر

صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير

المستشار : د. أنيس صايغ المدير المسؤول : محمد مشموشي

قسم التوثيق والأبحاث : شذا عدرة

قسم التوزيع والاشتراكات : علي عبدالساتر

المخرج الفني : سالم زين العابدين

الانتاج: مطبعة المتوسط: ش.م.ل.

التوزيع: الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات.

ثمن النسخة

لبنان	٦ ل.ل.	سوريا	٩ ل.س.
العراق	١ دينار	تونس	١,٥ دينار
السعودية	١٠ ريال	الكويت	١ دينار
الأردن	٨٠٠ فلس	الامارات	١٠ درهم
البحرين	١ دينار	قطر	١٠ ريال
مسقط	١٠٠٠ بيزة	بريطانيا	١,٥ جنيه
صنعاء	١٠ ريال	ليبيا	١ دينار
		مصر	١ جنيه

الاشتراكات
(بما فيها أجور البريد الجوي)

- في لبنان: للأفراد ١٠٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٢٥٠ ل.ل.
- في الوطن العربي: للأفراد ٣٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ٧٥ دولاراً
- خارج الوطن العربي: للأفراد ٥٠ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية ١٠٠ دولاراً
- اشتراك تشجيعي ٥٠٠ ل.ل.
- تدفع قيمة الإشتراك مقدماً نقداً أو حوالة مصرفية

ص.ب. ٥٩٠٥ ــ بيروت، لبنان ● بناية أبو هليل
شقة ١١ ● شارع السادات ــ تلفون ٨٠٠٧٨٣

HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD

EDITED BY FARUK BARBIR
PERIODICAL ILLUSTRATED
MAGAZINE PUBLISHED FROM SADATE ST.
ABOU HILEIL BLG. P.O.B. 5905 TEL. 800783
BEIRUT , LEBANON

Vol. 5 No. 59-60 Sept - Oct 1983

ANNUAL SUBSCRIPTION : *$100 (INCLUDING $25 FOR* ADDITIONAL AIR MAIL CHARGES)
MAIL ALL COMMUNICATIONS,
INCLUDING SUBSCRIPTIONS TO:
«HISTORY OF THE ARABS AND THE WORLD»

كلمة:...

قَطَعت مجلة «تاريخ العرب والعالم»، منذ بدء إصدارها في تشرين الثاني ١٩٧٨، مرحلة هامة من مسيرة الألف ميل. ولكن.. كنا دائماً نطمح أن يكون عطاؤنا متواصلاً بدون انقطاع أو تأخير. مرة واحدة اضطررنا خلالها إلى التأخر في الاصدار، كانت أثناء الاجتياح الاسرائيلي للبنان ومحاصرة بيروت لمدة ٧٧ يوماً.

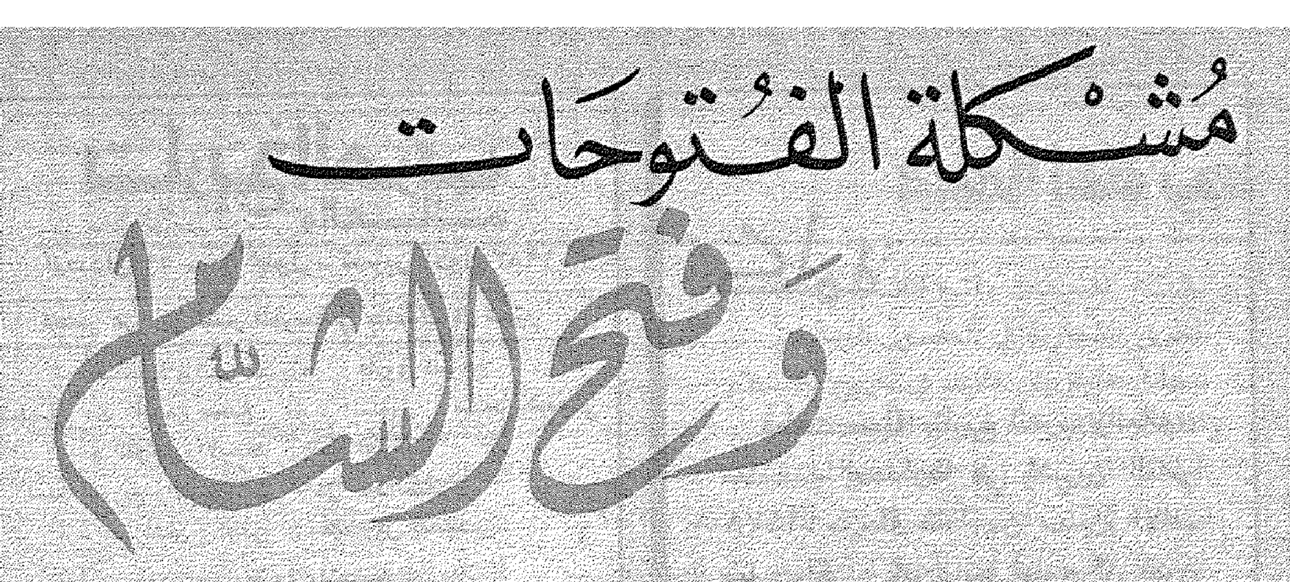
ولكن الحرب اللبنانية المأساوية لم تتوقف بل استمرت.. وجاءت حرب الجبل، والقصف العشوائي، وإغلاق المطار لتضطرنا من جديد، إلى التأخر في إصدار العدد ٥٩.

مرة أخرى، نعود إلى قرائنا ومشتركينا الأعزاء مع هذا العدد الخاص، جاعلين منه بديلاً عن العددين ٥٩ ـــ ٦٠، معتذرين من الجميع وآملين أن يتفهموا الدواعي الاضطرارية التي أدت إلى هذا الاحتجاب القسري.

ونعد الجميع بأننا سنواصل انشاء الله المسيرة على الرغم من الظروف القاسية وكلنا أمل وثقة بأن دروس الحاضر المأساوية ستنير لنا طريق المستقبل.

فاروق البربير

مشكلة الفتوحات وفتح الشام



من الحيرة زحف خالد بن الوليد باتجاه الشام سنة ١٣ [illegible] بقية الجيوش العربية هناك ، واخترق صحراء النفود الى [illegible] اسكي شام ومنها الى تدمر ، ثم ارتد الى دمشق مفاجئا مؤخرة جيش الروم . استمر حصار دمشق ستة اشهر استسلمت على اثرها سنة ١٤ .

كيف ربح خالد بن الوليد معركة اليرموك التاريخيّة

د. سُهيل زكّار



□ مسرح العمليات العسكرية حتى منتصف القرن الأول من كتاب «تاريخنا» الجزء الرابع.

لتفتحن الشام، ويهرب هرقل الى اقصى مملكته، فتظهرون على الشام فلا ينازعكم احد، ولتفتحن اليمن وليفتحن هذا المشرق، ويقتل كسرى بعده.

النبي صلى الله عليه وسلم

مغازي الواقدي: ٣/ ٤٥٠

يرتبط خلود الانسان بعظيم الانجازات التي يصنعها اثناء حياته، فمن الأعمال ما هو كالشرر يتطاير في كل مكان، فيسبب الحريق لكل ما حوله، ثم ما يلبث ان يخمد، ومن الأعمال ما يدوم تاثيره ولا ينمحي، وبهذا ينال صفة الخلود، وفي تاريخ الانسانية المديد، حدثت اعمال كبرى كثيرة، ووجد عدد لا يحصى من العظماء في السياسة والحرب والعلوم والآداب وغير ذلك، انما يلاحظ ان صفة الخلود لم تكتب الا لقلة من الرجال ارتبطت اعمالهم وانجازاتهم بعقيدة، أو وجهت من قبل ديانة من الديانات. فاذا كان الشرق أرض أول الحضارات، فهو أيضا مهد الديانات الكبرى منها والصغرى، ولقد مر بالشرق احداث كبار، وشهد تقلبات لا حصر لها ولا عد، جاءت حكومات وقامت انظمة ووضعت قوانين وشيدت قصور وصروح، ثم زال ذلك كله وبدل وطمست معالمه، وقد حل هذا كله بكل شيء الا بالديانات فما من ديانة طمست معالمها نهائيا، وما من ديانة الا واستمرت بعضا أو كلا.

وختمت الديانات جميعها بالاسلام، ذلك ان الله تعالى بعث نبيه صلى الله عليه وسلم ليتمم مكارم الأخلاق بعثه بالشريعة الكاملة الشاملة، وقد بين الله تعالى بأنه هو الذي بعث نبيه بالحنيفة السمحة وأنه جل وعلا سيحفظ هذه الشريعة حتى يرث الأرض ومن عليها.



لهذا نلاحظ في تاريخ الشرق وأجزاء كبيرة من العالم انه منذ ظهور الاسلام، أصبح كل عمل أنجز في سبيل الله قد كتب له الخلود، وكل ما سواه مقدر عليه الفناء واللعنة، ومن هذا المنطلق وعلى أساسه يمكن ان نبحث في حياة خالد بن الوليد، ونعرف سر نجاحاته وسبب خلوده المطلق.

ولد خالد بن الوليد في مكة، ربما في اواخر القرن السادس للميلاد، وفيها نشأ فكان أحد اشراف قريش في الجاهلية، وقد أسندت قريش اليه «القبة والأعنة»، فأما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش، واما الأعنة فانه كان يوجد على خيول قريش في الحروب».

لقد دخل خالد بن الوليد رحاب التاريخ لا بسبب وظيفته هذه، لكن حدث ذلك يوم اتصل بالدعوة الاسلامية وقامت له علاقة بها، وكان ذلك في البداية عدائيا يوم احد، لكنه ما لبث ان تحول الى شكله الصحيح وحدث ذلك كما هو مرجح سنة ثمان للهجرة، ففي هذه السنة هاجر خالد الى النبي صلى الله عليه وسلم ودخل في الاسلام، ومنذ ذلك الوقت صار أبرز قادة الأمة الاسلامية العسكريين، واعتبره النبي صلى الله عليه وسلم سيف الله سله على الكفار والمنافقين، ولهذا لم يعرف الهزيمة قط، فسيف الله لا يهزم.

ان خلود خالد بن الوليد مرتبط بدوره الذي اداه في حركة الفتوحات الاسلامية الكبرى، ولا يمكن لهذا الدور أن يفهم دون التعرف الى قضية الفتوحات، وهذه القضية هي معجزة التاريخ الانساني الكبرى ومعضلته المحيرة، التي يصعب حل جميع ألغازها، وتقوم مشكلتها على عدة مسائل أهمها:

١ ـ كيف استطاعت جموع غالبيتها من بدو الصحراء في شبه جزيرة العرب، لا تتقن الا مبادىء بسيطة في القتال وليس لديها سابق تجربة في خوض معارك عظمى، ضد جيوش نظامية مدربة، ثم هي لا تملك الا بعض الأسلحة الخفيفة، غير جيدة الصنع، قهر الجيوش النظامية المدربة لأكبر امبراطوريات العالم يومذاك.

٢ ـ كيف استطاعت هذه الجموع تحويل الفتح العسكري الى احتلال دائم، مرج الأرض ومن عليها، وغير معالم الانسان في الزمان والمكان، وذلك لأول مرة في التاريخ، وجاء بانسان جديد أبدع الحضارة العربية الاسلامية.

٣ ـ هل تمت الفتوحات بناء على خطة واضحة، وهدف معلوم، ام جاء ذلك بمحض الصدفة، ونجح وتطور بعامل الزمن.

٤ ـ ما هوالمحرك الذي دفع الى الفتح، وساعد عليه، وأبقى حركته حية فيها حرارة وتدفق مستمران.

وفي محاولة للاجابة على مجموع هذه الأسئلة، وغيرها، نجد ان مؤرخي العصور الوسطى من مسلمين وغير مسلمين ـ وغالبيتهم كتب في ظل مدرسة التفسير الغيبي للتاريخ ـ عزوا امر نجاح العرب في فتوحاتهم وأرجعوا سره الى قوى غيبية، فالمؤرخ المسلم رأى في ذلك تحقيقا لارادة الله، حين بعث نبيه محمدا رحمة للعالمين، وهاديا للبشر اجمعين من كل جنس ولون، في كل بقاع الأرض، فقد وعد الله نبيه وعباده النصر، وحقق هذا الوعد حين نصرهم على كل امم الأرض، ورأى المؤرخ غير المسلم ـ خاصة في أوروبا ـ ان سر النجاح يعود لامتلاك العرب قوة شيطانية، ولمساعدة القوى الخفية للشيطان لهم.

ولقد اعتقد المؤرخ المسلم للعصور الوسطى، ان الذي حرك العرب، ودفعهم في سبيل الفتح ومكنهم من تحويل القهر الى احتلال دائم، غير الانسان والمكان، هو الاسلام، الرسالة التي بعث الله بها نبيه محمدا، وعلى هذا كانت اعمال الفتح جهادا في سبيل الله، وكان هدف الفتح اعلاء كلمة الله، واحلال التوحيد محل الشرك، والايمان مكان الكفر، ويرى هؤلاء ان النبي صلى الله عليه وسلم قد وضع خطة واضحة للفتوح، ويدللون على ذلك بما جاء في القرآن، وفي أقواله وأعماله، ثم برسائله لحكام وقته وحملاته ضد بلاد الشام، وجيش اسامة بن زيد، آخر جيوشه، الذي انطلق في مهمته بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

ولقد استخف المؤرخ الحديث بهذه التعليلات، ورفضها، وبات يفتش عن اسباب اخرى، وتمت امور الرفض والتفتيش هذه اول ما تمت في اوروبا الغربية، وعلى ايدي باحثين غربيين، ثم قلدت في المشرق العربي والبلاد الاسلامية، ولم تعد اعمال المشارقة التقليد الممسوخ لما تم في الغرب.

وكانت اعمال البحث في التاريخ الاسلامي قد بدأت مع تطور النهضة في اوروبا، وهذه النهضة مرت بمراحل كانت اولها اعمال التحرر من الكنيسة مع الرفض للمعتقدات والأديان، ثم تبع ذلك قيام القوميات الاوروبية ولحق هذا قيام المشاكل الاجتماعية في اوروبا مع مدارس التفسير الاقتصادي، لهذا رفضت اول الأبحاث الأوروبية العامل الديني، ورفضت معه فكرة عالمية الدعوة الاسلامية، وعزت انتصار العرب الى ضعف بيزنطة وفارس من حروبهما المستمرة، وجاء بعد هذا من قال بأن الفتوحات الاسلامية وقيام الدول العربية، ما كان الا ثمرات تحرك القومية العربية على يد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، موحد العرب الأول، وقائدهم القومي الأعلى، ولحق هؤلاء من قال بأن عرب الجزيرة تحركوا نحو الفتح لضيق الرقعة الجغرافية لبلادهم، ولعدم مقدرتها على تزويدهم بالطعام، واننا لنرى في كتابات كايتاني، ثم فلهوزن، وبعد ذلك كاهن، وكابريلي ولويس وباليف، امثلة شاهدة على هذا التطور. والعيب المميت في ابحاث كل هؤلاء ـ رغم ملامستها لكثير من جوانب الحقيقة ـ هو أن اصحابها بحثوا في تاريخ الفتوحات العربية، وتاريخ الاسلام لا لاكتشاف حقيقة ما حصل، كما تروي أخباره المواد التاريخية الاخبارية، وانما للبرهنة على صحة صورة مسبقة، قامت على عقيدة سائدة من عقائد البحث، ومدارس التفسير، ومثل هذا التطبيق هو انحراف عن الواقع، وتشويه وتزوير، فلو جمعنا كل ما لدينا من مواد اخبارية تاريخية عن اعمال الفتوح العربية، لوجدناها خالية من اخبار

تتحدث عن اية ازمات اقتصادية ومجاعات في الجزيرة زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وزمن أبي بكر، ثم ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان نبياً للاسلام، وليس نبيا بعث للعرب فقط، نبيا وحد العرب من اجل حاجتهم لذلك واثناء نشر الاسلام ومن أجل التبشير به عالميا، واعتبر الجهاد هو العمل المراد فيه وجه الله، واعلاء كلمته، وليس غير ذلك.

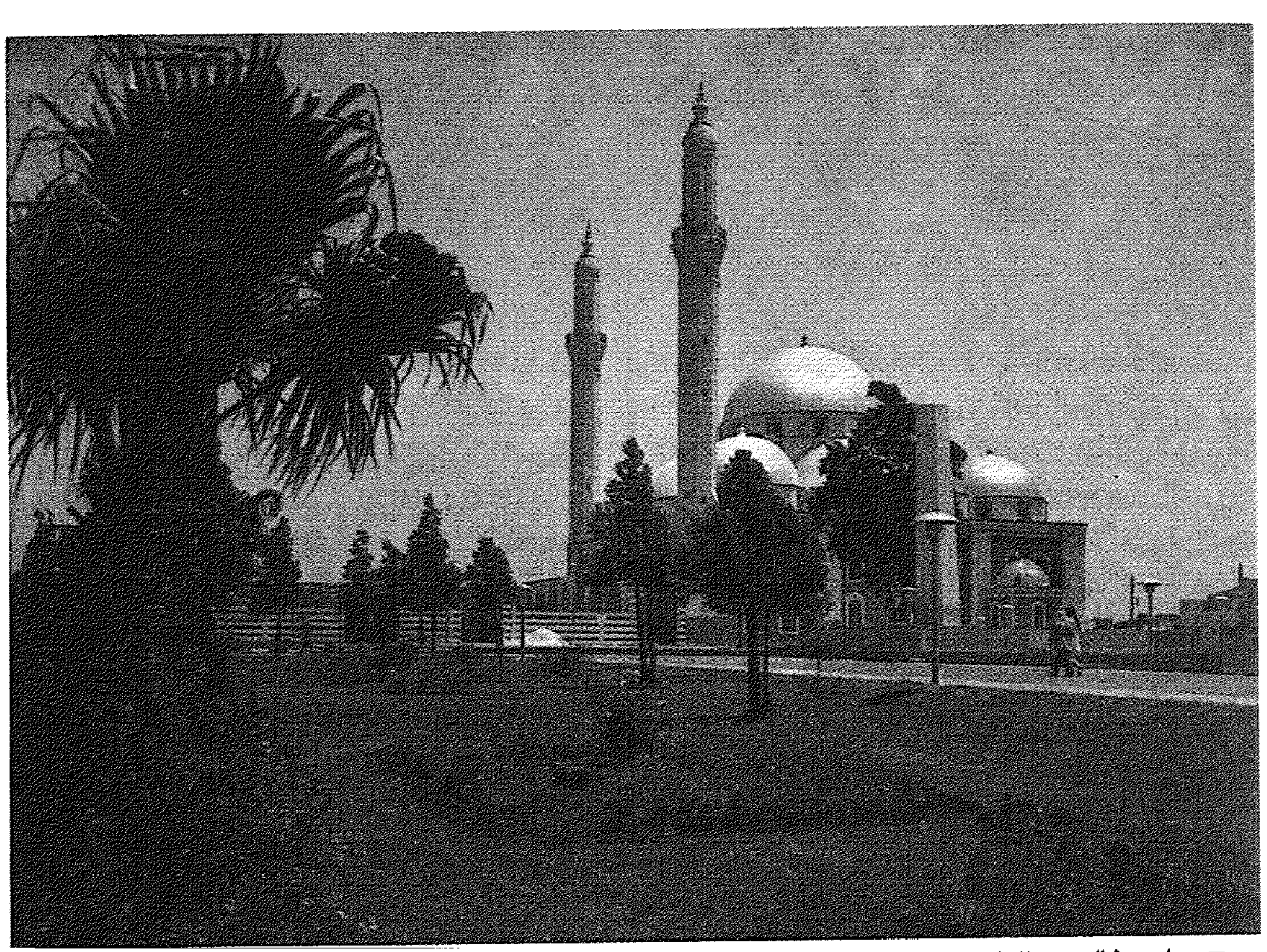
ان حدث الفتوحات هو حدث تاريخي كامل، ومعلوم ان الحدث التاريخي هو ما كان بطله انسان أو وراءه انسان، وكل حدث ليس فيه انسان ليس بتاريخ، فصراع حيوانات الغابة، وأسماك المحيطات لا يمكن عده حوادث تاريخية، والانسان، هذا المخلوق العجيب، فيه مجموعة من القوى والحواس والعوامل والغرائز، وهي متقلبة غير ثابتة ومتحولة، وحياة الانسان فيها طعام، وتفكير، وحروب، وعلوم وآداب وفنون، وعبادات، وسياسة، وادارة، وغرائز مختلفة، الى غير ذلك، والانسان الذي فقد احدى حواسه أو قواه وغرائزه ليس كاملا بل فيه عاهة، وذوي العاهات بين البشر اقلية، ولهذا فإن **تعليل حدث تاريخي بطله الانسان اقتصاديا فقط او دينيا، او غريزيا، او... او... فقط فيه تشويه وبتر، واعتماده كمن يعتبر ذوي العاهات بين البشر هم الأكثرية**. ان الحدث التاريخي الكامل مثله مثل الرقم الكامل، يمكن ان يحوي نسبا من الفعاليات مختلفة ومتباينة متحولة، ولكنها غير متجمدة، ولا متبلورة، ولقيام اي حدث لا بد من محرض أو دافع، لكن هذا لا يكفي لوحده، فالشعور بالجوع غير كاف للدفع الى نيل الطعام، والشعور بالظلم والاستغلال لا يؤدي دائما الى الثورة، ثم حدوث الثورة لا يعني نجاحها، وأكل الطعام لا يعني نهاية الجوع ونيل العافية، وعليه إذا قلنا لا بد من محرض، نتبع ذلك بالقول بأنه لا بد بعد ذلك من ارادة للتنفيذ، وعزيمة على التحرك، ثم قدرة على التطبيق قائمة على خطة، وبعد هذا قد يحصل نجاح اولي، يكتب له التأثير الدائم والخلود اذا ما حول الى نجاح دائم.

ومسلم به ان المحرض على الفتوح هو الاسلام، فالفتوحات قامت اثر قيام الاسلام وباسمه وبسببه، ولا شك ان عقيدةالجهاد في الاسلام كانت هي المحرض، فالاسلام قد مزج بين المفاهيم، والفتوحات قد تمت بأيدي بشر ارتبطت مثاليتهم بالواقع لا بالخيال، فكان كل واحد منهم يقول «ان لربك عليك حقا، وان لجسمك عليك حقا، وان لزوجك عليك حقا، فأعطى كل ذي حق حقه»، ولعل سر نجاح المسلمين العظيم يكمن في العمل على الأرض والقلب مشدود الى السماء، ولقد استطاع المسلمون ان يعمل كل منهم في سبيل دنياه كأنه يعيش ابدا، وكان العمل الدنيوي عملا في سبيل الآخرة، كأن صاحبه سيموت غدا، فالاسلام قد مزج المفهوم الدنيوي بالمفهوم الديني، فكان كل عمل يقوم به الانسان حتى متعته الفردية عملا تعبديا، يمكن ان يتقرب به الى الله سبحانه وتعالى، وفي قانون القتال عند المسلمين اذا كسب المسلم المعركة ينال كمية كبيرة من الغنائم، وثوابا عظيما، واذا ما قتل فانه يذهب شهيدا الى جنان النعيم، والشهداء في الاسلام احياء عند ربهم يرزقون.

على هذا تحرك العرب لفتح العالم تبعثهم عدة بواعث بعضها اعلى من بعض، ويتبعون عدة غايات بعضها أرفع من بعض، باعثهم الأول العقيدة، وغايتهم المثلى نشرها، لكن هذا النشر من اجل سعادة الدنيا وهناء الحاضر، وبسعادة الدنيا وهناء الحاضر يتحقق رضى الله، والقرار في الجنة حيث الهناء الأبدي والسعادة السرمدية بلا عناء ولا شقاء.

وبعد معرفة المحرض والدافع على عزيمة التحرك لنبدأ الآن بالحديث عن التطبيق الذي يرتبط بخطط القتال، والسلاح والتدريب والنظام، وما تم اثناء التحام الجيوش وبعد ذلك.

بدأت اعمال الفتوحات أولا على جبهة العراق، وكانت العراق خاضعة الى الامبراطورية الساسانية، فبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واثناء انشغال المسلمين بحروب الردة، زار المدينة المثنى بن حارثة الشيباني، الذي كان واحدا من زعماء قبيلة شيبان، صاحبة الفضل في النصر يوم ذي قار، واتصل بأبي بكر، ففوضه بمبادرة العمل العسكري ضد الفرس، وعندما قضي على حركة الردة، أمر أبو بكر خالد بن



□ جامع خالد بن الوليد في حمص.

الوليد بالتوجه نحو العراق، والتعاون مع المثنى، وكان هذا سنة ١٢هـ/٦٣٣م.

وفي خلال اقل من عام واحد استطاع خالد بمعاونة المثنى، تحقيق عدد من الانتصارات على حاميات الحدود الفارسية، مع القوات التي جاءت لنجدتها، وتتوج عملها بحصار مدينة الحيرة، حاضرة المناذرة والاستيلاء عليها صلحا، وقام ابو بكر بامداد خالد بقوات جديدة، وجعله قائدا اعلى لجميع القوات العربية في جبهة العراق، لكن مكوث خالد لم يطل في العراق، حيث جاءته اوامر الخليفة بالتحول الى بلاد الشام، حيث سيقوم بجليل اعماله التي ستعطيه شهرته التاريخية الواسعة.

فحينما كانت الجيوش العربية نشطة ضد الفرس، كانت كتائب اخرى تعمل ضد الدولة البيزنطية ايضا، وقواتها في بلاد الشام، وكانت الأعمال العسكرية ضد بلاد الشام قد بدأت منذ ايام الرسول، وكانت آخر قوة جهزها صلى الله عليه وسلم قبل وفاته اراد ارسالها ضد بلاد الشام، ثم توفي، فكانت اول الجيوش التي تحركت زمن ابي بكر، وعلى الرغم من هذا فإن حروب الردة قد عطلت العمل ضد بيزنطة في الشام لفترة وجيزة وبعد القضاء على الردة بدأت الأعمال العسكرية هنا، لكن بعد أن بدأت في العراق بعدة اشهر.

ففي سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م استنفر ابو بكر العرب في بقاع الجزيرة، وشكل ثلاثة جيوش ضم كل واحد منها ثلاثة الاف مقاتل، ثم امدها الى ان وصلت الى السبعة، وجعل على رأس هذه الجيوش يزيد بن ابي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، وعمرو بن العاص، وأرفق هذه الجيوش عدداً من مشاهير الصحابة والمسلمين، مثل أبي عبيدة بن الجراح، وخالد بن سعيد بن العاص، ويبدو ان مهمة أبي عبيدة كانت العمل بوظيفة ضابط ارتباط لهذه الجيوش الثلاثة، وصلة وصل لها بالمدينة المنورة، ولم تتحرك هذه الجيوش كتلة واحدة، وانما جاء تحركها على دفعات، كل دفعة ذهبت في اتجاه معين، ويرى

البعض ان سبب ذلك يعود الى عدم وجود خطة واضحة في ذهن أبي بكر حول مهمة هذه الجيوش، فتح أم اعمال غارة، وأن ابا بكر كانت تصله قوات قبيلة ما من قلب الجزيرة، فيدفعها نحو بلاد الشام تخلصا منها، وحتى ترى حظها، وكان يستجيب لتطورات الأحوال.

والذي يبدو ان واقع الحال لم يكن هكذا، فأبو بكر مع اعوانه في المدينة كانوا يملكون معرفة جغرافية جيدة عن بلاد الشام والعراق، مع تصور ومعرفة لا بأس بها للعالم المتحضر كله، فشبه جزيرة العرب يمكن النفاذ منها برا الى العالم إما عن طريق العراق أو عن طريق الشام، ومن العراق بعدما يجتاز المرء الدجلة يمضي الى المشرق، كما يمكن ان يسافر الانسان من العراق الى الجزيرة فأرمينية ومن ثم الى شواطىء البحر الأسود وهكذا، ومن الشام يمكن للانسان ان يمضي من جنوبه الى مصر فالشمال الافريقي مع افريقية، ثم الى اوروبا، كما يمكن للانسان ان يخترق وسط الشام الى الجزيرة فأرمينية ومن ثم الى شواطىء البحر الأسود وهكذا، ويمكن ايضا ان يماشي الانسان الساحل الشامي صعودا الى الشمال الى آسية الصغرى وحتى القسطنطينية وهكذا..

لقد أرسل أبو بكر جيشا واحدا الى العراق، ومعلوم ان هذا الجيش انقسم بعد القادسية الى قسمين واحد عسكر في الكوفة والآخر في البصرة، وكانت فتوحات ايران وخراسان وما وراء النهر مسؤولية جند البصرة، في حين ان جند الكوفة ماشوا الفرات صعودا حتى الجزيرة فأرمينية.

وايضا ارسل ابو بكر ثلاثة جيوش الى الشام، فجيش عمرو بن العاص هو الذي تولى شأن فلسطين، وهو الذي فتح مصر بعد ذلك، ومنها مضى فاتحا الى الأندلس، وأما جيش يزيد بن أبي سفيان فهو الجيش الذي اجتاز طوروس بعد اليرموك، وهو الذي حاصر القسطنطينية مرارا، وجيش شرحبيل هو الذي خرق وسط الشام، ومضى الى الجزيرة حيث التحم مع القوات القادمة من العراق، وهو لا شك جيش أرمينية وجبهة الخزر.

نحن حين نرى الأمور بهذا المنظار العلمي الموثق ندرك ان قيادة المدينة كانت تنفذ خطة واضحة المعالم دقيقة للغاية استهدفت فتح العالم، ونشر الاسلام فيه، ويمكن أن نضيف بعد هذا ان ابا بكر لم يدفع قواته تخلصا منها، انما كان وراء ذلك خطة عسكرية واضحة، قامت على العقيدة القتالية لعرب شبه الجزيرة، وهذه العقيدة قد أخذت في اعتبارها طبيعة المقاتل العربي وأحواله من حيث التسليح والتموين والمقدرة على القتال، وايضا طبيعة القوات البيزنطية والساسانية من كافة النواحي.

لقد جند أبو بكر قواته من قبائل الجزيرة، وأفراد هذه القبائل كانوا يتقنون من الحروب الأعمال السريعة ولا يعرفون الالتزام بقوانين وقواعد للزحف المنظم، وكانت اسلحتهم خفيفة، ومؤنهم قليلة للغاية، وبكلمة موجزة، كانت قوات ابي بكر قوات غير نظامية، وغير محترفة، وقع عليها واجب قتال الجيوش النظامية لأعرق الامبراطوريات في معرفة فنون القتال والزحف والتعبئة، ولهذا كانت أولى مهام القوات العربية تمزيق تجمع القوات المعادية، ثم انهاك هذه القوات، واضعاف معنوياتها، واخيرا انزال ضربة قاصمة وسريعة بها، وكان هذا ما حصل في الشام بشكل خاص.

فالى الشام ارسل أبو بكر قواته على شكل مجموعات صغيرة لتعيث في كل بقعة وتدمرها، ولتجبر قوات بيزنطة على التمزق والملاحقة للعدو بدون فائدة، وكانت القوات العربية تتجمع بين آونة وأخرى لتنزل ضربات كبيرة بالقوات البيزنطية، وهكذا فقد اصطدمت القوات العربية بقوات بيزنطة في اكثر من معركة كبيرة، كانت كلها مقدمة لمعركة فاصلة وقعت في اليرموك.

ان عمل الوحدات الصغيرة، ضد الجيش النظامي البيزنطي، لم يوجد حلا لمشاكل التموين، وأربك العدو فقط، لكن مكّن ايضا من جمع معلومات عن الأرض والعدو، كما سهل فصل المحكومين «الرعية» عن الحكام بعدما أظهر عجز هؤلاء الحكام، وهذا ما يعلل كثرة المعاهدات التي صنعها العرب مع حكام القرى والجماعات الصغيرة والمتوفرة أخبارها في المصادر، ثم فوق هذا كله ان الغارات المتوالية لا شك قد بثت الرعب في صفوف الخصم وأنزلت معنويات جنده الى الحضيض، وجاء ذلك تطبيقا لقوله صلى الله



□ مدينة حمص (المعروفة بمدينة ابن الوليد).

عليه وسلم: نصرت بالرعب من مسيرة شهر.

يبدو أن جيش عمرو بن العاص توجه من المدينة سالكا الطريق الموازي لشاطىء البحر الأحمر نحو فلسطين من جنوبها، بينما سلك الجيشان الآخران طريق المدينة، تبوك، معان، فوادي الأردن، واصطدمت هذه القوات بجيوش بيزنطة فهزمتها، وكان الامبراطور البيزنطي هرقل مقيما في حمص، وعندما جاءته أخبار زحف الجيوش العربية، وأنباء انتصاراتها، وهزائم قواته، حرك قوات ضخمة بقيادة أخيه تيودور ووصلت اخبار التحرك البيزنطي هذه الى العرب، فكتب أبو عبيدة بخبرها الى أبي بكر، فكتب أبو بكر الى خالد بن الوليد: «أما بعد، فاذا جاءك كتابي هذا، فدع العراق، وخلف فيه اهله الذين قدمت عليهم وهم فيه، وامض متخففا من اهل القوة من اصحابك، الذي قدموا العراق معك من اليمامة وصحبوك من الطريق، وقدموا عليك من الحجاز، حتى تأتي الشام، فتلقى أبا عبيدة، ومن معه من المسلمين، فاذا التقيتم فأنت امير الجماعة، والسلام عليك».

واستجاب خالد للأوامر، وتحرك نحو الشام، فاجتازالصحراء بسرعة مدهشة، وكان عبوره على الطريق القديم المهجور الذي كان يصل تدمر بالعراق، وجاء هذا العبور من اعظم الأعمال العسكرية، وأكثرها مغامرة وشجاعة، وهو دليل على معرفة جغرافية عميقة لدى المسلمين، فقد ظهر خالد بشكل مفاجىء في صحراء تدمر، ثم في منطقية دمشق وجنوب بلاد الشام، فهاجم بصرى، وهزم حاميتها ثم صالح اهلها، وهكذا صار سيدا لمنطقة حوران، واربك ظهور خالد هذا تيودور، وأوقعه بين نارين، فكان سبب اخفاق مهمته، وبعثت اعمال خالد النشاط والحماس بين القوات العربية، ومن حوران راسل امراء الجيوش العربية،وطلب منهم ان يلاقوه جميعا في منطقة اجنادين ليس بعيدا عن الرملة.

وفي اجنادين التقت القوات العربية المتحدة التي قاربت الخمس والعشرين الفا من المقاتلين مع القوات البيزنطية لفلسطين وجيوش تيودور، وكانت هذه القوات تفوق القوات العربية عَددا وعُددا، وهزم خالد البيزنطيين، وألحق بتيودور العار، وجعله يفر نحو أخيه، فسبب رحيل الامبراطور عن حمص نحو أنطاكية لجمع جيش جديد، وارساله ضد المسلمين لمنعهم من التقدم شمالا.

وسقط بين القتلى في اجنادين حاكم فلسطين البيزنطي، وقد حررت هذه المعركة فلسطين من الحكم البيزنطي، وأعادتها عربية الشعب والحكم والعقيدة، وهذه المعركة تشابه من هذه الزاوية في نتائجها معركة القادسية بالنسبة للعراق، وقد حدثت هذه الوقائع كلها سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م وفي اواخر حياة أبي بكر.

وبعد أجنادين اصبح الطريق مفتوحا امام العرب للتحرك نحو دمشق، وقبيل مشارف دمشق، هزم العرب النجدات البيزنطية التي أرسلها هرقل في معركتين ضيقتين للغاية في مرج الصفر وفحل ووصلوا أسوار دمشق وأخذوا في حصارها.

وفي هذه الأثناء وصلتهم اخبار وفاة ابي بكر، واستخلاف عمر بن الخطاب، وافتتح عمر عهده بعزل خالد عن القيادة العامة للقوات العربية في الشام، لأنه كان حريصا على منع الجند من التدخل في شؤون السياسة والحكم، ويهمه مصالح الأمة فوق مصالح الفرد وشهرة البطل، وقد أحل عمر أبا عبيدة بن الجراح محل خالد، ولم يحدث

هذا العزل تأثيرا على وضع القوات العربية، اذ بقي خالد القائد الفعلي بشكل مؤثر، حيث أن أبا عبيدة كان لا يقدم على عمل الا بعد مشورة خالد، ثم بعد ذلك كان يوكل اليه تنفيذ كل ما كان يشير به عليه.

وحاصر العرب دمشق لفترة طويلة، سقطت بعدها سنة ١٤هـ/ ٦٣٥م وعقب سقوطها تحركت سراياهم شمالا فتجاوزت منطقة مدينة حماه، واستمرت بالتقدم شمالا، وأخذ المسلمون يحكمون سيطرتهم على جميع أجزاء بلاد الشام، ويطهرونها من الجيوب البيزنطية، ويعملون في سبيل اعادة تنظيمها لكن بيزنطة ما كانت لتتخلى عن بلاد الشام، دون ان تبذل كل ما بقي لديها من طاقات، فجند هرقل جيشا عظيما للغاية ضم جنسيات الامبراطورية: يونان، وسريان، وغساسنة، وأرمن، وزحفت القوات البيزنطية جنوبا تريد أقتلاع العرب وتحطيمهم، ووصلت اخبار التحرك البيزنطي الى أبي عبيدة وكان في منطقة حمص، فعقد مجلسا حربيا ضم كبار قادة قواته، وتباحث معهم في الأمر، فقر رأيهم على الانسحاب الى موقع يمكنهم من السيطرة على الشام، ومن التراجع نحو شبه الجزيرة اذا اقتضى الحال، وقرر ايضا الكتابة الى عمر بوصف حالهم، وبطلب المدد.

وانسحبت القوات العربية جنوبا متخلية عن جميع المدن والاراضي التي اخذتها، وتجمعت هذه القوات في منطقة اليرموك، وكان لهذا الانسحاب أثره على القوات البيزنطية، حيث ولد الزهو والدعة في نفوس قادتها، كما دفعهم الى انزال العقاب بجميع الذين تعاونوا مع العرب، مما زاد من نفرة السوريين وكراهيتهم للبيزنطيين.

وفي منطقة اليرموك شعر أبو عبيدة بحراجة موقف المسلمين، وعرف ان الكثير منهم يرى الانسحاب من الشام «حتى يأتيهم مدد يرون انهم يقوون على من جاءهم من الروم» «فدعا أبو عبيدة الناس فاستشارهم فكل من استشار من الناس أشار عليه بالخروج من الشام، الا خالد بن الوليد، فانه أشار عليه بالمقام، وقال لأبي عبيدة: خلني والناس، ودعني والأمر، وولني ما وراء بابك، فأنا اكفيك باذن الله امر هذا العدو، فقال له أبو عبيدة: شأنك بالناس».

والتقت القوات العربية بالقوات البيزنطية في اليرموك، بالقرب من بحيرة طبرية، في منطقة يجري بها نهر وادي الرقاد، وكان ظهر الجيش العربي باتجاه الصحراء وجناحاه يحميهما جوانب وادي الأردن وفي الأمام كان الجيش البيزنطي، ونشط خالد في اعداد خطط الحرب نشاطا كبيرا تجلت فيه عبقريته العسكرية، قام يصف القوات المسلمة «ثلاثة صفوف، وجعل ميمنة وميسرة» ثم جاء بالفرسان فقسم الخيل أرباعا (أي كراديس) تولى هو قيادة ربع (كردوس) وبعث على كل ربع قائدا من أشجع المسلمين، كما انه جعل قوات المشاة على شكل تستطيع الصمود به لفرسان البيزنطيين الثقال واستدراجهم وبعثرة جهودهم، واعتمد خالد خطة هدفت الى فصل سلاح الفرسان البيزنطي عن المشاة وأوكل الى فرسانه الخفاف هذه المهمة، وقد طبق خالد خططه بوعي وشجاعة، فسبب تحطيم القوات البيزنطية، وكان ذلك في صيف سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م، ولا ريب ان القوات البيزنطية كانت على الأقل ضعفي القوات العربية التي قدرت بخمس وعشرين الفا.

ومما لا شك فيه ان معركة اليرموك كانت احدى معارك التاريخ الانساني الكبرى، لما نجم عنها من نتائج فبعد هذ المعركة، عاد العرب فاستعادوا دمشق والمناطق التي استولوا عليها من قبل، وتابعوا زحفهم شمالا حتى جبال طوروس، وفر هرقل نحو القسطنطينية، وهو يردد: «وداعا يا سورية، وداعا لا لقاء بعده»، فقد حررت اليرموك سورية من الحكم البيزنطي ورسخت طابعها العربي، كما كانت المقدمة المباشرة لانحسار هذا الحكم عن مصر وشمال افريقية، وبداية قيام الوطن العربي.

وبعد الفراغ من فتوح الشام عاش خالد بن الوليد في منطقة حمص الى ان توفاه الله سنة احدى وعشرين وسمع لما حضرته الوفاة يقول: «لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها، وما في جسدي موضع شبر الا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، وها أنذا اموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت اعين الجبناء»، ودفن خالد في مدينة حمص، وما زال قبره فيها قائما، يزوره من يأتي حمص، لأنه علمها البارز، وبه باتت تعرف بمدينة ابن الوليد. ●

الطُرُق التجارِيَّة في العُصُور الوُسْطى

د. نقولا زيادة

□ قافلة من القوافل المغولية التي كانت تحمل الحرير عبر العصور من الصين إلى المشرق العربي، مخترقة الصحاري الواسعة يلاحظ ان المغول كانوا يستعملون العربات في تنقلهم (حيث تسمح الظروف) من كتاب (La Route de la Soie; L. Boulnois)

التجارة حرفة قديمة، عرفتها المجتمعات منذ أن بدأت تنتج فائضا عن حاجتها، سواء في الزراعة أو الصناعة، فأخذت تتبادل سلعها فيما بينها. ومع تحسن وسائل المواصلات، البرية والبحرية، اتسع نطاق التجارة. والذي نعرفه هو أن مناطق مختلفة في العالم، في العصور القديمة والوسطى، كانت تفرض رسوما جمركية على ما يدخلها أو ما يعبرها، من المتاجر والسلع. وقد تقوم حرب بين دولتين فتمتنع التجارة بين البلدين إلى أن تنتهي الحرب.

ولما قامت الدولة العربية الإسلامية، التي امتدت من أواسط آسية وحوض السند شرقا إلى شبه جزيرة ايبيرياغربا، أصبحت التجارة في هذه الرقعة الواسعة أيسر على من يتعاطاها، وأكثر ربحا للقائمين بها وعليها، إذ كانت البضائع تنقل في هذه المنطقة دون قيود. وحتى لما تشرذمت الدولة هذه، وقامت على أنقاضها دويلات متعددة، ظل الإسلام يربط بين أجزائها، بحيث كان الحاج والتاجر وطالب العلم والرحالة الطُلَعَة يتنقل بين بلد وآخر بكثير من الحرية.

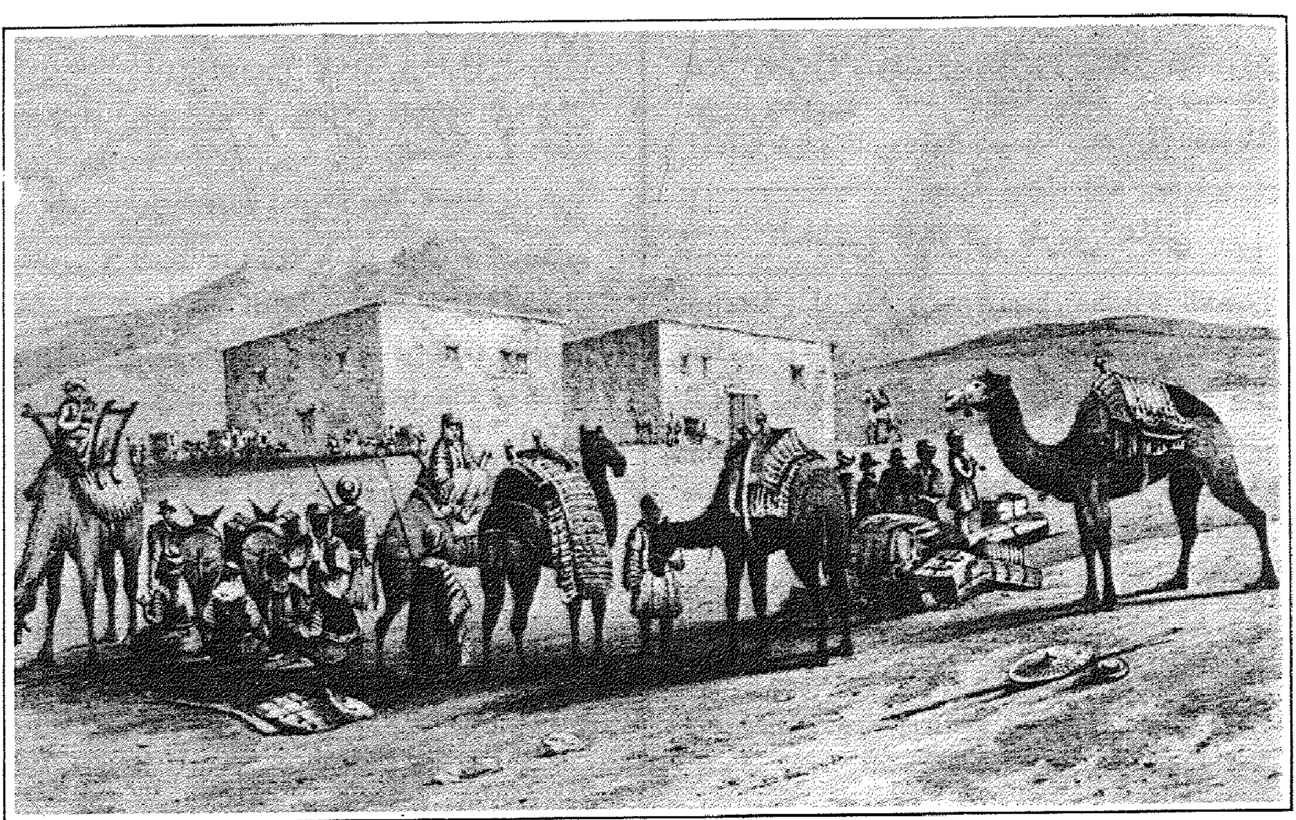
وهنا يعرض الكاتب لنواح من الطرق التجارية البحرية والبرية كما عرفت وتطورت في أواخر العصور القديمة والعصور الوسطى.

ـ ١ ـ
إلى الهند
مع الرياح الموسمية

البحر الأحمر، هذا البحر الضيق الواقع بين أفريقية والجزيرة العربية، كان حلقة اتصال تجارية بين شاطئيه من جهة، وبين المدن الواقعة على شاطئيه والموانىء القائمة على شواطىء البحار المتصلة به بعد أن يخرج المسافر من مضيق باب المندب. فنحن إذا عدنا القهقرى في التاريخ وجدنا أن قدماء المصريين كانت لهم، منذ أواسط الألف الثالث ق.م.، صلات تجارية مع بلاد بونت. والباحثون يجمعون تقريبا على أن بلاد بونت هي إما بلاد الصومال أو اليمن، أو لعل الكلمة كانت تستعمل للدلالة على المنطقتين اجمالا. فقد كانت السفن المصرية تبنى على مقربة من السويس الحالية، ثم تتجه جنوبا حاملة ما تقدمه مصر نفسها أو ما تجمعه من جاراتها. وفي موانىء بونت كانت تفرغ حمولتها وتعود ومعها ما كان يتجمع في الجنوب من بخور وتوابل أفاويه وحيوانات أفريقية. ونقوش الدير البحري وصوره ترينا خمس سفن كبيرة أرسلتها الملكة المصرية حتشبسوت في القرن الخامس عشر إلى بونت وقد عادت من هناك محملة بالسلع المختلفة.

وبعد أن ضعف شأن الامبراطورية المصرية ظهر الفينيقيون (في القرن العاشر قبل الميلاد) في البحر الأحمر كتجار كبار. فقد أظهرت البحوث الحديثة أن أحيرام ملك صور كان له أسطولٌ تجاري هناك، وقد كانت السفن تُبْنى في المكان المعروف بتل الخُلَيفة، وهو أيلة التي يذكرها الجغرافيون العرب. ويبدو أن السفن الفينيقية كانت توغل في الأسفار وتحمل معها من بلاد «أوفير» الذهب والفضة والحجارة الكريمة وخشبَ الصندل والعاج والقرود والطواويس. ويرى فريق من الدارسين أن أوفير هذه لم تكن سوى الهند بالذات.

وكان قيام الامبراطورية الفارسية وفتوح الاسكندر بعد ذلك وتقسيم امبراطوريته ثم قيام الامبراطورية الرومانية ـ كل هذه كانت لها آثارٌ بعيدة المدى على تطور التجارة مع البحار الشرقية عبر البحر الأحمر والخليج العربي. ومن حسن حظ مؤرخي التجارة في تلك البحار أن الفترة الممتدة من القرن الأول قبل الميلاد إلى القرن الثاني للميلاد قد زودتنا بمصادر مكنتنا من الحصول على صورة واضحة تقريبا لما كانت عليه التجارة البحرية والبرية في ذلك. وهذه المصادر هي: أولا مؤلف وضعه عالم اسكندري



□ كان الطريق الصحراوي من العراق إلى الهند تقوم فيه خانات للتجار ودوابهم، حيث كانت تباع مختلف البضائع. (الصورة تعود إلى القرن السادس عشر) الصورة من كتاب: (Travellers in Arabia; by Robin Bidwell)

اسمه أغاثرخيدس. ومع أن المؤلف نفسه فقد فان القسم الأكبر منه حفظ في كتابات متأخرة. والمهم أن المعلومات التي يزودنا بها مستقاة من شاهدي عيان ومقارن بعضها بالبعض الآخر. والمصدر الثاني هو كتاب الجغرافية الذي وضعه سترابون. وثالث مصادرنا دليل البحر الهندي الذي ألفه تاجر يوناني كان يعيش في مصر في أواسط القرن الأول للميلاد. أما المصدر الرابع فهو كتاب التاريخ الطبيعي من تأليف بلينيوس في أواخر القرن ذاته. وثمة تاريخ الاسكندر لأريان الذي زودنا بالمعلومات عن نيارخوس.

والذي يمكن أن نعرفه من هذه المصادر ومن نقوش أظهرتها الجزيرة العربية هو أن التجار العرب في اليمن وحضرموت وعُمان، وغيرهم من تجار الأقوام المجاورة، كانوا يركبون سفنهم من بلادهم إلى الهند ويسيرون بها في محاذاة الشواطىء. وسواء كان ابتداء الرحلة من اليمن أو من عمان، فإن السفن كانت تحاذي الشواطىء فإذا وصلت إلى الأخيرة قطعت بحر عمان في أضيق أماكنه، ثم عادت إلى محاذاة الشواطىء حتى تصل الهند. وكان الذي يحمل هؤلاء التجار، العرب منهم وغير العرب على السواء، على سلوك هذا الطريق هو أن سفنهم كانت صغيرة، وكانت الألواح فيها مربوطة ببعضها البعض بحبال من ليف جوز الهند، ولم تكن المسامير الحديدية تستعمل في بناء السفن قط. ولذلك فلم تكن السفن تقوى على مصارعة الأمواج العاتية التي يعرفها ملاحو المحيط الهندي بين أفريقية والهند.

ولكن هذا كله تغير في القرن الأول قبل المسيح على ما يخبرنا مؤلف دليل البحر الهندي. ففي ذلك القرن اهتدى هيبالوس إلى الرياح الموسمية وامكان الافادة منها في تسيير السفن إلى الهند. وقد كان لهذا الاكتشاف أثر في تطوير الملاحة في تلك المنطقة. فما الذي اكتشفه هيبالوس وماذا كان أثره؟

لقد جاء في دليل البحر الهندي أن السفر البحري كان يتم في سفن صغيرة تظل قريبة من الشاطىء حتى جاء هيبالوس الذي تنبه إلى مواقع الموانىء وأحوال البحر، ومن ذلك اهتدى إلى خير الطرق التي يمكن أن توصل السفن عبر البحر إلى الهند رأساً. ومن ذلك الحين صارت

السفن تخرج من جهات عدن أو قنا (بير علي) أو حتى من رأس التوابل في أفريقية وتتجه رأسا إلى موانىء السند أو موانىء أخرى في غرب الهند.

ولكن ما هو الاكتشاف الذي تم على يد هيبالوس؟ لاحظ هذا الملاح أن الرياح الموسمية الصيفية تهب من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وهي رياح قوية يمكنها أن تدفع بالسفن قدما فتصل في مدة أقصر. وقد كان هذا ممكنا في حالة واحدة وهي بناء سفن أقوى وأكبر، واستعمال الشراع المربع الذي يفيد من قوة الريح. وهذا الذي حدث.

وعندها أصبح التوقيت الزمني للسفن التي تغادر مصر إلى الهند على الوجه التالي: تغادر السفينة مصر في شهر تموز (يوليو)، فتصل جنوب البحر الأحمر وتخرج منه إلى المحيط فتدفع بها الرياح الموسمية الصيفية في شهر آب (أغسطوس) إلى شواطىء مالابار في غرب الهند، وكانت الرحلة هذه تحتاج إلى قرابة أربعين يوما، فتصل السفينة في أوائل أيلول (سبتمبر) وتعود مع الرياح الموسمية الشتوية. وظل طريق هيبالوس متبعا نحو قرنين من الزمان.

أما ما كان يتبادل به من السلع بين مصر وديار الشام والعالم الروماني من جهة وبلاد الهند وما وراءها من جهة ثانية، فيشمل الخمر والبرونز والذهب والأشياء المصنوعة التي كانت تجمع في الاسكندرية ثم تنقل بالنيل إلى قفط وبرا إلى ميوس هرموس أو برنيتشي على البحر الأحمر. فإذا كانت السفن تقصد جنوب غربي بلاد العرب فإنها كانت تلقي مراسيها في موزا (وهي مخا الحديثة) فتسلم ما معها هناك وتعود بالبخور والطيوب. أما السفن التي كانت تقصد الهند، فقد كانت تتزود بحاجتها من الماء والمؤن في قنا، إلى الشرق من عدن الحالية، وعندها تتجه السفن إلى ميسور وغيرها على شاطىء مالابار رأسا عبر المحيط. أما إذا كانت السند أو ما إليها هي المقصودة فإن السفن تحاذي الشاطىء إلى أواسط الساحل الجنوبي لحضرموت ثم تتجه إلى الهند رأسا. ويبدو أن بعض السفن كانت تخرج من باب المندب وتتجه إلى ميسور رأسا أيضا.

وبالاضافة إلى ما ذكرنا من الموانىء فقد كانت عدن وجزيرة سوقطرى وجزيرة سيلان من مراكز التجارة المهمة.

— ٢ —

الخليج العربي طريق عالمي

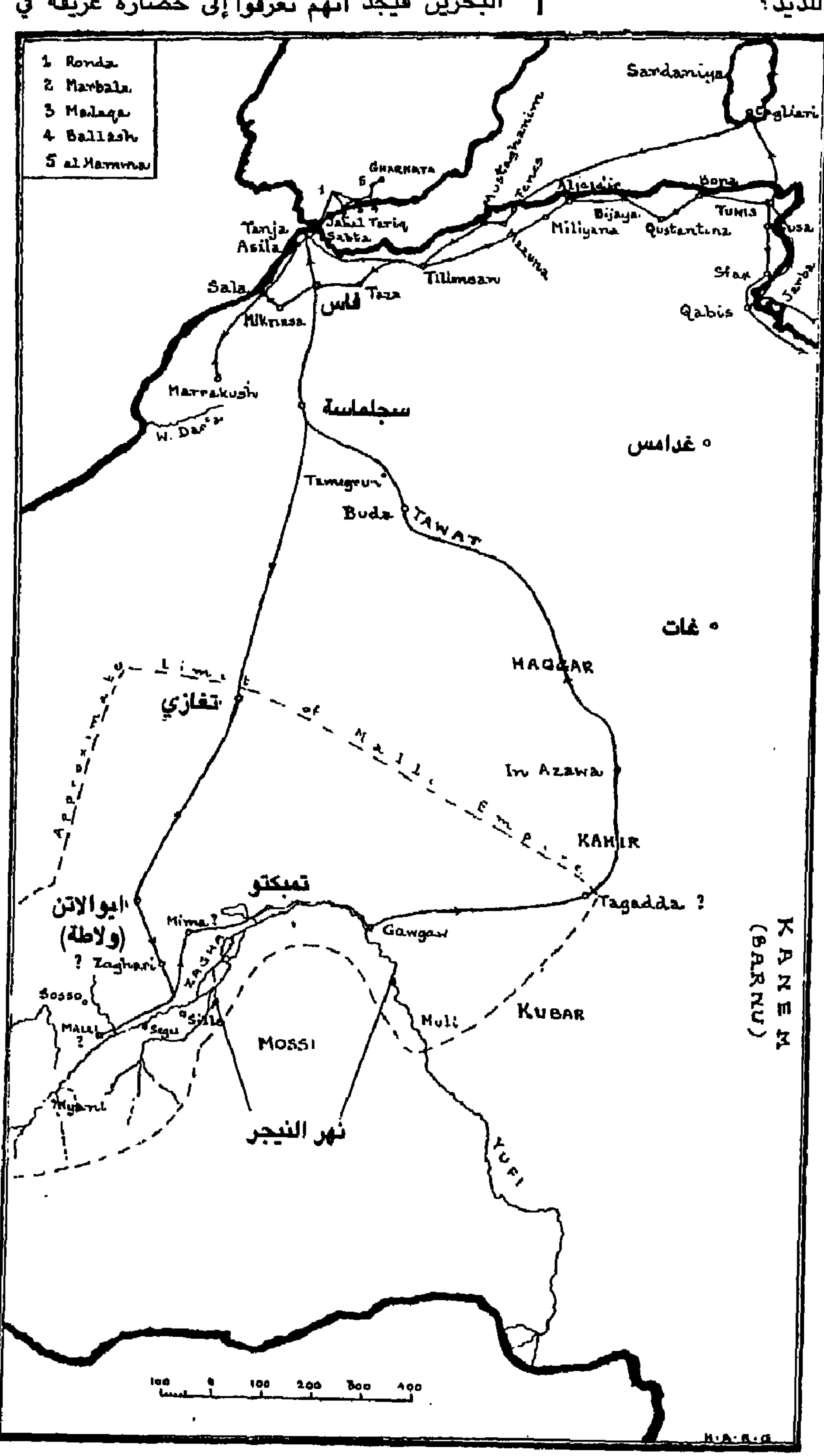
عالمان انتظما فيما بينهما حضارة العصور القديمة والمتوسطة واحتضنا ثقافتها: هما عالم البحر المتوسط وعالم المحيط الهندي. في كل منهما نشأت أساطير وازدهرت آداب وقامت صناعات وظهرت فنون. وفي كل منهما كانت هذه الأساطير والآداب والفنون ترمي إلى تمجيد الخالق والتعبير عن أشواق الإنسان وآماله وآلامه وتجسيد حاجاته الدنيوية. والخلاف بين ما عرف هناك وما عرف هنا هو خلاف في التعبير، أسلوبا وطريقا ولغة ورسما وفنا.

وعلى بعد الشقة بين هذين العالمين، وعلى ما بينهما من برار وقفار وجبال وصحار، فقد اتصل واحدهما بالآخر عبر التاريخ وعبر هذه المسافات الشاسعة. وقد تم هذا الاتصال عبر الطريقين المائيين الرئيسيين — البحر الأحمر والخليج العربي. وبسبب توسط هذا الأخير المسافات الرحبة فإنه كان طريقا أولى بعناية التاجر والمحارب والرحالة والحاج — كل أولئك وجدوا أنفسهم، عبر العصور والقرون، يتنقلون بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط جيئة وذهابا، حاملين الأسطورة والأدب والدين والعلم والمتاجر والسلع، مقايضين متبادلين بائعين مشترين. والأسواق في كل من العالمين على استعداد لتلقي ما يأتيها والاستفادة منه متاجرة وتعلما واستمتاعا.

أليس من الطريف أن السومريين، وهم أقدم شعب متحضر سكن العراق قبل آلاف السنين، عندهم أسطورة تقول بأن حضارتهم جاءتهم من الجنوب، أي من الخليج العربي، وقد حملها إليهم واحد من الأحياء البحرية نصفه الأعلى إنسان ونصفه الأسفل سمكة؟ وقد فسر الباحثون هذه الأسطورة على أنها إشارة إلى ارتباط حضاري قديم العهد بين حوض السند ووادي الرافدين! أو ليس من المهم أن يعرف أولئك الذين يستمتعون بقصص السندباد البحري أن

هذه القصص تمثل تمازجا في الخيال بين قصص عن طيور ضخمة تقطن جبال الهند المرتفعة وقصص عن تجار انتقلوا فعلا من عالم البحر المتوسط إلى عالم المحيط الهندي للتجارة فعادوا وفي جعبتهم هذا المزيج اللذيذ؟

أليس من المفيد حقا أن يتابع الواحد منا أخبار الحفريات الأثرية التي يقوم بها العلماء في شواطىء الخليج العربي الغربية ـ من جزيرة فيلكة في الشمال إلى دبي في الجنوب ـ وفي البحرين فيجد انهم تعرفوا إلى حضارة عريقة في



طريق ابن بطوطة
من المغرب إلى مالي

القدم هي جماع ما اهتدى إليه الإنسان هناك ولعلها كانت ذات تأثير على الجيران كما كانت ذات تأثر بالجيران؟

ما الذي أدّى إلى قيام مدينة مثل تدمر في القرنين الثاني والثالث للميلاد؟ أليست هي التجارة التي كانت تنقل من موانىء الخليج العربي عبر هذه المدينة إلى ديار الشام؟ وما الذي أدّى، في القرنين الثالث والرابع للميلاد، إلى تدهور النقد الروماني وتنقيص قيمته؟ ألم يكن ذلك مسببا، إلى درجة ما، عن كثرة ما أنفق الرومان، من ذهبهم وفضتهم، على الحجارة الكريمة والحرير وما إلى ذلك مما كان يحمل من عالم المحيط الهندي؟ وكثرة من هذا كان ينقل عبر الخليج العربي.

وهذه الأبُلّة، في جنوب العراق، كانت فرضة للسفن الهندية والصينية حاملة ما هناك من صناعات إلى العراق وبعده إلى ديار الشام ثم غربا إلى ما تبقى من بلاد البحر المتوسط. كان ذلك قبل الإسلام واستمر في العصور الإسلامية الأولى. وقد استمر الاتجار طويلا وإن تعددت الموانىء واختلفت أماكنها ومواقعها. ولنأخذ مثلا على ذلك فترة الازدهار الكبير في التاريخ العربي الإسلامي.

عرف الخليج العربي ازدهار التجارة فيه بشكل خاص في القرنين الثالث والرابع هـ (التاسع والعاشر م). ذلك بأن الدولة العباسية كانت تتجه شرقا. ويرى الدكتور جورج حوراني أن استتباب الأمن في الدولة الإسلامية من الجهة الواحدة، ووجود دولة قوية في الصين في الوقت نفسه، أي في أوائل عهد الدولة العباسية، يسرا للتبادل التجاري ظروفا مساعدة. فكان الخليج مسرحا لتجارة رابحة نشيطة وكان التجار ينعمون بالثروات الطائلة. وكانت الموانىء الرئيسية سيراف وعمان والبصرة. فسيراف، على ما يقول الأصطخري، كانت أغنى بلاد فارس. وقد يبلغ ملك التاجر الثري أربعة آلاف الف دينار، وقد كانت دهليز الصين، على حد تعبير المقدسي.

والبصرة كانت الأبُلّة إلى جوارها. وقد كانتا تعينان سير السفن في رأس الخليج. والأبُلّة كانت أرفق من البصرة وأرحب.

وكانت عمان أحد المراكز الرئيسية في المتاجرة بين الصين وشرق أفريقية وموانىء الخليج العربي بالذات. وقد وصف ابن حوقل عمان بقوله «ناحية ذات أقاليم مستقلة بأهلها... وقصبتها صحار وهي على البحر، وبها من التجار والتجارة ما لا يحصى كثرة، وهي أعمر مدينة بعمان وأكثرها مالا. ولا يكاد يعرف على شط (بحر فارس) الخليج العربي بجميع الإسلام مدينة أكثر عمارة ومالا من صحار». وقد أكد ذلك المقدسي، الذي كتب بعد ابن حوقل بمدة قصيرة، بقوله «وصحار هي قصبة عمان وليس على بحر الصين اليوم بلد أجمل منه، عامر آهل طيب نزه... أسواق عجيبة».

ويبدو أن الرحلة التجارية إلى المحيط الهندي ـ سواء في ذلك الجزء الأسيوي أو الجزء الأفريقي منه ـ كانت تبدأ من الأبُلّة مستفيدة من أوقات المد، فتنحدر المراكب إلى سيراف حيث تجتمع السفن أيضا. وكانت السفن، فيما بعد من الأزمنة، تحمل النفاطين والمقاتلين للدفاع عن نفسها وركابها ومتاجرها ضد بعض المتلصصة. وسير السفن إلى البحار الصينية والهندية كان يتبع واحدا من طريقين إما طريق صحار (عمان) ومسقط ثم تقصد السفن ساحل مالابار بالهند، وأما الطريق المحاذي لشواطىء فارس فشاطىء السند.

وكانت المتاجر تشمل، فيما تشمل، الأقمشة الحريرية والكافور والمسك والأفاوية والعاج والحديد وقضبان النحاس.

لكن هذه الفترة لم تدم طويلا. ذلك بأن ضعف الدولة العباسية السياسي واضطراب أمر الصين حالا دون السفن الآتية من الشرق والوصول إلى الخليج بالذات، كما حال دون وصول سفن الخليج إلى الصين. وها نحن نجد أن المسعودي، الذي كتب في أواخر القرن الرابع للهجرة، يقول عن تجارة ذلك الوقت أن سفن التجار الصينيين وكذلك سفن التجار الإسلاميين من عمان وسيراف كانت تلتقي في بلاد كلة فتتبادل السلع والمتاجر، ويعود تجار الصين مع سفنهم إلى ديارهم، ويعود التجار المسلمون إلى بلادهم أيضا.

على أن الخليج العربي لم يقتصر دوره على التجار والتجارة. فالرحالون الذين ركبوا أمواجه لغير قصد التجارة كثر. فما أكثر ما اجتازه الحجاج والعلماء والسفراء. وما أكثر ما حمل العلم من الهند إلى بغداد عاصمة العباسيين، فلما أن تم للعرب في المعرفة دورهم الكبير خرجت المعرفة من ديارهم عبر خليجهم إلى الأصقاع الشرقية.

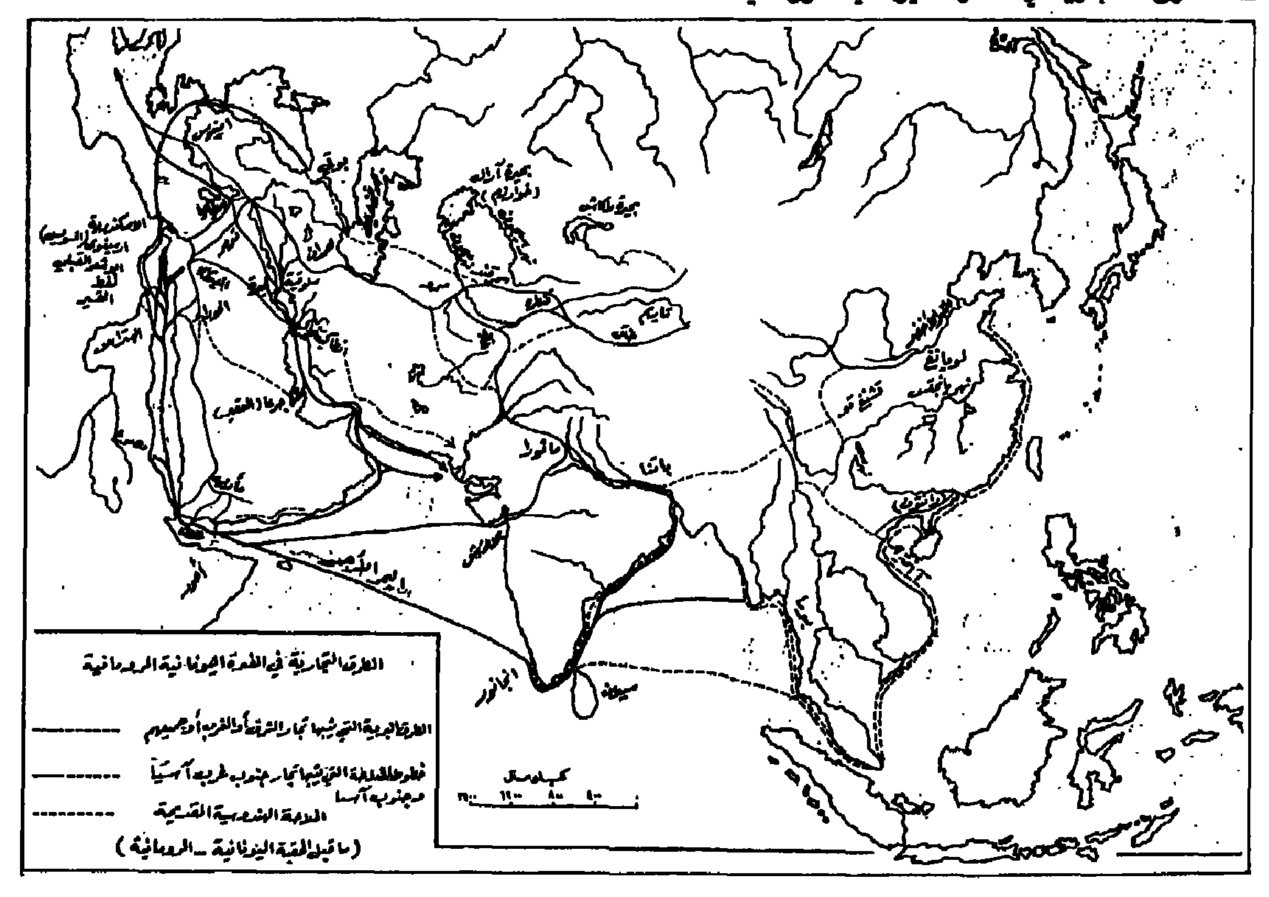
ولنذكر أيضا أن التجار حملوا إلى الهند، خاصة إلى الشواطىء الغربية، مع متاجرهم، الإسلام. فالإسلام الذي استقر في النهاية في تلك الجهات كان نتيجة هذه الرحلات التجارية الكثيرة والطويلة الأمد. ذلك بأن التجار كانوا يذهبون إلى موانىء الهند هذه مع الرياح الموسمية شرقا. وكان عليهم، بعد أن يبيعوا ما حملوا ويبتاعوا ما يرغبون فيه من متاجر، أن ينتظروا هناك حتى يتغير هبوب الرياح من الهند غربا. وهذه الفترة كانت تمتد شهورا. وكانت جماعات صغيرة من التجار المسلمين تقطن في المدن الهندية باستمرار لتقوم بالأعمال التجارية.

فهؤلاء التجار العرب المسلمون ــ المقيمون منهم والطارئون مؤقتا ــ هم الذين عرّفوا الهنود بالإسلام ونشروه بينهم.

على أن فئة أخرى من المسلمين نقلت الإسلام إلى الداخل في الهند وهي فئة المتصوفة. والذي يمكن قوله هو مع أن المتصوفة اتبعوا طرقا مختلفة في الوصول إلى الأصقاع الشرقية، فإن الكثيرين منهم وصلوها عن طريق الخليج العربي.

هذه الناحية لا تعدو كونها واحدا من الأدوار التي لعبها الخليج العربي في التاريخ وفي فترة واحدة منه. ذلك بأن التجارة بحد ذاتها كانت لها فترات متباينة من حيث النشاط أو انعدامه. وإذا نحن تذكرنا الاهتمام العالمي بالخليج العربي منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادي، باعتباره الطريق الرئيسي للتجارة بين غرب أوروبة والهند وما إليها، أدركنا أننا في الواقع أمام منطقة من مناطق العالم الهامة، والتي كان لها شأن أي شأن في تاريخ العالم ــ قديمه ومتوسطة وحديثه.

□ الطرق التجارية في الفترة اليونانية الرومانية.



الطرق التجارية العربية في العصور الوسطى

لعبت التجارة دورا كبيرا في حضارة العرب في العصور الوسطى. ذلك أن التجار فضلا عن أنهم كانوا ينقلون البضائع والمتاجر من مكان إلى آخر وبذلك ييسرون للناس الحصول على ما يحتاجون، فقد كانوا أيضا عاملا من عوامل نشر الاسلام كما أنهم كانوا ينقلون الكثير من الآراء والأفكار والمعارف والفنون والصناعات من قطر إلى قطر. وحرى بالذكر أن اتساع رقعة العالم الاسلامي وتنوع المنتوجات في أنحائه المختلفة كانت حافزا كبيرا للتجار على التنقل البعيد المدى. هذا بالاضافة إلى أن الأسواق الاسلامية كانت، بسبب الثراء الذي تمتعت به قرونا طويلة، على استعداد لاستهلاك الكثير من المتاجر من المناطق الخارجة عنه.

ولا يغربن عن البال أن العالم الاسلامي كان، بطبيعة موقعه الجغرافي، ملتقى الطرق الكبيرة البرية والبحرية الآتية من آسية وأفريقية وأوروبة.

وقد أجمل آدم متز في كتابه عن الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) تجارة المسلمين في ذلك القرن بقوله:

«كان التجار يحملون من فرنجة الخدم والغلمان والجواري والديباج والخز الفائق والفراء والسمور. ويركبون البحر من فرنجة ويخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى جدة والجار، ثم يمضون إلى السند والهند والصين؛ فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك، ويرجعون إلى القلزم، ثم يتحولون إلى الفرما، ويركبون البحر الغربي، فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية، فباعوها للروم، وربما ساروا بها إلى بلاد الفرنجة، فباعوها هناك. وإن شاءوا حملوا تجاراتهم في البحر الغربي، فخرجوا بأنطاكية، وساروا برا إلى الفرات فركبوا في دجلة إلى الأبُلّة ثم إلى عمان والهند والصين، وكانوا يتكلمون العربية والافرنجية والفارسية والرومية.

وكان للتجارة العربية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فضل آخر هو فتح الطريق التجاري إلى بلاد الروس في الشمال. على أنه كانت ثم بعض العلاقات قبل القرن الرابع بين بلاد الروس وبين بلاد الاسلام. فقد وصف لنا ابن خرداذبة مسلك تجار الروس من بلادهم إلى بلاد الاسلام بقوله: فأما مسلك تجار الروس، وهم جنس من الصقالبة، فإنهم يحملون جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلبة إلى البحر الرومي، فيعشرهم صاحب الروم، وإن ساروا في تنيس، نهر الصقالبة، مروا بخليج مدينة الخزر، فيعشرهم صاحبها، ثم يصيرون إلى بحر جرجان، فيخرجون في أي سواحله أحبوا، وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الابل إلى بغداد، ويترجم عنهم الخدم الصقالبة، ويدعون أنهم نصارى، فيؤدون الجزية».

كانت القوافل تحمل منتجات الصين والتبت وأواسط الهند، وكانت هذه القوافل تجلب من الصين خاصة الأقمشة الحريرية وبعض الأواني الصينية مقابل المنتوجات المصنوعة في بيزنطة، وفي العالم الاسلامي. ومن التبت كانت تجلب الفراء المستوردة من سيبيريا والجلود التي تسمى جلود استراخان التي تؤثرها الطبقة الموسرة. ومن فارس ومن بيزنطية ومن الهند، كانت القوافل تجلب أنسجة وأقمشة قطنية، وجواهر وأحجارا كريمة، وروائح وأعشابا طبية، ولكن عن طريق آخر هو طريق نهر الفولجا وبحر قزوين. وكان الأرقاء البيض يأتون من روسية ومن اسكندينافية، والعنبر يأتي من بحر البلطيق، والعسل من الشمال (وقد أوثر استخدامه على السكر) وكذلك الشموع الطويلة التي كان العالم الاسلامي يستهلك منها كميات كبيرة في مساجده. وكان طريق الهند — وهو طريق السندباد البحري — الطريق البحري، الذي يربط فارس وموزمبيق ومدغشقر بالشواطىء الشرقية والغربية للهند، وبالملايو وسومطرة، وبلاد كمبوديا. وفي ذلك الوقت كانت الميناء الكبير للصين الجنوبية كانتون التي كانت تقيم فيها جالية عربية بأعداد لا حصر لها.

ونحن إذا أخذنا ما رواه الجغرافيون العرب

عن السلع التي كانت تستورد ومصادرها وما كان يصدر منها وصلنا إلى ما يلي:

«كان الشرق يستورد من هذه البلاد المختلفة المنتجات الأكثر تنوعا. فمن أفريقية كان يستورد الأرقاء السود والعاج ومسحوق الذهب والعنبر الداكن. وفي جزرها كان يكتشف أعشابا طبية وتوابل وعقاقير، ومن الهند كان يأخذ الحديد والصلب والقصدير، ومن الملايو خشب البناء والأصباغ والمواد المعدنية وكانت بلاد كمبوديا القديمة تصدر الأخشاب الثمينة».

«وكان المسلمون يصدرون إلى الصين العاج والحلى الصدفية والنحاس والكافور الذي كان الصينيون يدفعون ثمنه غاليا. وكان التجار يعرضون، في كل مكان، كميات صغيرة من بضائع مصنوعة من زجاج وجواهر وكبريت ومنسوجات قطنية وعطور وفواكه وخضار. وكانت تجارة الخيل مزدهرة. وفي كل سنة كانت هناك عشرات الآلاف من الخيول تحْمَل من سيراف إلى شاطىء كوروماندل حيث كانت تباع إلى الهنود. وفي الحق، كان البحر المتوسط، حتى زمن الحروب الصليبية تسوده تجارة المسلمين، التي كانت تجري بين سورية ومصر من جهة، وأفريقية الشمالية واسبانية وصقلية من جهة أخرى. وكانت هذه التجارة فوق ذلك تصل إلى اليونان وايطالية وفرنسة».

والطرق التي كان التجار يتبعونها في تنقلهم من مكان إلى آخر تعددت بحيث يصعب حصرها. لكن يمكن الاشارة إلى أهمها وهي:

١ ــ طريق الحرير وهو الطريق البري الذي كان يربط الصين بالغرب. فكان يمر بسمرقند وبخارى والري وهمذان إلى بغداد. وهناك كان ينقسم إلى شعبتين فشعبة منه تتجه إلى القسطنطينية والغرب بطريق نهر الفرات والبحر المتوسط. بينما كانت تتجه الثانية بطريق الكوفة إلى مكة والمدينة.

٢ ــ طريق الحج الشرقي من بغداد وهذا كان يعبر الفرات عند الكوفة، ويفضي إلى الصحراء عند العذيب. وعلى الرغم من بعد مكة الشاسع فقد كان الناس يفدون إليها في موسم الحج من جميع أنحاء الدولة الاسلامية. ولم تكن فريضة الحج وحدها هي التي تجذب هذه الجماعات، بل كان يغريها أمان الطريق أيضا في حماية قوافل الحج الكثيرة التي كانت تذهب إلى هناك من شتى نواحي المعمور.

٣ ــ وكان أكثر طرق المغرب خلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) يتجه نحو القيروان، وفي ذلك الحين كانت دولة بني الأغلب الاقوياء قد أقرت الأمن ومنحت الطرق جانبا من عنايتها، فكان على طول الساحل محارس ومخافر، وكان السفر مأمونا.

وكان يخرج من مصر السفلى طريقان عظيمان إلى المغرب: أحدهما يسير بحذاء الساحل، كما كان الحال في الزمن القديم، والآخر يسير جنوبا. وكان البريد يتخذ الطريق الثاني أول الأمر (وكان يسمى طريق السكة). ثم عدل عنه بعد ذلك إلى طرابلس ومنها كان يقصد القيروان رأسا، وبعدها يسير بحذاء الساحل، وكانت الأميال معلمة. وكان هذا هو الطريق الرئيسي الذي يصل الأندلس بالمشرق.

٤ ــ وكان ثمة إلى الشرق طريق البحر وهو الذي كان يسمى طريق الهند وكان التجار ينتقلون عبره من الصين والهند إلى الخليج العربي والبحر الأحمر. وفي الموانىء هذه كانت السفن تلقي مراسيها لتحمل المتاجر أو تفرغها حسب الحاجات والأوقات والفصول.

وقد أخرج ريسلر عن تجارة القوافل في العالم الاسلامي ما خلاصته:

«كان ما يقرب من خمسة آلاف جمل تجوس في جميع الجهات مستفيدة من الطرق إلى العالم العربي الاسلامي ناقلة المتاجر من جهة إلى أخرى. وقد أنشئت وكالات ساهرة على طول هذه الطرق: فنادق قروية ومبرات وأحواض للمياه، وفي المناطق الصحراوية أقيمت خانات رحبة وكثيرة حيث تستطيع الدواب وقوادها أن ينعموا براحتهم ويتناولوا طعامهم. وكانت هذه المنشئات تستخدم كذلك ملجأ وملاذا في اثناء العواصف الرملية التي قد تبلغ من شدتها أن تدفن قوافل بعدتها وعديدها. ففي صحراء الفرس الوسطى، أقيمت صهاريج عدة على حافة محطات القوافل والطرق، وفي كل مكان، كانت هناك إشارات تدل المسافرين وتوضح معالم الطريق. وفي البلاد

الجبلية كانت القناطر تقام بعناية فوق مجاري المياه».

وما دمنا في الحديث عن الطرق فلا علينا أن تحدثنا قليلا عن الموانىء. ففي الجزء الشرقي من العالم الاسلامي كانت سيراف، على الجهة الشرقية من الخليج العربي، أكبر ميناء منذ قيام الدولة العباسية حتى القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد) ثم تغلبت عليها ميناء كيش. فقد كانت سيراف تملك أسطولا تجاريا هاما وكان لتجارها وكلاء في جزيرة بمبا، شرقي افريقية، وكيلون في الهند وكنتون في الصين. وكانت لتجار سيراف اعتمادات مالية ضخمة. فلما تهدمت سيراف بفعل الزلزال انتقلت التجارة إلى كيش على مقربة منها. وكان لكيش منافس هو ميناء عدن. وكان أسطولا كيش وعدن يتنافسان في سبيل السيطرة على تجارة المحيط الهندي. لكن أخيرا سيطرت كيش على تجارة الخليج العربي واحتكرت عدن تجارة البحر الأحمر.

ومع أن الأنهار الصالحة للملاحة كانت قليلة في العالم الاسلامي، فقد أفاد التجار من القليل الموجود مثل النيل والفرات ودجلة. وقد اهتم أولو الأمر بإقامة القناطر على الأنهار على اختلافها تيسيرا لتنقل الحيوانات والناس.

— ٤ —

مع القوافل في شمال غرب أفريقية

وصل الجمل إلى الشمال الأفريقي في أيام الرومان، لكن استعماله ظل محدودا مدة طويلة. ويبدو، من البحوث التي قام بها المعنيون بالأمر، أن الجمل انتشر استعماله هناك في أوائل العهد العربي. وقد يصعب علينا، نحن الذين ألفنا وسائل النقل والسفر الحديثة السريعة، أن ندرك تماما معنى دخول حيوان كالجمل إلى منطقة فيها الكثير من الصحارى القاحلة الجرداء التي لا تنقطها إلا بعض الواحات فقط. فهذا الحيوان الصبور القوي على الحمل أصبح صلة الوصل بين شمال أفريقية ومناطقها المدارية عبر الصحراء الكبرى.

وإذا تذكرنا أن هذا الحيوان ظل وسيلة النقل الأولى حتى القرن التاسع عشر، أدركنا مدى الخدمات التي قدمها لا للتجارة فحسب ولكن للمدنية عامة. فما أكثر ما انتقلت الثقافات مع الجمل كما انتقلت المتاجر.

والمنطقة التي نريد أن نتحدث عنها الآن هي شمال غرب أفريقية ونجد فيها خمسة طرق رئيسية للقوافل هي التي كانت تنقل عليها المتاجر في الغالب. ثلاثة منها كانت تخترق الصحراء من الشمال إلى الجنوب، واثنان كانا يجتازان شمال أفريقية من الغرب إلى الشرق.

وإذا نحن بدأنا بالطرق الثلاثة الشمالية الجنوبية الاتجاه لوجدناها كما يلي: الأولى طريق المغرب إلى تغازى ومنها إلى تمبكتو. والثاني من غدامس في ليبيا إلى الأيَر ومنها إلى سكوتو وبلاد الهوسا (الحوسا). والثالث هو طريق فزان وكوار إلى البرنو. ولنسرع إلى القول بأن كلا من هذه الطرق كانت القافلة تحتاج إلى نحو شهرين لاجتيازه، وكان كل منها تتخلله مسافات طويلة لا ماء فيها ولا كلأ، ومن ثم فان الأخطار فيها كانت جسيمة. ومع ذلك فقد أثبتت الخبرة المبنية على قرون أن هذه الطرق كانت الأقصر والأقل أخطارا من غيرها من الطرق الأفريقية.

وكانت أهم هذه الطرق الثلاثة الطريق الغربي وهو طريق تغازى تمبكتو الذي اشتهر بأنه طريق الذهب، ولكن فوق ذلك كان طريق الثقافة الاسلامية في سيرها نحو الجنوب. وكانت محطة الاعداد، إذا جاز التعبير، لهذا الطريق هي سجلماسة في جنوب المغرب، حيث كانت تهيأ الابل ويتجمع التجار تمهيدا لدخول الصحراء إلى تغازى حيث يبدأ العمل المرهق الشاق في اتجاه جنوبي تماما. والقوافل الكبرى كانت تتابع سيرها إلى تمبكتو، هذا المخبأ القائم في منحنى النيجر. ومع أن هذا الطريق معروف منذ قرون، فان مفاجآته لطراقه لم تقل مع الزمن. ففي سنة ١٨٠٥ كانت قافلة مكونة من الف وثمانمئة جمل في طريق عودتها من تمبكتو فتعرضت للعطش الشديد فمات الرجال كلهم ونفقت الحيوانات جمعاء.

قيمة هذا الطريق التجارية كانت، في المقام الأول، في أن القوافل التي كانت تتبعه كانت تحمل الملح من المناطق الشمالية إلى الجنوب والذهب من المناطق الجنوبية إلى الشمال. فهذا

التوزيع غير المتساوي للملح والذهب هو الذي فتح أمام التجار هذا المجال الواسع للربح الذي كان يستحق كل هذه الأخطار. ويكفي أن نتذكر أن تمبكتو، المركز الرئيسي لهذا التبادل، لم تكن ذات زرع ولا ضرع، وكانت تعتمد في الحصول على حاجاتها من الغذاء على ما ينقل إليها من

□ سوق بيت الفقيه (في اليمن) كما هي الآن، وهي شبيهة كما كانت قبل ٢٠٠ عام. من كتاب:
Travellers in Arabia; Robin Bidwell



الخارج. لكن موقعها الجغرافي جعل منها سوقا كبيرة. فاليها كان يحمل الملح والأقمشة من الشمال والذهب والأرز والذرة والعاج وجوز الكولا من الجنوب، فضلا عما كان يصل إليها من الأماكن الأخرى.

والطريق الثاني، طريق غدامس في ليبيا إلى الأيّر وبلاد الهوسا (الحوسا)، لم يكن يقل عن الأول عمرا واستعمالا. ومن المحطات الرئيسية القائمة عليه غات وأفروان، وهذه الأخيرة كانت على طريق الحاج بين غرب أفريقية والقاهرة، واغادز ثم إلى بلاد البرنو. وقد ظل لاغادز اهميتها لأنها تتوسط منطقة غنية بالمراعي، ومن ثم فقد كانت تزود القوافل بالابل. وكانت القافلة الكبرى، في العصور المتأخرة، وتسمى أزالاي، يتولى قيادتها الوزير بنفسه. وكانت تبدأ رحلتها في شهر تشرين الأول (أكتوبر) محملة بالحبوب والقماش (الحوسي). فإذا وصلت القافلة إلى اغادز بادلت متاجرها بالملح وعادت إلى كانو، حيث يباع الملح. وقد كانت كانو (في القرن التاسع عشر مثلا) السوق الرئيسية لغرب السودان، حتى أن اهميتها زادت على أهمية تمبكتو. وقد قدر الرحالة بارت عدد سكانها العاديين بثلاثين ألفا، إلا أن العدد كان يتضاعف في المواسم التجارية الكبرى. وكان يعينها على توفير المواد الغذائية لهؤلاء الناس انه كان يدور بها، على مسافة واسعة، مزدرع غني، بحيث أنها كانت تصدر بعض الغلال أيضا. على أن كانو، وبلاد (الحوسا) على الاجمال، كانت ثروتها وازدهارها يعتمدان على المهارة الصناعية التي كانت للسكان، وخاصة في النسيج والصباغ. ويذكرنا بارت نفسه بأن اقمشة (الحوسا) كانت معروفة في فزان شرقا والساحل الأفريقي شمالا وغرب أفريقية. كما كان تجار كانو يسيطرون على تجارة جوز الكولا.

والطريق الثالث هو الذي كان يصل بين فزان وكوار. ومثل بقية الطرق المعروفة في شمال غرب أفريقية كانت القوافل التي تطرقه تحمل الملح والذهب والقماش والحبوب؛ إلا أن هذا الطريق كان طريقا لتجار الرقيق أيضا.

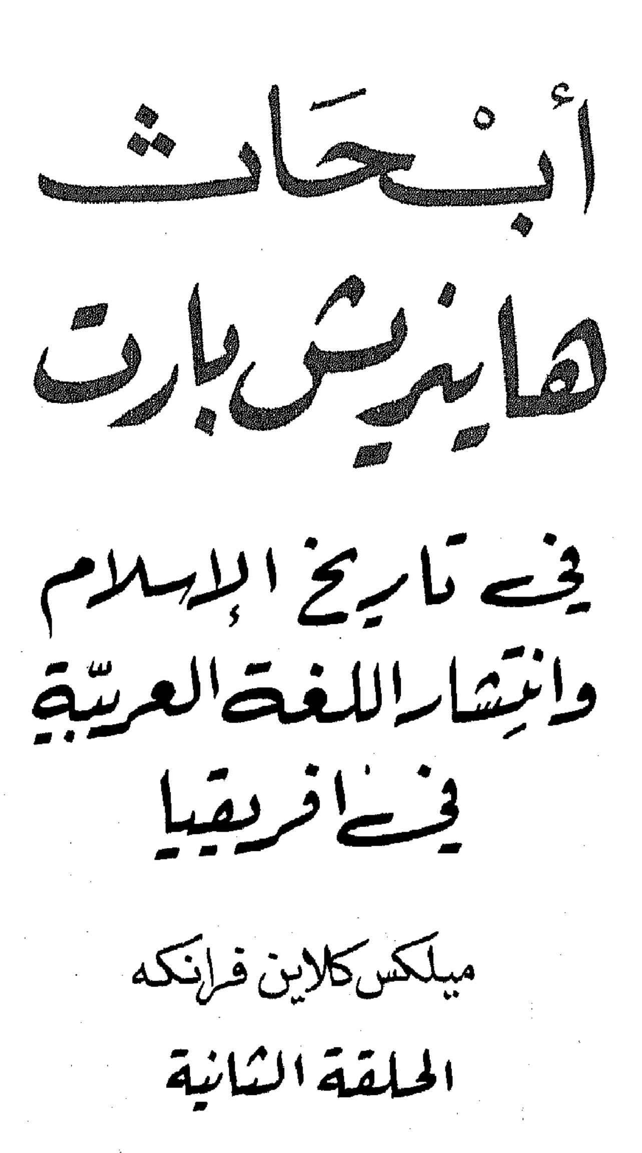
أما الطريقان اللذان كانا يسيران من الغرب إلى الشرق فهما أصلا طريقا الحاج. ومع أنهما كانتا تستعملان قبل ظهور الاسلام ووصوله إلى تلك البقاع، فقد صارت لهما أهمية خاصة بعد انتشار الاسلام هناك وازدياد عدد الناس الذين كانوا ينتقلون إلى الحجاز لأداء الفريضة. وعلى كل فلا يدخلنّ في روع أحد أن الطريق كان حكرا على الحاج أو وقفا عليه، كما أنه لا يجب أن يدور في خلدنا أن الحاج كان محظورا عليه الاتجار. كلا. فقد كان كل ذلك جائزا، منفردا أو مجتمعا، ما دام المرء يحافظ على الأصول والقواعد.

واحد من هذين الطريقين كان يبدأ في المنطقة الواقعة جنوبي المغرب في غرب افريقية. ثم يأخذ الحجاج بالتجمع شيئا فشيئا حتى يصلوا إلى افروان، ومن هناك يسير الحجيج مجتمعا مخترقا عرض القارة الافريقية مارا بعين أزاوا وغات ومرزق وأوجيلة وسيوه إلى القاهرة. وحري بالذكر ان كلا من هذه المحطات إنما هي واحة، ولكن كانت الواحدة منها تختلف عن الأخرى سعة أو صناعة أو علما. ومن القاهرة يتنقل الحجيج إلى الحجاز.

وطريق الحاج الثاني كان يبدأ من أحد موانىء المغرب على الأطلسي أو المدن الرئيسية في المغرب، ثم يتجه كل من هذه الطرق الفرعية منفردة حتى تلتقي في تونس أو طرابلس، ثم تتبع الساحل إلى الاسكندرية فالقاهرة فالحجاز.

وهذه الطرق كلها، الشمالية ــ الجنوبية والشرقية ــ الغربية، كانت سبيل انتقال الثقافة من مكان إلى آخر. فالعلماء والقضاة والأدباء وأهل التصوف والمعرفة ورجال الفلك والجغرافية والأطباء ــ كل أولئك كانوا ينتقلون مع القوافل اما طمعا في كسب أو ابتغاء مرضاة الله أو استزادة من المعرفة. وكل واحد منهم يعطي الراغبين في طريقه مما عنده. وقد يؤثر أحدهم أن يبقى في مكان يعلم الناس شعورا منه بأن القوم بحاجة إليه.

وعندنا الكثير مما خلفه الرحالون في وصف الطرق التي اجتازوها من الغرب إلى الشرق. والبعض منهم كان يذكر أمورا خاصة، وبذلك يكون الوصف حيا. ولعل من أطرف ما نعرف وصف ابن بطوطة للطريق من طنجة إلى الاسكندرية. ●

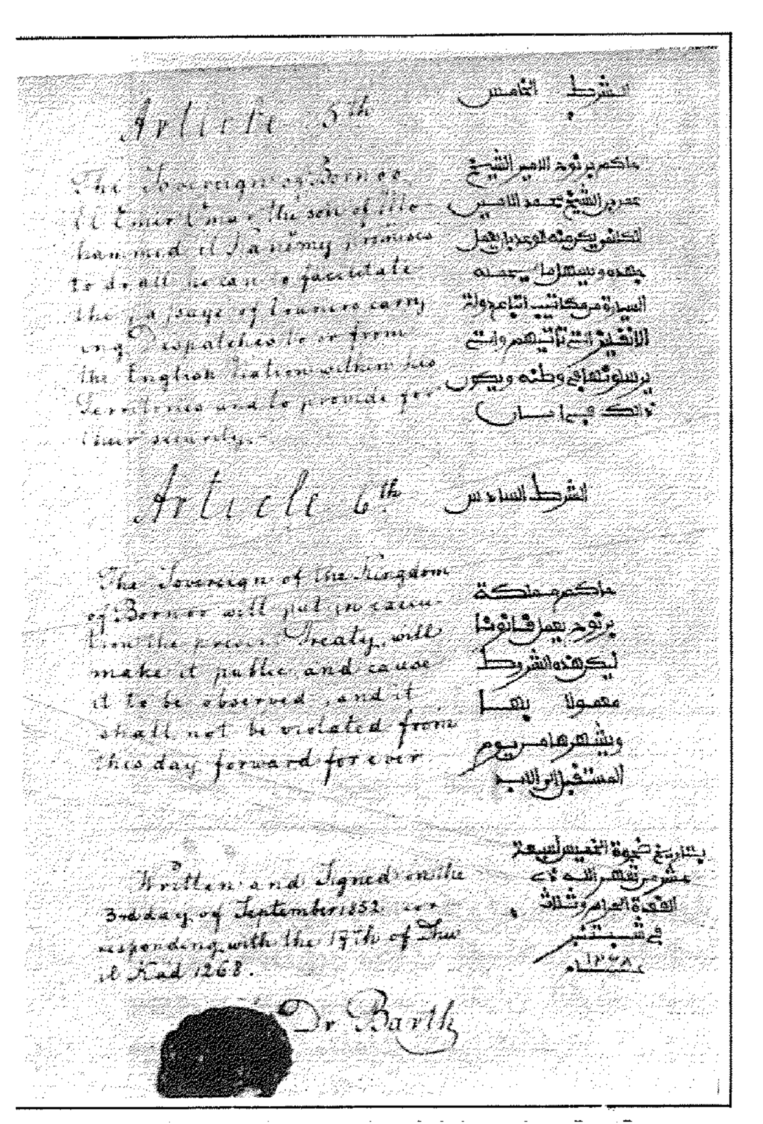


أبحاث هاينريش بارت

في تاريخ الإسلام وانتشار اللغة العربية في افريقيا

ميلكس كلاين فرانكه

الحلقة الثانية



الشرط الخامس

Article 5th

The Sovereign of Bornu el Emir Omar the son of Mohammed el Kanimy promises to do all he can to facilitate the passage of traders carrying Dispatches to or from the English Nation within his territories and to provide for their security.

الشرط السادس

Article 6th

The Sovereign of the Kingdom of Bornu will put in execution the present Treaty, will make it public and cause it to be observed, and it shall not be violated from this day forward for ever.

معمولا بها

المستقبل الى الابد

Written and signed on the 3rd day of September 1852 corresponding with the 17th of Dhu el Kaad 1268.

Dr. Barth

□ عقد وقع عليه هاينرش بارت مع ملك «بورنو» (Brono) في ٣ سبتمبر ١٨٥٢ عن كتاب:
Frühe wege Zum Herzen Afrikas.
Turris-verlay, Darmstadt, 1969.

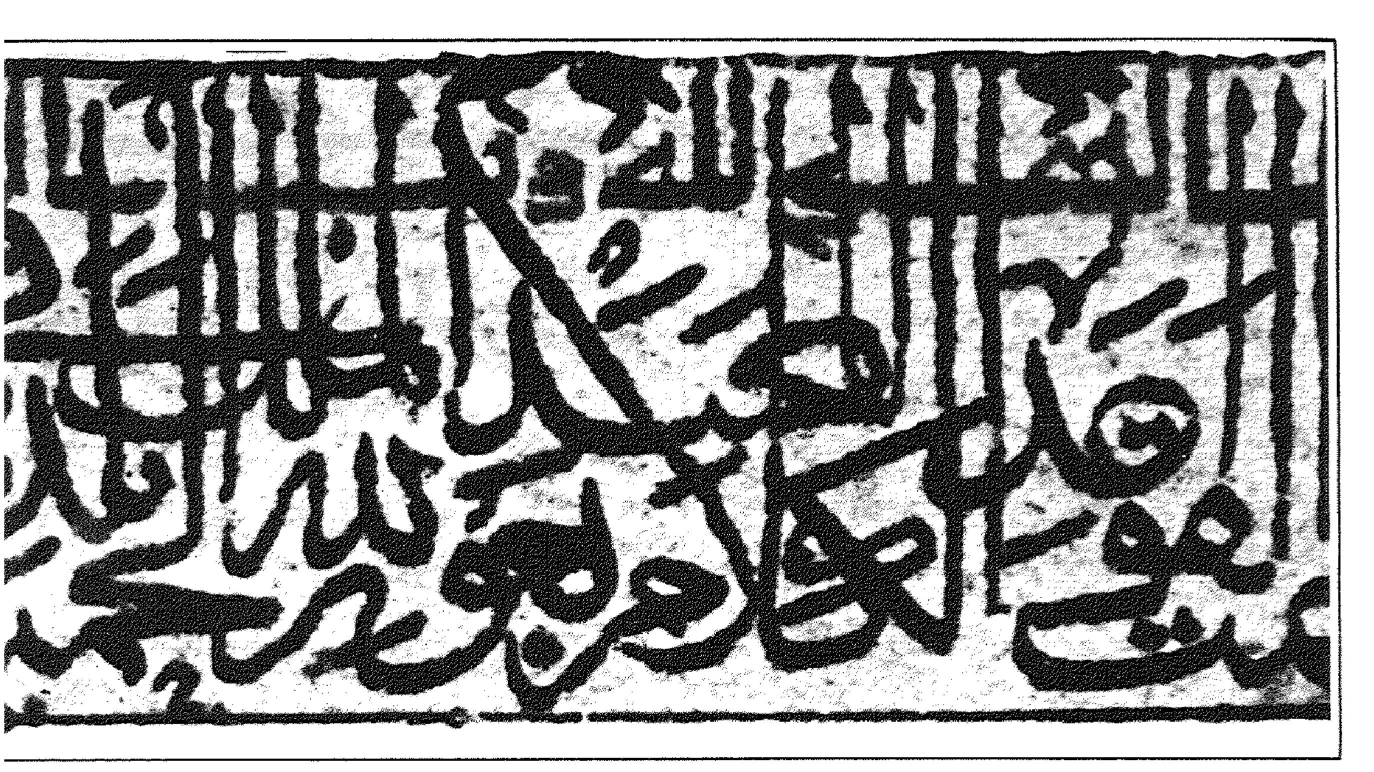
— ٣ —

دراسات حول اللغة العربية في السودان



لقد كان الاسلام واللغة العربية دوماً متصلين اتصالاً لا يمكن فصم عراه. وبما أن القرآن لا يجوز ترجمته إلى أية لغة أخرى ــ خوفاً من الله وكذلك حفاظاً لطهارة الضمير تجاه كلام الله المنزّل ــ فقد أصبح لزاماً على كل مسلم مؤمن أن يتعلم العربية إلى درجة تمكنه من فهم القرآن أو تلاوته على الأقل. ويكتب بارت عن الفولبه[٦٩]: «من المؤسف أن اقامتي القصيرة لم تمكني من مراقبة مستوى الثقافة بين هؤلاء المسلمين النائين، ومع ذلك فقد وجدت اثناء سفري ان قراءة القرآن وبعض الكتب الرئيسية للاسلام[٧٠] ومعرفة جيدة للغة العربية المكتوبة منتشرة بين علية القوم بينهم. وبطبيعة الحال فلا توجد مدارس هنا، ولكنه يوجد في القرى الأكبر رجل فقيه يتجه اليه الشباب الذين يسعون للحصول على مزيد من المعرفة اكثر من مجرد ترداد بعض الصلوات، يتجهون إليه للقراءة والدرس على يديه، وكلما كان الافتقار إلى كتب اخرى أكبر كلما ازدادت حيوية استيعاب الكتاب المتيسر بين أيديهم بطبيعة الحال، ذلك الكتاب الذي يأخذ عليهم ألبابهم بلغته الشعرية العظيمة».

وفي تمبوكتو اتيحت لبارت الفرصة لحضور تدريس اللغة العربية وتعاليم الاسلام[٧١]: «وخلال جزء من النهار قرأ الشيخ على تلاميذه مقاطع من حديث البخاري[٧٢]، بينما راح ابنه



□ الخط العربي: مزيج من الكوفي والثلث

الصغير سيدي محمد يكرر درسه من القرآن بصوت جهوري، وخلال المساء راح التلاميذ يجودون عدة سور من القرآن الكريم بصوت موسيقي حتى ساعات الليل المتأخرة».

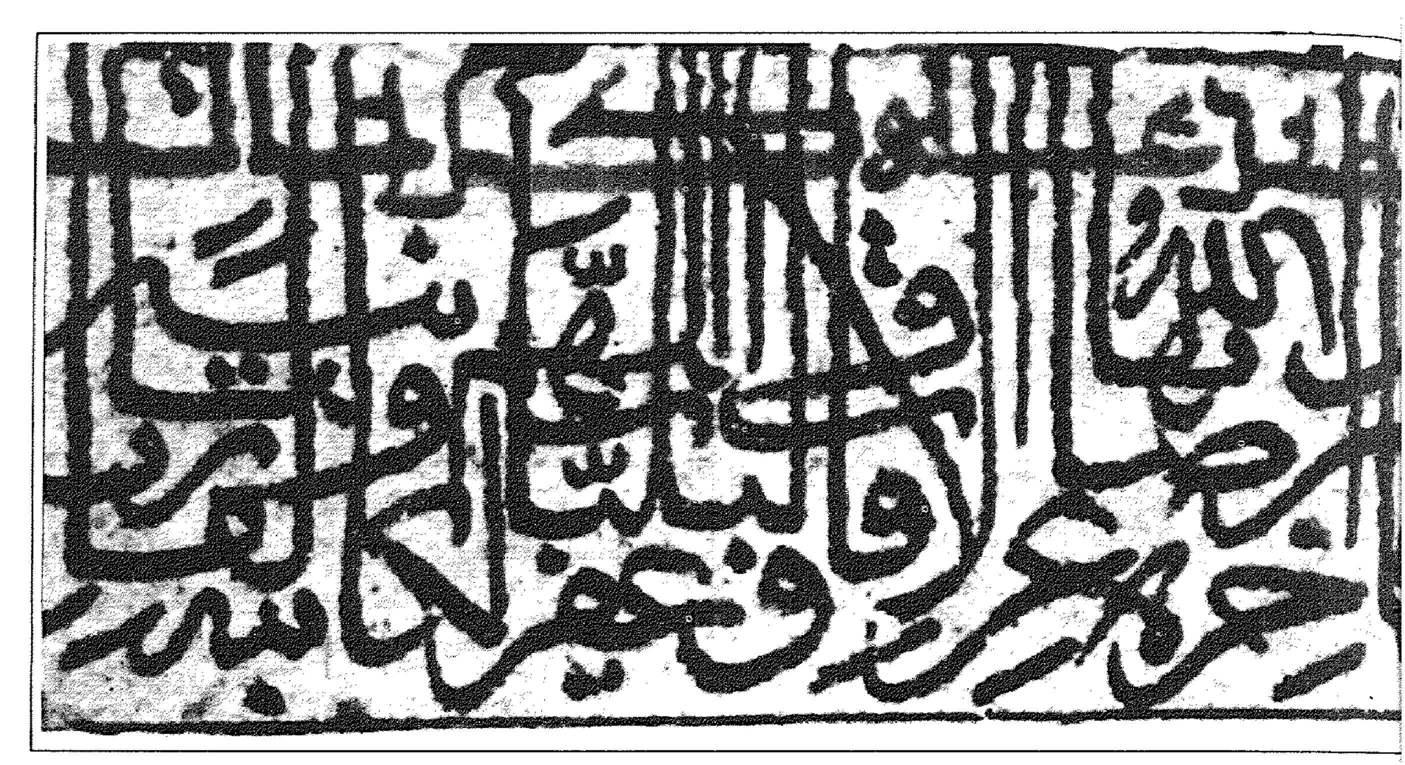
وتحتوي ملاحظات بارت على اشارات هامة حول انتشار اللغة العربية انذاك والتحديد المحلي للهجات المختلفة. وفي بعض مناطق السودان التي تكون غالبية سكانها من المسلمين استحالت اللغة العربية الى لغة عامية باستثناء استخدام اللغة الفصيحة للأغراض الدينية. وفيما يتعلق بلهجة سكان أكادس يكتب بارت[٧٣]: «ان التعامل مع البربر قد مارس تأثيرا كبيرا، بحيث انتقلت من لغتهم كلمات كثيرة واندمجت في التعابير المحلية هنا، بينما يبدو ان العربية لم يكن لها تأثير كبير، فيما عدا اسماء العدد المحلية التي اختفت ابتداء من «أربعة» فما فوق. ويظهر استخدام اسماء العدد العربية في بعض اللهجات المحلية مدى تأثير التجار العرب والدور الذي لعبوه في انتشار اللغة العربية. ويكتب بارت[٧٤] حول الكانوري، «لقد تخلوا عن كلمتهم المحلية التي تعني «مائة» وهي «بيرو» واخذوا يستخدمون الكلمة العربية مية[٧٥].

ومن الكلمات العربية التي نقلها التجار العرب المسافرون «ذراع»[٧٦] و«خلق»[٧٧] و«ودع»[٧٨] وغيرها من التعابير التي تمثل وسائل الدفع والمقايضة.

وباعتناق الاسلام فقد ازداد اهتمام الفولبه باللغة العربية. ويقول بارت[٧٩] ان بعضهم كان يفهم اللغة العربية المكتوبة جيداً. ولكنهم لم يكونوا قادرين على التحدث بها.

ويكتب بارت الكلمات العربية في الغالب بالحروف الألمانية مما يساعدنا على الحصول على فكرة تقريبية عن الخصائص الصوتية للهجات العربية في السودان على عهد بارت. وحسب ذلك فقد كانت القاف العربية (ق) تلفظ كحرف (g) أو جيم غير المعطشة بالالمانية[٨٠]، بما يشبه لفظ بدو الجزيرة العربية. ومن المؤسف أن بارت لم يكن دقيقاً عند كتابة الكلمات بالحروف الألمانية في بعض الحالات.

ومن الأمثلة الموجودة في كتاب بارت ندرك خاصة مميزة من خصائص اللهجات العربية في السودان، وهي دمج (الـ) التعريف مع الاسم المعرف بطريقة تسقط فيها الألف (ا) وتصبح اللام (ل) الحرف الأول للكلمة المعرفة. وهذا ما يحدث بالنسبة لقبيلة «الانصار» مثلاً التي تدعى لنصار (Lanssar)[٨١]. ويحدث الشيء نفسه كذلك بالنسبة لكلمة (Loel) لول[٨٢].



وهو اسم شخص عند مسلمي السودان، وتتحول كلمة «العقل» الى (Lakal) و«الأخبار» تصبح في لغة الهاوسا (Labari)، وفي لغة سونغهاي (Laabar)[٨٣].

وهناك فئة متكاملة من الوجهة اللغوية بين عرب السودان وهي الشوا (Schua)، سكان بورنو العرب. ويكتب بارت[٨٤]: «إن لهجتهم العربية متميزة جداً، فبينما تتخذ لنفسها صفة الصفاء الأكثر بالقياس الى اللهجة الشعبية الفاسدة في المغرب وذلك بالمحافظة على صيغ الأفعال الكثيرة، الا أن لها طابعا يلفت الانتباه في بادىء الأمر بالتشكيل الحاد للكلمات واستخدام عبارة «كوتش، كوتش» بمعنى «على الاطلاق» بصورة دائمة ــ وكذلك كلمة «بركتك» ــ بحيث يحشرون هذه العبارات خلف كل ثلاث كلمات بصورة تثير الضحك».

وتزداد معرفتنا لسكان السودان العرب في ذلك الزمن بوجه خاص بما نشره بارت من الشعر بالنص العربي مع الترجمة الألمانية في المجلد الرابع من كتابه «رحلات في افريقيا»[٨٥]. اما هذا الشعر فقصيدتان لصديقه الشيخ البكاي. والقصيدة الأولى من بحر الخفيف، والثانية من بحر الطويل وكلاهما من بحور الشعر العربي القديم. ولا تعتمد القصيدتان الرائعتان على فن الشعر العربي القديم من الناحية الشكلية فحسب، بل ومن ناحية الموضوع والأسلوب أيضاً ــ وهذا دليل على مدى تمسك هؤلاء العرب الموزعين في الخارج بتقاليدهم الثقافية وتراثهم الأدبي. وكانت درجة الثقافة بين العرب هنا متباينة بطبيعة الحال؛ ويذكر بارت[٨٦] كيف أن إحدى القصيدتين القيت بين يدي شيخ تمكلا وأتباعه ومدى التجاوب والصدى الذي حققته القصيدة لديهم «رغم انه لا يمكن أن يحكم عليها الا من كان متمكناً من اللغة العربية، بينما لم يفهم القسم الأكبر من القوم كلمة واحدة منها».

لقد كان بارت خبيراً عارفاً بالشعر العربي، وينم اسلوبه الخاص عن ذلك. فعند زيارته الى اغاديس يصف صورة هذه المدينة بما يلي[٨٧]: «كانت العقبان تنظر بألم وشراهة من نتوءات الأسوار المتهاوية المحيطة بالمكان؛ وكما كان يبدو فانها كانت تعاني من الافتقار الى الطعام، لأنه، بعد أن خرج عدد كبير من سكان المدينة مع الجيش، أصبح نصيبها من نفايات الطعام اليومي لهؤلاء السكان قليلا يسيرا. ومن المحتمل كذلك ان بعض العقبان تبعت سكان المدينة؛ اذ أن هذه الحيوانات تدرك، عندما ترى جيشاً من الرجال المسلحين يخرجون إلى القتال، أنه سيكون لها من فتات الطعام هناك ما ستقتات به». وهذه صورة معروفة من الشعر الجاهلي، وحين

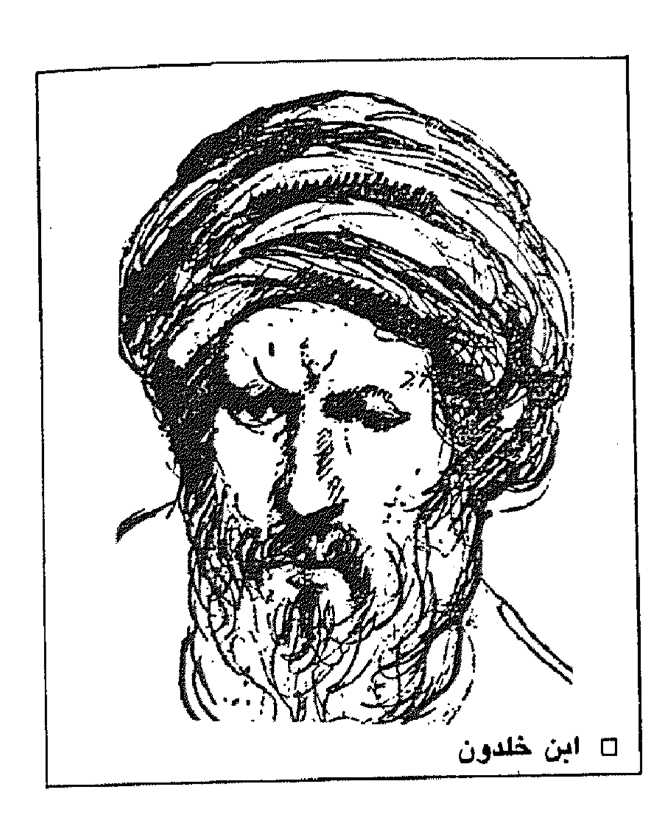
يقرؤها المرء لا يسعه إلا أن يـذكر بيتـاً من قصيـدة مشهورة للشـاعر الجـاهلي النـابغـة الذبياني[٨٨]:

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصـائب طير تهتـدي بعصـائب

لقد كان أدب سكان السودان من العـرب أوسع واغنى مما تيسر لبـارت الاطلاع عليه. ولم نحصل في اوروبا على معرفة دقيقة حول هذا الأدب إلا عنـدمـا وقعت مخـطوطات ثمينـة عام ١٨٩٤ بأيدي قوات الكولونيل وفيمـا بعد الجنرال آرشينار (Archinard). وقد أصبحت هذه المجموعة الكبيرة اليوم ملكاً للمكتبة الوطنية في باريس. ويوجد بين هذه المخطوطات عدد من مؤلفات المصلح عثمان بن فوديو، وابنه محمد بيللو، وأخيـه غير الشقيق عبـد الله بن محمد والأمير الحاج عمر. وفي مقال نشره Georges) (Vajda بعنوان: «مساهمـة في معرفـة الأدب العربي في افريقيا الغربية»[٨٩] (Contribution à la connaisance de la littérature arabe en Afrique Occidentale) أورد قـائمـة وشروحا موجزة لمخطوطات المؤلفين المذكـورين العربية الموجودة ضمن المجموعة.

وأخيـراً فاننـا نود أن نشـير الى التعابـير الاختصاصية العربية الكثيرة من دنيا النبات في السودان والمنتشرة في جميع فصول كتاب بارت. ومن يهتم بالذات بعلم النباتات والعقاقير عند العرب سيجد معلومات قيمة في كتاب بارت. وأود أن اذكر هنا بعض هذه الأسماء فقط:

— «الدوم» «Dum» (Cucifera Thebaica — Thebanpalm; I, 419)؛
— «الخسكنيت» «Chaskanit» (Pennisetum distichum, I, 427)؛
— «الهد» (I, 591)؛
— «حب العزيز» (Erdnuss — II, 463)؛
— «الجاوي»؛ (Benzoe-Gummi — II, 595)؛
— «بوركبه» (Panicum colonum — III, 52)؛
— «شجرة الجمل» (Avena Forskalii — II, 52)؛



□ ابن خلدون

— «أم البركة» (III, 52)؛
— «أبـو ديجه» (شجـرة ذات ثمر يشبـه المشمش — III, 313)؛
— «اللبان» (Benzoin, III, 329)؛
— «العرديب» (Tamarinde — III, 400)؛
— «حب الملوك» (III, 400)؛
— «المست» (Zea Mays).

لقد عرضنـا حتى الآن مساهمـة بارت في الدراسات الشرقية بايجـاز. ومن هذه الأمثلة يدرك المرء مدى معرفته الواسعة في مختلف حقول علم الاستشراق الذي كان لا يزال ناشئاً في ذلك الزمن. وبغض النظر عن بعض الاستثناءات فإن الاستشراق لم يول ما يستحقه من اهتمام حتى الآن. ولعله كان سينفي عن نفسه بتواضع صفة «المستشرق» كما كان يعتقد بأنه لا يصح أن يعتبر عالماً طبيعياً أو عالم فلك[٩٠]. وفي الحقيقة فانه يستحق هذه الصفة، وإن كان من الصعب تصنيفه داخل نظام علمي معين دون غيره. فقد كان بارت يمثل ذلك النوع من العلماء الذين لا يقسمون العلم إلى حقول خاصة وإنما يضعون العلم كله دوماً امام أعينهم ويقيمون الصلات بالأنظمة العلمية الأخرى — لقد كان عالماً كلياً متعدد المعارف (Polyhistor)، كما كان يعرفه عهد الرومانتيكية.

	Kanuri	Logone	Mandara	t. Bagirmi		M...
this (horse?) is swift, besides strong and has made long journeys.	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
That may be true (but there) is some wound on his back.	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
Go to the market sell this calico I just brought here.	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]		[illegible]
Are there many people on the market? What is desired on the market, black or white stuff (that is, turkedies or white shirts)	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
my sandal has straid.	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
my friend, have you seen my camel?	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
I have not seen it	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
I have seen it	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
Where have you seen it	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
I have seen it there	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]

Our Lord's Prayer

[illegible]

☐ صحيفة من قاموس احضره هاينرش بارت لحفظ بعض اللغات الافريقية، وهي محفوظة في (Staatsarchive) هامبورج ☐

وكما هو الحال بالنسبة لكل علم، فان الاستشراق مهدد كذلك بخطر الاعتكاف، والانعزال عن بقية الأنظمة والحقول العلمية. فالسودان، مثلا، ظل، بغض النظر عن التاريخ العربي، فترة طويلة على هامش الدراسات والأبحاث الاستشراقية. وحاول بارت منذ ذلك الحين مواجهة هذه العزلة، وذلك بنقله للأبحاث الاستشراقية من حدود الشرق الى قارة جديدة، الى عالم جديد، يحتاج الى مزيد من التقصي والاستكشاف. ويجب ان تنطلق الأبحاث المقبلة في هذا المجال من عمل بارت العظيم[٩١].

— ٤ —

ملاحظات حول ما اقتطفه هاينرش بارت من مخطوطات المؤرخين العرب ودونه في كتاب يومياته

في أحد كتب يوميات الباحث هاينرش بارت الموجود حالياً في المكتبة الوطنية في باريس توجد بعض الصفحات المكتوبة باللغة العربية.

وتحتوي مقتطفات من كتابي «تاريخ السودان» لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر السعدي[٩٢] وكتاب «تزيين الورقات» لعبد الله اخي عثمان بن فوديو. وبالمقارنة بكتابات عربية أخرى من خط بارت (كفواتيره وايصالاته) فاننا لا نرى مجالا للشك بأن المقتطفات من الكتابين المذكورين كتبت بخط بارت نفسه.

وتبلغ مساحة الصفحات المكتوبة ١٥ سم × ٨,٨ سم. أما الخط فهو مغربي. وتحتوي الصفحة الواحدة من النسخة المنقولة عن تاريخ السودان معدل ٣٦ سطراً، ومن النسخة المنقولة عن تزيين الورقات معدل ٢٨ سطراً.

وكان بارت يهدف الى نشر هذه المقاطع من المخطوطين العربيين بأسرع وقت ممكن في اوروبا، دون الانتظار حتى انهاء رحلته الاستكشافية التي استغرقت عدة اعوام في افريقيا الوسطى. وكان يرجو نشر المخطوطين بكاملهما بعد عودته. ولكنه لم يتمكن من ذلك لسوء الحظ، ومن المقطعين اللذين نسخهما على عجل في كتاب يومياته، لم ينشر، على حد علمي، إلا تاريخ السودان للسعدي. وقد أعطى بارت المقطع العربي المنسوخ إلى المستشرق (C. Ralfs)، الذي نقله الى الألمانية ونشره في المجلد التاسع من مجلة جمعية المستشرقين الألمانية (Zeitschrift der Morgenlândis-chen Gesellschaft)[٩٣]. وقد نشر الكتابان العربيان بكاملهما فيما بعد: تاريخ السودان، نشر (O. Houdas) بمعاونة (E. Benoist)[٩٤]، وتزيين الورقات، نشر (A. Brass)[٩٥].

لقد نالت الأبحاث الأفريقية بمقدار متساو بالنسبة للجغرافي والمؤرخ والمستشرق، نالت دافعا جديدا بفضل أبحاث ونشاط بارت. وبينما ظلت صورة افريقيا التاريخية حتى الآن على الشكل الذي بدت فيه في الأعمال التاريخية الكبيرة لابن خلدون وابن بطوطة وليو أفريكانوس، على سبيل المثال، فقد أدى «تاريخ السودان» الى التعريف بفترات اخرى من تاريخ افريقيا. ورغم أن بارت جاء بمقتطفات فقط؛ ولكنها كانت كافية لاعطاء دفعات جديدة للأبحاث الافريقية ما زالت تتغذى عليها حتى اليوم.

ليس لمخطوطي بارت اللذين وجدا من جديد قيمة تاريخية فحسب: وإنما يقدمان سلسلة من المعلومات المغايرة والاضافات ازاء المخطوطين اللذين اعتمد عليهما (Houdas) و (Brass) فيما نشراه. فالمخطوطان اللذان استخدمهما بارت من جهة والآخران اللذان اعتمد عليهما (Houdas) و (Brass) من جهة اخرى جاءا من مصدرين مختلفين. ومما يؤسف له أنه لا بارت ولا هوداز يعطيان مزيداً من التفاصيل عن أصل المخطوطات. أما المخطوطان اللذان اعتمد عليهما (Brass) لكتابه المنشور فيعود اصلهما الى حملة (Frobenius) الاستكشافية (F) ومجموعة المستشار السري (Meier) من لايبزغ (M). وتتفق بعض الافتراضات التي قدمها (Brass) مع طريقة القراءة التي قدمها بارت فيما نسخه، بحيث تبدو هذه معتمدة على أصل أفضل. وبعض الاختلافات في نص بارت هي اخطاء وقع فيها بارت بسبب العجلة الشديدة التي كان ينسخ بها، وبسبب الظرف الصعب الذي كان خاضعاً له اثناء ذلك.

يضم ما اقتطفه بارت من تاريخ السودان ٢٢ صفحة من كتاب يومياته، ثم يتوقف في

منتصف الكتاب تماماً[٩٦]. ويكتب بارت في نهاية مخطوطه في يومياته: «إنه خليق بكثير من المعرفة الاختصاصية»، الا انه يضيف عند اتصاله برالفس[٩٧]: «لقد كانت رواية انهيار مملكة سونراي هذه محزنة بالنسبة لي الى درجة توقفت عندها عن مواصلة النسخ».

ومما يؤخذ على ما نسخه بارت انه كان يقتطف في بعض المواضع دون ترابط كاف. فكان يتوقف في وسط الجملة ثم يواصل النسخ من جديد، حيث كان الأمر يبدو له اكثر نفعاً وجدوى، دون ان يترك ما يشير الى انتقاله من موضع الى آخر. وبسبب جهله بالنص الكامل فقد كان رالفس مضطرا الى تقديم ترجمة ناقصة جدا، كان يرصف الجمل في بعض المواضع دون اي ترابط أو تسلسل.

اما مقطع بارت من كتاب تزيين الورقات فيضم ما يزيد على السبع صفحات من كتاب يومياته. ويبدو هنا مزيد من الدقة في الاقتطاف، كما ان الخط أوضح منه في تاريخ السودان. وقد وضع هنا، كما وضع هناك أيضا، خطا تحت الأسماء العلم.

وتختلف المخطوطات التي اعتمد عليها بارت وبراس في بعض الأسماء بسبب كتابة الاسماء غير العربية بالحروف اللاتينية. فصوت ج (g) يعطى في مخطوط بارت بحرف (ق) العربي، وفي مخطوطة F و M اللتين استخدمهما براس بحرف (غ) العربي (قوبر ــ غوبر).

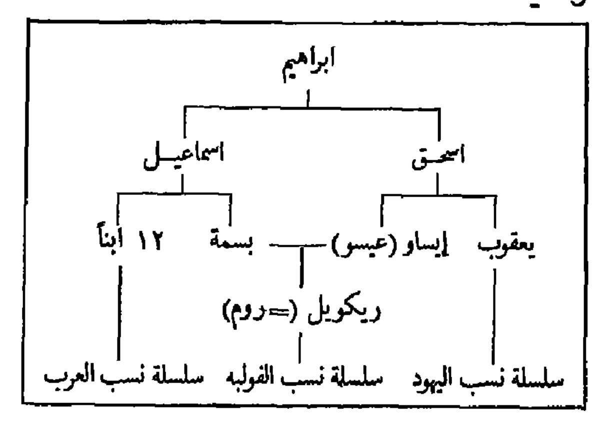
وفي كل من مخطوطة بارت وبراس فإن النص يخلو من أبيات الشعر العربية المكتوبة بين فصول الكتاب، وكذلك من الشروح الخاصة بها. وفي مكان واحد فقط ينقل بارت شرحاً لأبيات لم ينسخها، ربما بسبب بعض الأسماء الجغرافية.

ويظهر النصان العربيان لدى براس من صفحة ٢٤ الى ٢٦ بينما يظهران لدى بارت في نهاية المقطع. ويخلو نص بارت، باستثناء بعض المواضع، من المقاطع العربية التي نشرها براس على الصفحات ١٧، ١٨، ٢٠، ٢١، و٢٣. وهي تشتمل في الغالب على معلومات حول تاريخ الاسلام في هذه الأجزاء من السودان وكانت بالنسبة لبارت، كما لاحظ هو، قليلة الأهمية.

وتبدأ مخطوطة بارت بتاريخ نسب للفولبه غير معروف حتى الآن يجعل من روم، ابن ايساو، جد الفولبه الأصلي. ثم تتلو ذلك ملاحظات طريفة عن لغة الفولبه. واقدم فيما يلي النص الذي لا تحويه مخطوطة (F) ولا (M)، اقدمه بصورة مطابقة للأصل:

«هم توردب الذين جاؤا من فوت وهم فيما نسمع هم اخوان جميع الفلانيين ولغة الفلانيين لغتهم لأن عقبة بن عامر المجاهد الذي فتح بلاد الغرب زمان عمرو بن العاص (...) وصل اليهم وهم قبيلة من قبائل الروم فأسلم ملكهم من غير قتال وتزوج عقبة ابنة ملكهم اسمها يج مغ فود الفلانيين جميعا هذا ما تواتر عندنا واخذنا عن الثقاة الذين يخرجون من بلاد فوت اعني العلماء فتكلموا بلغة امهم ولم يعلموا لغة ابيهم لقلة من يتكلمه هناك في ذلك الوقت.. والأقرب انهم تعلموا بلغة امهم وليست لتوردب لغة اصلية غير تلك اللغة والله اعلم وتعلمت (؟) ان الروم هو بن عيص بن اسحق بن ابرهيم عليهما السلام وامه نسمة بنت اسماعيل عليه السلام قال ذو النسبين في كتابه التنوير: ولد اسماعيل عليه السلام اثني عشر رجالا وامرأة واحدة عمن اولاده نشر الله العرب كلها فلما حضرته الوفاة اوصى الى اخيه اسحق ان يزوج ابنته نسمة من العيص فزوجها منه فولدت له الروم وكان الروم اصفر فسميت بنوه بنا الاصفر...».

لقد جعل المؤرخون العرب منذ القدم البطارقة اي ابراهيم واسمعيل على رأس تاريخ النسب العربي. ويظهر المثل ان الفولبه ايضا اتخذت مع الاسلام عادة اشتقاق نسبهم من نظام النسب العربي التقليدي وذلك بخلق سلسلة نسب وهمية.



وكما تظهر شجرة النسب، فان تاريخ النسب العربي يماثل في القسم الأساسي منه التقاليد اليهودية التي استقى منها. واسم نسمة العربي (؟) الوارد عند بارت قد يكون مماثلا لاسم بسمة اليهودي، حيث أن نقطة الباء قد تكون جعلت للنون خطأ. وقد يكون اسم عيص IS(؟) لدى بارت كتابة خطأ لعيسو (= Esau).

وبالنسبة للمكان الذي جاء فيه «وكان الروم أصفر» فهناك ما يشبه ذلك لدى هشام بن محمد الكلبي (المتوفي عام ٨١٩ أو ٨٢١ ميلادية) وهو من ثقاة التاريخ والأنساب العربية القديمة. وقد أشار لها كتاب الأغاني لأبي فرج الأصبهاني (المتوفي ٩٦٧ ميلادية)، في المجلد ١٢، ص ١٥٠. فهناك يجري الحديث عن رجلين، قيس بن عاصم، وعمرو بن الاهتم، كان الواحد منهما يتهم الآخر امام النبي محمد بأنه ليس من اصل عربي. و«زعم عمرو بن الأهتم أنه (أي قيس) انحدر من صلب الروم؛ فقد كان أحمر». وفي هذا المثل يتضح التقليد اليهودي كأصل استندت عليه الحادثة: ففي كتاب التوراة باب ٢٥، جاء أن عيسو كان محمرا منذ الولادة. وبما ان اسماء الألوان السامية تتغير كثيرا فمن الممكن اعتبار «الأحمر» و«الاصفر» كقيم لونية متماثلة.

ترجمة: محمد علي حشيشو

هوامش

(٦٩) R.i.A.، II، ٦١٢/٦١١.
(٧٠) المقصود بذلك كتب الحديث.
(٧١) R.i.A.، IV، ٥٢٣.
(٧٢) ١٩٤/٨١٠ — ٢٥٦/٨٧٠؛ GAL، I، ١٥٧ وما تلاها.
(٧٣) R.i.A.، I، ٤٥٨.
(٧٤) R.i.A.، IV، ٦٢، الملاحظة.
(٧٥) مائة.
(٧٦) ذراع؛ نفس المرجع، II، ٥٣٦.
(٧٧) خلق، ج (خلكان)؛ نفس المرجع، III، ٣٣٨.
(٧٨) نفس المرجع، IV، ٢٩٢.
(٧٩) نفس المرجع، II، ٥١٧.
(٨٠) نفس المرجع، IV، ٥٥٤.
(٨١) الأنصار.
(٨٢) الأول.
(٨٣) راجع Vincent Monteil, L'Islam Noir ص ٢٢٧.
(٨٤) R.i.A.، III، ١٢٥.
(٨٥) ص ٥٨٨ وما تلاها.
(٨٦) R.i.A.، V، ٣٠٦.
(٨٧) نفس المرجع، I، ٤٩١.
(٨٨) عاش في النصف الثاني من القرن السادس — GAL، I، ٢٢.
(٨٩) Journal de la Société des Africanistes, Paris, Tome XX, Fascicule I, 229-237.
(٩٠) R.i.A.، XVIII, I.
(٩١) راجع بيكر Becker, Der Islam, I, 177.
(٩٢) بروكلمان GAL، II، ٤٦٧.
(٩٣) «Beiträge zur Geschichte und Geographie des Sudan. Eingesandt von Dr. Barth», p. 518-594.
(٩٤) Paris 1898, Publications de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes, Documents Arabes Relatifs à l'Histoire du Soudan, 326.
(٩٥) Der Islam, 1920, X, 1-73: Eine neue Quelle zur Geschichte des Fulreiches Sokoto.
(٩٦) طبعة (Houdas)، ص ١٥٨، سطر ١٢.
(٩٧) ZDMG، IX، 594، ملاحظة 147.

جبران والناس

— أنت اثنان: واحد يتوهم أنه يعرف نفسه، وواحد يتوهم أن الناس يعرفونه.
— إن شئت أن تنظر إلى سريرة امرىء، فلا تنظر إلى ما بلغه، بل إلى ما يتوق إليه.
— اهتمامنا بعيوب الناس شر عيوبنا.
— ارغب الناس في الجدل: المحقوق. أما المحق فأرغبهم عنه.
— أحسن الناس من إذا مدحته خجل، وإذا هجوته سكت.

جبران خليل جبران

الطب العربي في نظر العلماء والمؤرخين

دراسة نقدية

د. اسماعيل سرور شلش

الحلقة الثانية



□ الطبيب والفيلسوف العربي: ابن سينا

لماذا يدرس الناس تاريخ العلم؟ أليس العلم مجموعة حقائق ثبتت بالبرهان القاطع، فيكون أحدثها أصدقها وأقربها إلى الحقيقة، وماذا يعنينا من ماضي العلم؟ إن كان مخالفاً لحاضره فهو خطأ، وإن كان مطابقا له فما أغنانا عنه.

هذا رأي كثير من المشتغلين بالعلوم، وهو يدل على نظرة سطحية بعيدة كل البعد عن طبيعة العلم. ولن تجد أحداً من كبار العلماء الباحثين يجهل ما كان عليه رأي سابقيه في موضوع بحثه، وكيف تطورت الآراء فيه حتى بلغت ما هي عليه. والذين يسعون إلى كشف جديد يجب عليهم أن يدرسوا علاقة الماضي بالحاضر ليتعرفوا الطريق التي يجب أن يسيروا فيها لكي يخرجوا من الحاضر إلى المستقبل، ومن المعلوم إلى المجهول.

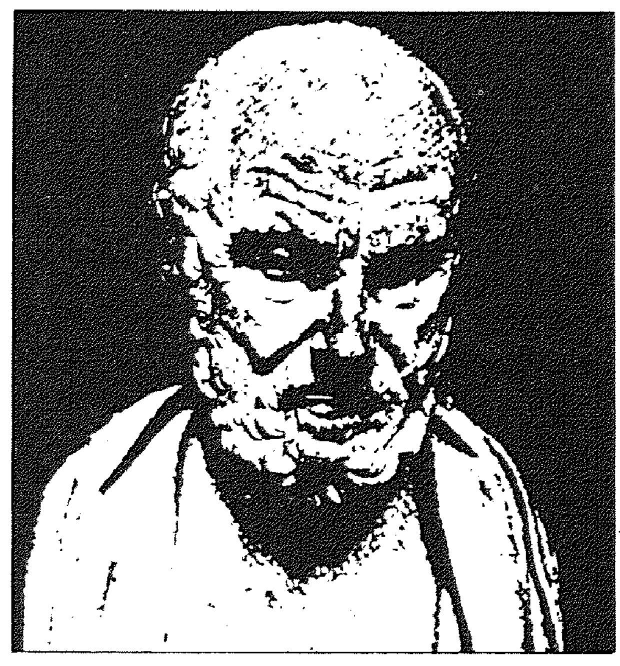
الحروب الصليبية:

جاء الصليبيون إلى الشرق، وهم يحسبون أنهم سيلقون فيه قوما كفارا جهلاء، ودهشوا غاية الدهشة حين وجدوا المسلمين يفوقونهم علما وحضارة، ورأوا من كرم العرب وسمو أخلاقهم ما جعلهم يشيدون بهم بعد حين، رغم ما كان بينهم من عداوة عارمة.

ثم حملتهم الحاجة إلى أن يلجئوا إلى الأطباء العرب. ولم يكن ذلك لأن في الشرق أمراضا لا علم لأطبائهم بها فحسب، بل كان ذلك من غير شك لما ثبت لهم من تفوق الأطباء العرب في جميع فروع الطب. واتخذ أمراء الفرنجة أطباء من نصارى العرب، فكان لعموري (غطريق الأول) طبيب اسمه سليمان بن داوود، وحذا حذوه كثيرون من كبار الفرنجة.

وقد روى مؤرخو الحروب الصليبية قصصاً كثيرة تدل على جهل الفرنجة بالطب، وتفوق العرب فيه. من ذلك قصة غطريق الأول حين أصيب بالدوسنتاريا، واعتراه من جراء ذلك ضعف شديد، وبلغ به الضعف أن اضطروا إلى حمله على نقالة حين أراد الرحيل إلى القدس. ورفض طبيبه العربي أن يعضده أو أن يعطيه مسهلا لما ثبت عندهم من تعاليم الرازي أن ضعف القوة أردأ العلامات. أما طبيبه الفرنجي ففعل به ذلك فمات من غده، وكان ذلك في يوليو عام ١١٤٧.

وروى «أسامة بن منقذ» في كتابه «الاعتبار» قصة جاء فيها أن صاحب القنطرة، وهو من أمراء الفرنجة طلب إلى عمه أن يبعث إليه بطبيب عربي، فأرسل إليه طبيبا نصرانيا يقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا ما أسرع ما داويت المرضى قال: «أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملة، وإمرأة قد لحقها نشاف. فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت، وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب فرنجي ــ فقال لهم ــ هذا ما يعرف شيئا يداويهم. وقال للفارس ــ أيهما أحب إليك أن تعيش برجل واحدة، أو تموت برجلين. قال: أعيش برجل واحدة، قال: أحضروا لي فارسا قويا وفأسا قاطعا فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر. فحط ساقه على قدمة خشب، وقال للفارس: إضرب رجله بالفأس ضربة واحدة واقطعها. فضربه وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت ــ ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته. وأبصر المرأة فقال: هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها ــ أحلقوا شعرها، فحلقوه، وعادت تأكل من مأكلهم الثوم والخردل، فأخذ الموسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس، وحكه بالملح، فماتت من وقتها. فقلت لهم: بقي لكم إليّ حاجة؟ فقالوا: لا. فجئت، وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه.



ابقراط: ابو الطب

عاد الصليبيون إلى بلادهم، ولم ينقلوا إليها شيئا من طب العرب رغم ما كانوا يعرفونه يقينا من تفوقهم فيه.

يتبين من ذلك أن الصليبيين لم يعملوا ما عمله أهل صقلية وسالرنو الذين نقلوا كتب الطب العربية إلى لغتهم. وقد يكون ذلك لأنهم كانوا مشغولين بالحروب، وإن كانت هناك ــ في الواقع ــ فترات طويلة من السلم، كان الفرنج يستطيعون أن يلموا فيها بالطب العربي، وعندي أن قصورهم عن هذا العمل، يرجع إلى أن نقل العلوم من أمة إلى أخرى، لا يتم إلا أن يكون بين الأمم تقارب في مستوى الثقافة ونوعها، ولم يكن لدى الصليبيين قدر كاف من الحضارة، يسمح لهم باستيعاب العلوم العربية، ومع

حاجتهم إلى الطب، فإنهم لم يريدوا أن يتعلموا ما لم يكونوا يعرفون، ولو أرادوا ذلك ما استطاعوا.

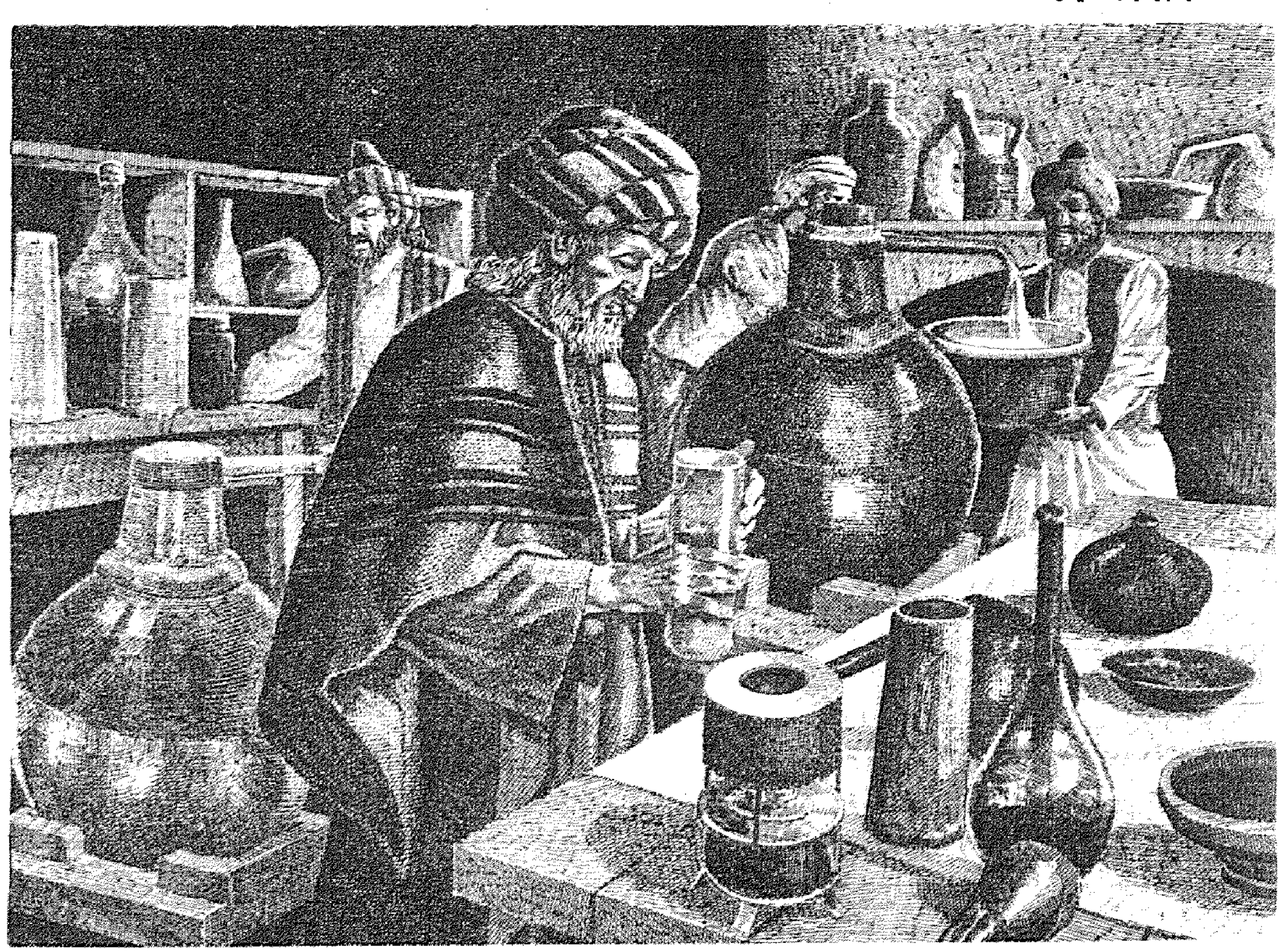
صقلية وسالرنو

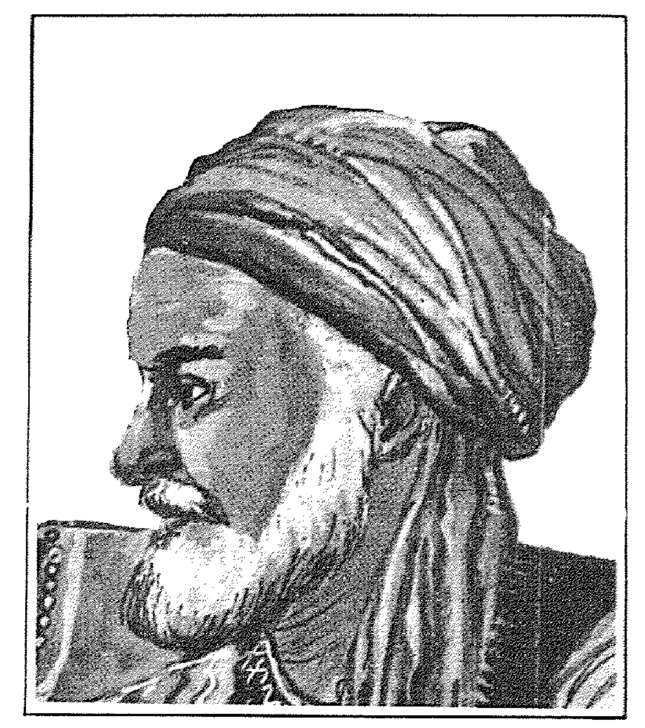
فتح العرب صقلية في أوائل القرن التاسع الميلادي، وحكموها نحو قرنين. في ذلك العصر كانت الحضارة في سالرنو وبالرمو (صقلية) مزيجا من الثقافة العربية واللاتينية والاغريقية. وكانت الصدارة بالطبع للثقافة العربية، وخاصة أن تفوق العرب في العلوم عامة، والطب خاصة، كان واضحا كل الوضوح. ولما زالت دولة العرب، وجاء الحكام النورمان، ظلت الثقافة العربية قائمة. وعني النورمان بالعلوم العربية، وخاصة ملكهم الشهير «فردريك الثاني» الذي كان يعرف العربية، ويخاطب بها ضيوفه العرب. وكان أعجوبة زمانه، علما، وحكمة، وسياسة، وكان يشجع العلماء من كل جنس، لا يفرق في ذلك بين مسلم ومسيحي ويهودي.

وكانت الصلات وثيقة جدا بين شمال أفريقيا، وصقلية وسالرنو، وكانت العلوم في شمال افريقيا في ذلك العصر مزدهرة إلى حد كبير، ولعله لم تكن تقل كثيرا عن علوم الشرق، وكان بعض المعنيين بالطب في تلك المنطقة من اليهود، وأشهرهم اسحق بن سليمان الاسرائيلي (المتوفي عام ١١٤٢)، الذي نشأ في مصر، وعاش أكثر عمره في القيروان، ونبغ من تلاميذه «ابن الجزار» واشتهر أيضاً من الأطباء «موسى بن ميمون» طبيب صلاح الدين.

ومن علماء ذلك العصر أبو منصور الهروي، وماسويه الماريني، وكانا من العارفين بعلم العقاقير. ومنهم أيضاً «عمار الموصلي، وعلي بن عيسى، مؤلف تذكرة الكحالين، وكلاهما دمري. والف ابن رضوان المصري كتابا مفيدا اشتهر في ذلك الوقت، سماه شرح الصناعة الصغيرة لجالينوس، وكتب ابن جزلة كتبا طبية على نحو لم يكن معروفا من قبل، حيث وضع للعلاج السريع، جداول اجمالية، يسهل على الطبيب مراجعتها.

□ جابر بن حيان





□ الزهراوي

كان النقل من العربية إلى اللاتينية يقوم به في أغلب الظن مترجمون مختلفون، يتعاونون فيما بينهم، كل فيما يحسنه، على هذا العمل الشاق.

ومن عجائب التاريخ أن حركة النقل هذه، وهي حركة على أكبر جانب من الأهمية في تاريخ العلوم والطب، دارت كلها حول رجل لا تؤهله كفايته وحدها لمثل هذا العمل، ذلك هو «قسطنطين الافريقي».

وقد دلت البحوث المستفيضة التي قام بها مؤرخو العلوم أخيرا على أن قسطنطين لم يكن عالما باللغة العربية علما واسعا، ولعله لم يرحل إلى الشرق كما كان يدعي، وعلمه باللاتينية ضعيف، ولم يكن على علم خاص بالطب. ولم يكن صادقاً في نسبة الكتب إلى واضعيها، وكانت هذه سنة شائعة بين المؤلفين حينذاك. وأغلب الظن أنه استعان بمن يعرفون العربية والعبرية واللاتينية خيرا منه. ولعله استعان كذلك بمن يعرف الطب خيرا منه.

والذي لا شك فيه أن ما عمله قسطنطين الأفريقي (١٠٢٠م ــ ١٠٨٧م) كان عملا جليلا بالنسبة إلى الأمم اللاتينية مهما تكن كفايته لهذا العمل. وأجل أعماله أنه ترجم كتاب علي بن عباس، وهو المعروف بكامل الصناعة أو الكتاب الملكي، وسمي باللاتينية (Liber Regius)، وترجمة هذا الكتاب فتح في تاريخ الطب اللاتيني. ولم تكن ترجمة قسطنطين خير ترجمة، وقد قام أسطفان الأنطاكي ــ وهو ممن رحلوا إلى الشرق في الحروب الصليبية. بترجمة أخرى للكتاب، وكان ذلك في عام ١٢٤٧م.

وأذكر أن أحد الباحثين في تاريخ الطب العربي ــ قال: إن الأمم اللاتينية عرفت الطب اليوناني وفوقه ضباب الطب العربي. وهذا أمر عجيب لأن الضباب كان مخيما ــ في الواقع ــ على الطب اليوناني، الذي لم تستطع الأمم اللاتينية أن تعرفه حقا، لما كان فيهم من قصور عن الإلمام به، ولا يشك أحد أن العرب هم الذين رفعوا الضباب عن الطب اليوناني، وهم الذين أوضحوا غوامض هذا الطب، وشرحوه، وطبقوه، وعلموه لغيرهم.

الأندلس

كان للحضارة العربية في الأندلس، بريق خلب ألباب معاصريها، وكان لمظاهر المدنية فيها دواء لم يخطئه أحد من جيرانهم، على حين كانت الحضارة في المشرق عريقة أصيلة، والحضارات العريقة كثيرا ما ترزح تحت ثقل ماضيها المجيد، يحدد خصائصها الأسس العميقة التي تقوم عليها، وهذه الأسس قد لا يكون تغييرها سهلا، ولا مرغوباً فيه.

وكان العداء بين العرب ومن يليهم من الأمم اللاتينية شديدا، والحروب مستمرة، والخلافات السياسية على أشد ما تكون، ولم تمنع هذه العداوة من تبادل الفلسفة والعلوم والطب بينهم.

إتخذ الغربيون السبيل الطبيعي لتحقيق نقل العلوم العربية إليهم، وهو طريق الترجمة. وكان نجاحهم فيها أكثر شمولا، وأعمق وأدق وأكثر وضوحا من الترجمات التي تمت في سالرنو، وذلك لعدة أسباب منها أن حضارة الأندلس كانت في أغلب الظن أكثر جدة وقوة من حضارة شمال افريقيا. وكان العلماء المترجمون أقدر على فهم العربية واللاتينية، وعلى معرفة العلوم نفسها من مترجمي صقلية.

وقد عد بعض المؤرخين سبعة وثمانين كتابا ترجمها «جيرارد الكريموني» وليس من المستطاع أن تكون كلها على وتيرة واحدة.

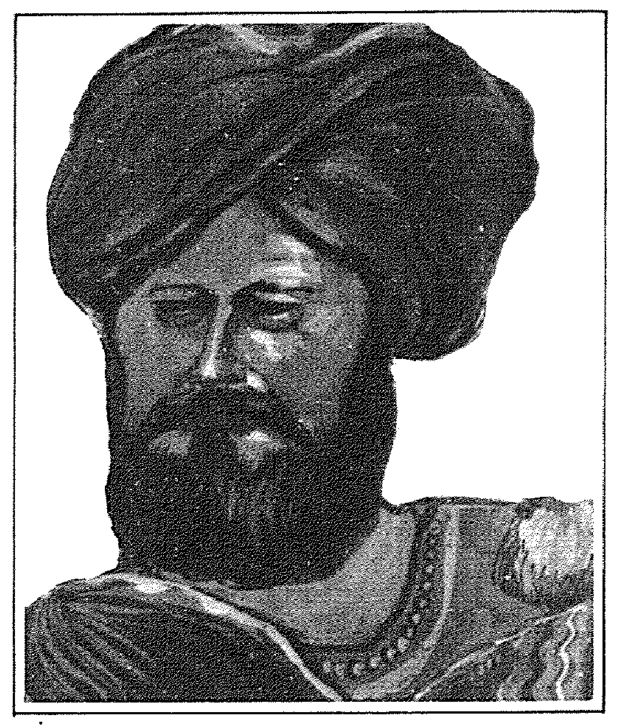
وكان «جيرارد» من غير شك أقدر من قسطنطين الأفريقي، وأغزر علما وأكثر صدقا.

كانت الحركة شاملة، ولا نحسب كتابا عربيا ذا قيمة لم يترجمه المترجمون في ذلك العصر، ترجموا الكتب الطبية الشهيرة وغيرها مما هو أقل شهرة، وعنوا كثيرا بكتب العقاقير لابن البيطار والهودي، ومأسويه الماريديني (المتوفي عام ١٠١٥م)، وكان كتابه مشهورا جدا عندهم، وكذلك ترجمة كتب علي بن عيسى، وعمار الموصلي في العيون. أما كتاب على بن العباس «كامل الصناعة» وكتاب «القانون» لابن سينا، وكتاب «الحاوي» للرازي وكتابه «المنصوري» فقد نالت عناية فائقة، وترجمت ترجمة ظلت كلاسيكية تدرس في جامعات أوروبا حتى أواسط القرن السادس عشر على الأقل.

والآن وقد ذكرنا مجمل تاريخ الطب العربي. وكيف انتقل إلى الغرب، وكيف كانت البلاد اللاتينية متعطشة إليه، إذا تركنا جانبا كل هذه التفاصيل — وفي رأيي أنها على أهميتها لا تحدد أثر الطب العربي في الغرب، إذا تركناها جانبا فاننا نجد أن الغربيين افادوا من الطب العربي أموراً كثيرة.

الكتب الجامعة التي تتناول جميع العلوم الطبية، وأهمها من غير شك كتاب القانون. وقد أجمعت الأمم العربية واللاتينية قديما على الإعجاب بتأليفه، (ولا يزال يتعلم الناس في باكستان الطب كما جاء فيه)، وظل الأطباء يدرسونه في جامعات أوروبا حتى منتصف القرن السادس عشر.

وكتاب القانون عسير على من لا يروض نفسه على طريقة التفكير الطبي في العصور القديمة، وهو يمتاز بالوضوح والتنسيق، وحسن التأليف عند من يروضون أنفسهم رياضة خاصة على ذلك. وهو منظم جدا. بل لعل فيه إسرافا في التنظيم والتنسيق. ولا يشك القارىء أن مؤلفه فيلسوف ممتاز، فهو يستقصي تقسيم الأمراض أو الأعراض أو العلاج، وقد يجره هذا الاستقصاء إلى ذكر أمور لا وجود لها في الواقع، أو إلى شرح أمور نادرة جدا، حين يستدعى التقسيم المنطقي ذكر هذه الأمور. والفيلسوف يزعجه أن يفعل الأشياء التي يقتضي المنطق



□ ابن النفيس

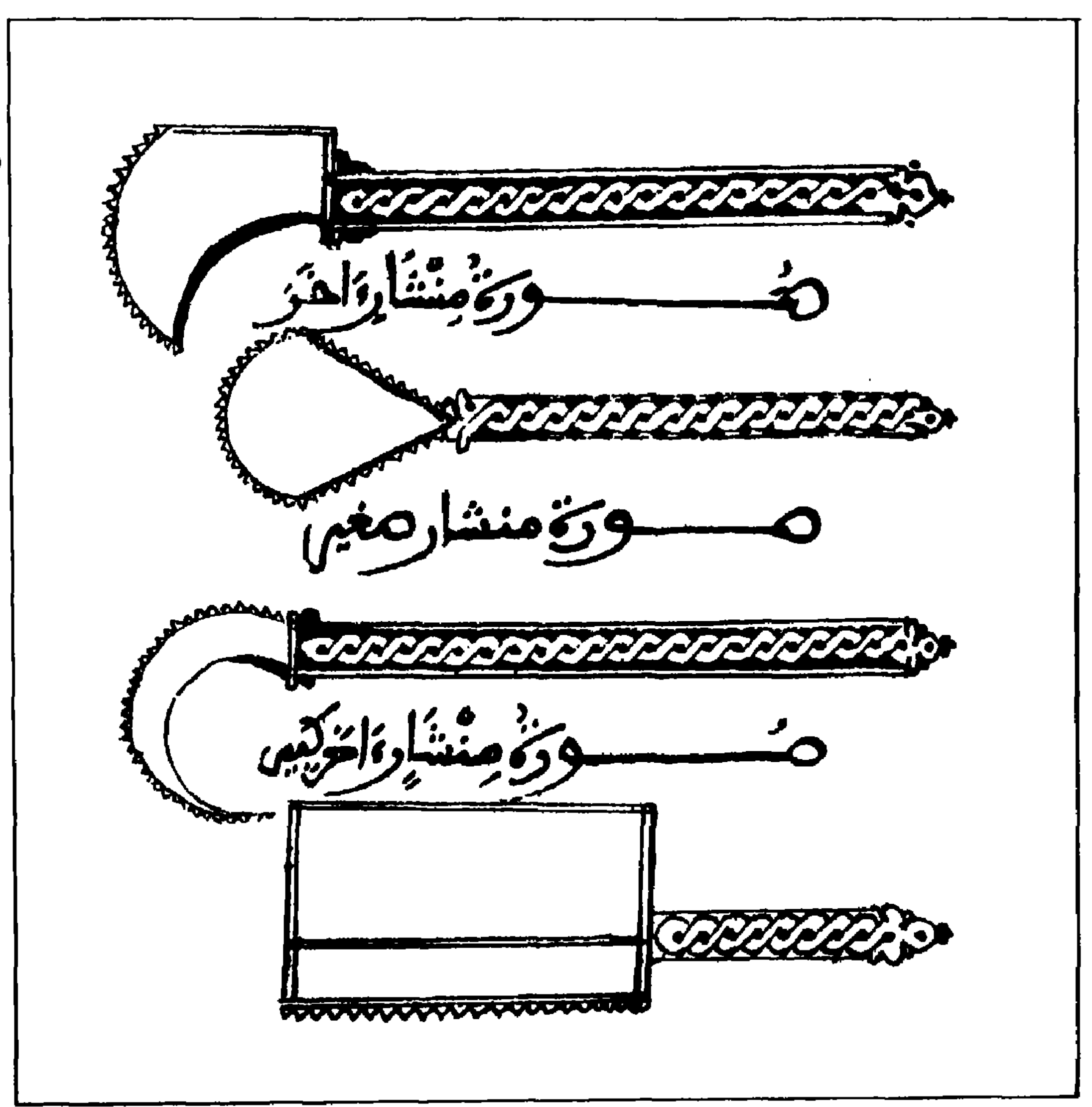
وجودها، وقد لا يزعج الطبيب في شيء أن نغفلها تماما. ولا شك أن ابن سينا كان يرى أن الفلسفة أهم من الطب.

وإن واقع الخبرة الطبية يجب ألا يغير من القضايا الفلسفية الكبرى التي هي ثابتة البراهين لا تقبل النقض، ومن هنا كانت ثقة الأطباء في ذلك العصر في الكليات، وحملهم كل ظاهرة على الخضوع لهذه الكليات مهما يكن التأويل عسيرا ملتويا، وهذه سمات العلم في القرون الوسطى. وكتاب القانون — خير تطبيق لهذا التفكير على العلوم الطبية، وهو غاية ما يمكن أن يبلغه كتاب في الطب يقوم على هذه الأسس، وليس عجيبا أن يرضى عنه أهل ذلك العصر رضاءً تاماً.

أخذ الغربيون عن العرب علمهم بالعقاقير والأدوية المركبة والمفردة. وكان كتاب ابن البيطار مرجعا لهم حتى أواسط القرن الثامن عشر.

وأخذوا عن العرب خبرتهم في الجراحة حيث كان كتاب الزهراوي مرجعا عند كل من مارس الجراحة في أوروبا حينذاك. وله فضل كبير في تحديد التفاصيل الدقيقة التي لا بدمنها لنجاح الجراحات، وهو أول من وصف وضع الوالدة فيما سمي بعد ذلك، وضع الـ (Waleher)، وله آلات يستأصل بها أورام الأنف وهي كالسنارة،

□ ادوات جراحية تعرد إلى القرن السادس عشر من رسالة «الزهراوي»



وله آلات أخرى لاستخراج حصاة المثانة بالشق أو التفتيت.

وأخذ الغربيون عن العرب نظام البيمارستانات. وكان العلاج فيها حسنا إلى حد كبير حتى لقد قيل إن بعض الأصحاء كانوا يدعون المرض ليقيموا فيها. وقد عني البابوات، وملوك الغرب بإقامة المستشفيات على نظام البيمارستانات العربية.

والواقع أن الطب العربي كان ناجحاً جداً، في القرون الوسطى، وكانت الأمم اللاتينية تجهل الطب جهلا يكاد يكون تاما. وكان حتما أن يأخذوه عن العرب، فأخذوا ينقلون الطب العربي كله علما وعملا إلى بلادهم. ولكن العلم التجريبي والتفكير الحديث بدأ عندهم بعد ذلك بقليل. وبذلك كتب الفضل الأخير في طب القرون الوسطى وغفا عليه الزمن.

نظرة العلماء والمؤرخين الأجانب للطب العربي

قد يقول البعض إن المعلومات القديمة لا تفيدنا بشيء، إذ ليس فيها ما يلائم العصر الحاضر، ولكن الحقيقة غير ذلك، لأن التراث الذي خلفه الأقدمون هو الذي بلغ به الإنسان إلى علمه الحاضر. وجهود فرد أو جماعة في ميادين المعرفة، تمهد السبيل لظهور جهود جديدة من أفراد أو جماعات أخرى، لولا ذلك ما تطورت المدنيات. فلو لم يظهر ابن النفيس ما ظهر هارفي، ولو لم يظهر ابن الهيثم لاضطر نيوتن أن يبدأ من حيث بدأ ابن الهيثم، وعلى هذا يمكن القول: «لولا جهود العرب لبدأت النهضة الأوروبية في القرن الرابع عشر من

النقطة التي بدأ منها العرب نهضتهم العلمية في القرن الثامن الميلادي».

الحضارة العربية ظاهرة طبيعية ليس فيها شذوذ أو خروج عن منطق التاريخ، فلم يكن بد من قيامها حين قامت. وقد قام أصحابها العرب بدورهم في تقدم الفكر وتطوره، ولم يكونوا مجرد ناقلين كما قال البعض، بل إن في نقلهم روحا، وحياة، أبعد ما يكون عن الجمود، وقد خطوا في العلوم والطب خطوات كان لها أبعد الأثر في تقدمها.

وفي هذا يقول «جورج سارتون»!: «إن بعض المؤرخين يحاول أن يبخس قدر ما قدمه العرب للعالم، ويصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة، ولم يضيفوا إليها شيئاً»... ثم يقول سارتون: «إن هذا الرأي خطأ، وإنه لعمل عظيم أن ينقل إلينا العرب كنوز الحكمة اليونانية، ويحافظوا عليها، ولولا ذلك لتأخر سير المدنية قرونا عديدة». وقال في موضع آخر «إن العرب كانوا أعظم معلمين في العالم، وإنهم زادوا على العلوم التي أخذوها، ولم يكتفوا بذلك بل أوصلوها إلى درجة جديرة بالاعتبار من حيث النمو والارتقاء»[١٤].

ضاع كثير من مؤلفات العرب بسبب ما أتاه هولاكو وأتباعه المغول من التخريب والتدمير عندما اجتاحوا مدينة بغداد عام ١٢٥٨م، وبسبب ما فعله أمراء أسبانيا أيضا من التخريب بعد خروج العرب من الأندلس، وتناسوا أن تراث العرب العلمي كان أساس الثقافة الاوروبية من القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر، وأن اللغة العربية كانت لغة العلم والفلسفة من حدود الهند وسور الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي وسهول لومبارديا غربا. ونذكر قول «نـورغ» أحد أساتذة جامعة مونبلييه من خطاب ألقاه في إحدى الجامعات الأسبانية «إن أسبانيا كانت دولة قائمة بنفسها يتحلى اهلها بقوة حيوية قومية غير معهودة في غيرهم، كما أن لهم من سرعة الفكر، والاستعداد للنضال ما يجعل منهم أمة فريدة، ويرجع ذلك إلى استيلاء العرب على أسبانيا، واختلاطهم بشعبها مما ادى إلى السير بأوروبا في مضمار التقدم»[١٥].

لقد ترك العرب أسبانيا في القرن الخامس عشر، وفي ٢ يناير ١٤٩٢م جلا العرب عن غرناطة، فتركوا فيها كما قال الأديب الفرنسي «كلود فارير»: «من قصر الحمراء بقية باهرة تتأمل فيها القرون القادمة، وفي طليطلة خزانة لكتب الطب والعلوم تغذت بها بعد ترجمتها البشرية عصورا طويلة».

عاب بعض الغربيين على الأطباء العرب



□ صورة طبق الأصل لبعض الشروحات الطبية القديمة، تتناول طب الأسنان عند العرب

تعلقهم بنظرية الاخلاط، والقوى كما عرفها أبقراط وجالينوس، وقالوا إن عملهم بالأمراض مبني على نظرية القوى والأخلاط، والحرارة الغزيرة، والمشاكلة بين الجسم وما يحيط به.

ولكننا نقول إن الأطباء العرب ــ فضلاً عن أنهم أطباء إكلينكيون من طبقة ممتازة ــ كانوا كذلك فلاسفة وحكماء. عرفوا الكثير من أسرار النفس البشرية مما عاونهم في علاج الجسم، وكانت فلسفة العلاج ترجع إلى شخصية الطبيب وإلى قوة الايحاء. إنه من الظلم أن يبخس المغرضون قدر الطب العربي الذي عاش في ظل آراء بعيدة عن آرائنا، وأسلوب في الحياة والتفكير لا صلة له بحياتنا المعاصرة. ونظرية الأخلاط التي يعيبونها على العرب هي أقرب ما يكون إلى نظرية توازن الافرازات الهرمونية في الدم، والتي إذا ما اختل التوازن أحدثت كثيرا من الأمراض.

أما الجراحة فلم تتقدم لارتباطها بفن التشريح، ولاعتبار الجراحة من المهن اليدوية التي لا تليق بمقام الأطباء، حتى إن قسم أبو قراط نص على العبارة التالية:

«وألا أستعمل المبضع ــ ولو عن يقين ــ في علاج المرضى بالحصيات، وإنما أعالجهم بمقتضى ما يراه ذوو الخبرة بمثل هذا العلاج».

وهنا نذكر عن ابن زهر ــ المتوفي عام ١١٦٢م ــ قوله إن الجراحة لا تليق بالأطباء، كما أن الطبيب لا يليق به أن يحضر العقاقير. وبذلك فصلت الجراحة عن الأمراض الباطنة في أوروبا، وتدهور حال الجراحة[١٦].

وعندما نشر الطبيب الأسباني الراهب «ميجيل سرفيتوس» وكان زميلا لفيساليوس عام ١٥٥٣م. في مجلة دينية عن «وجود مجار للدم بين القلب والرئتين» «فالشريان الدموي يحمل الدم من بطين القلب الأيمن إلى الرئتين، والوريد الرئوي ويحمله من الرئتين إلى أذين القلب الأيسر». ثار عليه «جون كالفين» صاحب المذهب المعروف باسمه، وكان صاحب السلطان الديني في سويسرا، فاستدعى سرفيتوس إلى جنيف، واتهمه بالزندقة، وحكم عليه بالموت حرقا في اكتوبر ١٥٥٣. ولكن عندما ذكر «ابن النفيس» قبل ذلك بثلاثة قرون هذا الكشف الهام عام ١٢٥٨، وصحح خطأ جالينوس بقوله في كتابه «شرح تشريح القانون لابن سينا»، «وإن الحاجز البطيني خال من المسام غير نضاح، وإن القلب لا يتغذى من الدم الذي تحتويه تجاويفه، بل من الأوعية الصغيرة المنبثة في جوهره، وإن الدم إذا لطف نفذ في الوريد الشرياني الوريدي ليصل إلى التجويف الأيسر من تجاويف القلب»، لم يثر عليه المسلمون، ولم ينعتوه بالكفر، ولم يحكموا عليه بالحرق حيا. وقال ابن النفيس في مقدمته لشرح الكتاب الثالث من القانون لابن سينا الخاص بالتشريح «وقد صدنا عن مباشرة التشريح وازع الشريعة، وما في أخلاقنا من الرحمة، فلذلك ينبغي أن نعتمد في تعرف صور الأعضاء الباطنة على كلام من تقدمنا من المباشرين لهذا الأمر... الخ».

وأشاد علماء الكيمياء الاوروبيون بجابر بن حيان، ولقبوه بشيخ الكيمائيين، والأستاذ الكبير، بل ذكروا عنه أقواله ومأثوراته ومنها «فما افتخرت الحكماء بكثرة العقاقير، وإنما افتخرت بجودة التدبير. فعليك بالرفق والتأني، وترك العجلة، واقتف أثر الطبيعة مما تريده من كل شيء طبيعي». وقوله أيضاً: «وأول واجب أن تعمل وتجري التجارب، لأن من لا يعمل ويجري التجارب لا يصل حتى إلى أدنى مراتب الاتقان، فعليك يا بني بالتجربة لتصل إلى المعرفة»[١٧].

كما أشاد «برتيلوه» العلامة الكيميائي الفرنسي بعبقرية جابر وبمنزلته العلمية في كتابه «الكيمياء في القرون الوسطى (١٨٩٣م)»، وكذلك العلامة الكيميائي الانجليزي هوليمار الذي أكد صحة وجوده ومنزلته من العلم، ونوه بكتبه الأربعة التي ترجمت إلى اللاتينية حوالي القرن الثالث عشر. ومما يستحق الذكر والتقدير أن سارتون ــ قد أشاد في كتابه «تاريخ العلم» بمنزلة جابر العلمية، بل وأرخ به حقبة من الزمن في تاريخ الحضارة الإسلامية.

وقد حقق «ألبرت ماجنوس» نظريات ودراسات جابر في علم الكيمياء، وكان تأثير جابر واضحاً في الموسوعة التي ألفها «فنسنت ده بوفيه». أما كتاب الكيمياء الذي ألفه «أرنولد فيلانوفا»، «ريموند لل» فهو ملىء بمقتطفات من كتب جابر، وهكذا سيطرت كيمياء العرب في أوروبا زهاء ثلاثة قرون.



□ ابن البيطار

وقال «نيكلسون»: «وما المكتشفات اليوم لتحسب شيئا مذكورا إزاء ما نحن مدينون به للرواد العرب الذين كانوا مشعلا وضاء في القرون الوسطى المظلمة في أوروبا». وقال البارون «كلارادي فو»: «إن الميراث الذي تركه اليونان لم يحسن الرومان استغلاله، أما العرب فقد عملوا على تحسينه وإنمائه حتى سلموه للعصور الحديثة». ويذهب «سيديو» إلى أن العرب هم في واقع الأمر أساتذة أوروبا في جميع فروع المعرفة. وقال الطبيب الأوروبي «دي بور»: «كان الطب ميتا، فأحياه جالينوس، وكان متفرقا فجمعه الرازي». وجاء في كتاب تطور الطب لوليم أوزلد: «أن العرب أشعلوا سراجهم من القناديل اليونانية، وبلغت صناعة الطب عندهم حتى القرن الثاني عشر مكانة وأهمية لا نجد لها مثيلا في التاريخ». هذا وقد وضعت كلية الطب الجديدة في باريس على سطح دارها من الخارج تماثيل لعلماء الطب ومنهم الرازي وابن سينا، وابن زهر.

يقول «ولز»: «إن العرب بلغوا شأوا تفوقوا فيه على الاغريق، درسوا علم وظائف الأعضاء وعلم الصحة، وكانت طرق طبهم العلمية نظير طرقنا الحاضرة، ولا نزال نحن إلى يومنا هذا نستعمل كثيرا من عقاقيرهم. وكان جراحوهم يعرفون التخدير، ويجرون العمليات الجراحية،

كما أوحت آراء «ابن الهيثم» من علماء البصريات المشهورين إلى «روجر» و «باكون» سبل البحث العلمي.

أطلع «سخاو» العالم الشهير على بعض مؤلفات البيروني، فخرج من دراستها باعتراف خطير، وهو أن البيروني أعظم عقلية عرفها التاريخ، ويعترف «سميث» وهو من كبار الرياضيين أن البيروني كان ألمع علماء زمانه في الرياضيات[١٨].

وذكر الدكتور أحمد الشطي، في كتابه «الطب عند العرب»: «أنه في عهد عبد الرحمن الثالث إزدهر العلم في قرطبة (Cordova)، وأصبحت مركزا ثقافيا وبلغ عدد الكتب في مكتبتها العامة ٦٠٠,٠٠٠ (ستمائة ألف) كتاب. وفي ذلك العهد كان حكام ليون ونافار يقصدون إليها كلما احتاجوا إلى المعالجة، وأرسلت ملكة نافار — إبنها «سانكو» ليعالج من السمنة على أيدي أطباء قرطبة. وكان يفد إلى قرطبة الطلاب من كل حدب وصوب. وممن درسوا في جامعتها من عظماء الرجال — الراهب «جوبرت» الذي أصبح فيما بعد البابا «سيلفستر».

من أهم كتابات الرازي رسالته الذائعة الصيت عن الجدري والحصبة، وقد نشر النص العربي لهذه الرسالة مصحوبا بترجمتها اللاتينية

عام ١٧٦٦م، وقد وصف نيوبرجر ــ المؤرخ الطبي المشهور هذه الرسالة بقوله: «إن هذه الرسالة تعد حلية في جيد الطب العربي، وإن لها أهمية عظمى في تاريخ الأمراض الوبائية لأنها أول بحث كتب عن مرض الجدري».

ويعتبر أبو القاسم الزهراوي (١٠١٣م) أعظم من كتب في الجراحة من أطباء العرب، وقد ضمن معلوماته في كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف»، وترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية مراراً. وقد سارع «جي ده شولياك» [١٣٠٠ ــ ١٣٦٨م]. بنقل الفصول الخاصة بالجراحة من الكتاب المذكور وضمها إلى كتابه في الجراحة. وكان «فابريقوس داكو بندنتي» أستاذ التشريح في جامعة بادوا [١٥٣٣ ــ ١٦١٩م] يعتبر الزهراوي أعظم جراحي زمانه. وكانت آخر طبعة للفصول الخاصة بالجراحة في أكسفورد عام ١٧٧٨(*). وبعد ذلك باثنين وعشرين عاماً أنشئت كلية الجراحين الملكية في لندن.

وهكذا كان أبو القاسم الزهراوي أول من رفع من شأن الجراحة في العالم.

وقد وصف «لانفرامك» في أواخر القرن الثالث عشر ــ بعد أن أطلع على كتاب الزهراوي ــ جراحي باريس بأنهم جهلاء، ولا يكاد يوجد فيهم جراح واحد عالم بصنعته.

وقال «لكلوك» مؤرخ الطب العربي: «لم يكمل القرن التاسع حتى كان العرب قد ملكوا جميع علوم الاغريق، فصارت بغداد مركز الحركة العقلية في العالم، ثم احتلت طليطلة في القرن الثاني عشر المركز الذي تحتله بغداد.

وقال أيضاً: «إنه في ذلك الوقت حصل حادثان عظيمان في قطبي العالم العربي أحدهما الحروب الصليبية التي ساقت إلى الشرق حوالي مليون أوروبي، والثاني هو زحف الأفكار العربية على الغرب عن طريق الأندلس».

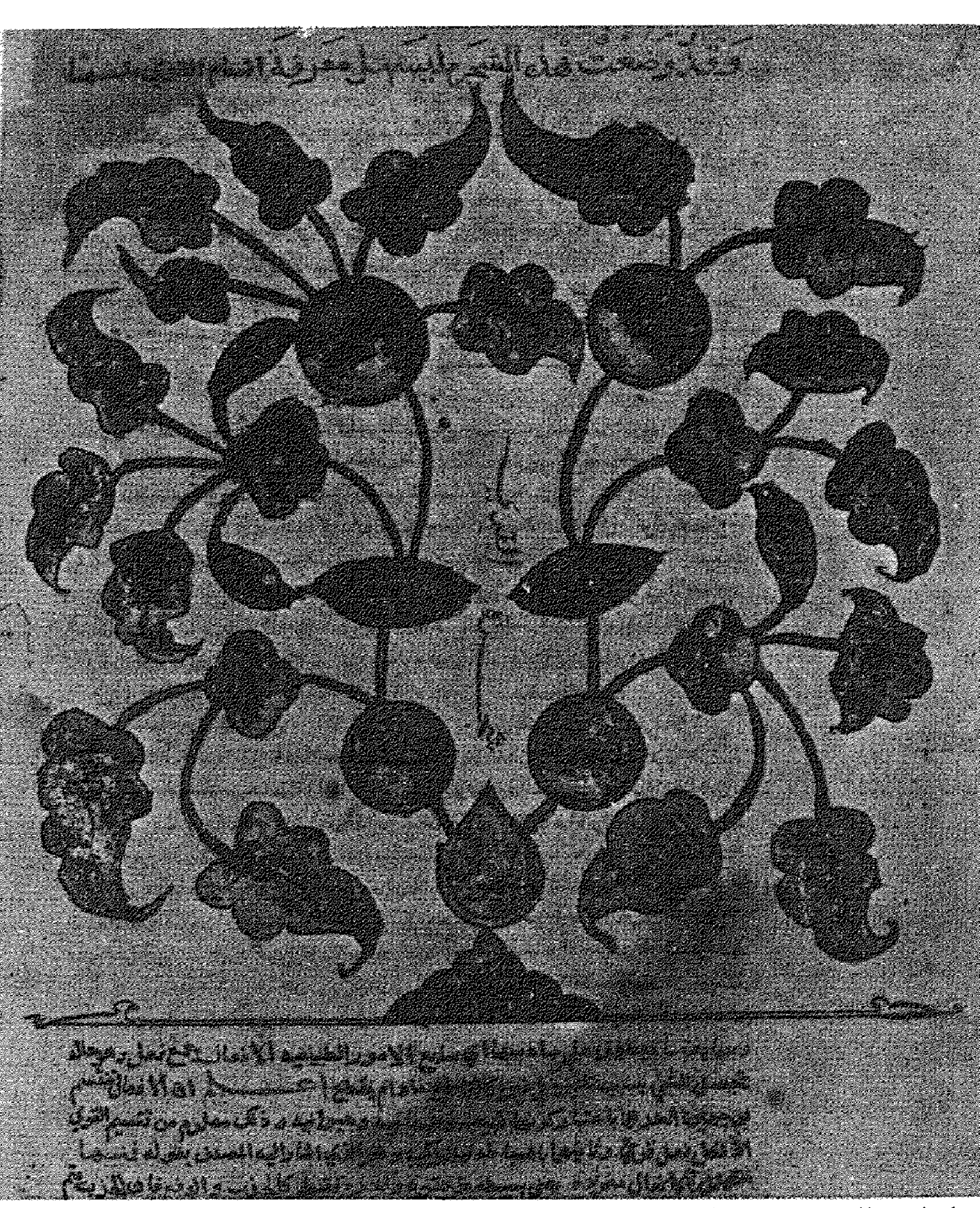
وقال كذلك: «إنه كان يوجد بطليطلة تسعون كتابا مترجما من العربية إلى اللاتينية في الطب، منها أربعة لأبو قراط، و ٢٥ لجالينوس والباقي لحكماء العرب والمسلمين».

وقال المؤرخ «جرمان» من مونبليه: «اننا نشهد لكتاب العرب الذين كتبوا في الموضوعات العلمية بميزة الايضاح التام، والطريقة التعليمية، نعم إن هؤلاء كانت فيهم قابلية عظيمة للثقافة العليا». وقال «برترام توماس»: «وعلى الرغم من ان الحضارة العربية لم تنبعث من العرب كجنس أو كبلد واحد، وعلى الرغم من أن عددا من علمائهم كان من أصل فارسي إلا أنه لولا العرب لما بلغت الحضارة العالمية ما بلغته اليوم».

أما القانون لابن سينا فبلغ من المكانة ما بلغته كتابات جالينوس وأبو قراط وأقر البابا كليمنت الخامس (١٣٠٩م) أن يمتحن الطلبة اجباريا في كتابي ابن سينا، والرازي للحصول على إجازة الطب، وكان كتاب القانون يدرس في جامعة مونبلييه، حتى أواسط القرن السابع عشر، وكذلك كان كتاب المؤثورات وأجزاء من أعمال «ابن رشد»، و «يوحنا سرابيون»، وكتاب تاريخ الأطباء لابن القفطي. وهناك غير ذلك ترجمات عديدة لأزمنة متأخرة كانت تستعمل بكثرة. وهكذا سقطت على تربة أوروبا الجدباء مئات من الترجمات اللاتينية عن العربية، فأخصبت تربتها. وأنشئت الجامعات والمدارس الطبية متأثرة بالثقافة العربية، ونخص بالذكر جامعة بولونيا (القرن الثالث عشر)، واشتهرت بتبني آراء ابن زهر، وجامعة بادوا (١٢٢٨) وكانت تتقبل آراء ابن رشد، وهي الجامعة التي أنجبت «فيساليوس». ثم ظهرت طبقة جديدة من الأطباء المدرسين، وكان هناك أساتذة من شمال افريقيا يدرسون الطب في جامعة سالرنو الشهيرة، فانتعش علم التشريح، وظهرت كتب جديدة في الجراحة، وأصبحت أمراض النساء والولادة في متناول أيدي الأطباء، دراسة علمية بعد أن كانت حكرا للمولدات، وانتقل علم أمراض العيون من أيدي «قداحي الكتاركتا» إلى أيدي الأطباء. وقد بلغ من شيوع التعليم بعد توفر الكتب العربية المنقولة إلى اللاتينية في الطب والعلوم أن أنشئت ثمانون جامعة بين القرن الثالث عشر والقرن السادس عشر. أما العلوم الطبيعية فكان مقرها جامعة باريس، وكانت مؤلفات ارسطاطاليس التي قدمها إبن رشد من طليطلة أساساً للمعرفة.

وهنا عمد «روجر باكون»، و «ألبرت ماجنيس» (العظيم) على نشر بحوث العلماء المسلمين، فكان مؤلف روجر باكون ــ في البصريات مبنيا على

□ شجرة «القوى الاساسية» في جسم الانسان



كتاب «الحسن بن الهيثم» في نفس الموضوع.

وكانت فيينا حتى عام ١٥٢٠، وفرنكفورت حتى عام ١٥٨٨ تستعملان كتاب القانون لابن سينا. وكتاب المنصوري للرازي في مقرر دراسة الطب. وحتى القرن السابع عشر في ألمانيا وفرنسا كان هناك أساتذة يقومون بتدريس علوم العرب حتى ظهرت الطرق الحديثة. واستمرت الفارماكوبيا العربية سائدة حتى مطلع القرن التاسع عشر، وطبعت أجزاء من كتاب ابن البيطار (١٧٥٨م) في كريمونا، كما أعيد طبع مؤلفات مختار الأومني (١١٨٤) في الطب (وهي من مصادر عربية وفارسية) في البندقية (١٨٣٢). أما عملية قدح العين التي قام باجرائها العرب، فكانت تمارس بواسطة «برسيفال بوث» في انجلترا (١٧٨٠) وفي المانيا (١٨٢٠)[١٩].

قال «جومار» أحد العلماء الذين استقدمهم نابليون أثناء حملته على مصر «أنشىء في القاهرة منذ ستة قرون عدة بيمارستانات تضم المرضى والمجانين، ولم يبق منها سوى مارستان واحد «قلاوون»، صرف سلاطين مصر عليه مالاً كثيراً، وأفرد فيه لكل مرض قاعدة خاصة وطبيب خاص، يدخله المرضى فقراء واغنياء بدون تمييز. وكان المؤرقون من المرضى يعزلون في قاعة منفردة يستمعون لألحان موسيقية. ويدرس بالمستشفى الطب والفقه»[*]

وقال «برايس دافن»: «كانت قاعات المرضى تدفأ شتاء، وتبرد صيفا بالمراوح الكبيرة الممتدة

من طرف القاعة إلى الطرف الثاني...».

أما عن الغرب فقد جاء في كتاب «ماكس فوردو» عن هوتيل ديو ف باريس «يستلقي في فراش واحد أربعة أو خمسة أو ستة مرضى بأمراض مختلفة، أطفالا وشيوخا، ويقدم الطعام للمرضى بمقادير ضئيلة في أوقات غير منتظمة، وتتراكم الحشرات في الدار، وتفسد رائحة الهواء في قاعات المرضى؛ وتبقى جثث الموتى ٢٤ ساعة في الفراش مع الأحياء، وذباب الجيف، وكانت حجرات المجانين ملاصقة لمن أجريت لهم العمليات الجراحية».

ويمكن القول بأن الألمان من أكثر الشعوب التي نزلت إلى ميدان البحث في الطب العربي، ولا تتيسر دراسة تاريخ الطب العربي دون الرجوع إلى مؤلفاتهم. قال الفيلسوف الألماني «هومبولد»: «إن العرب لم يقتصروا على دراسة كنز المعارف الذي عثروا عليه، بل أضافوا إليه ووسعوه، وفتحوا طرقاً جديدة للبحث في أسرار الطبيعة».

وقد كتب «بيتر باخمان» المستشرق الألماني في مؤلفه: «أبحاث المانية عن تاريخ الطب العربي» يقول: «يمكن أن أشبه الطب العربي بجزيرة واسعة عجيبة واقعة في المحيط، ذات جبال عالية ورياض مزدهرة، وأنهار جارفة وبساتين فائحة، كما أن فيها صحراء خالية ليس فيها من الحياة إلا ما عاش في بعض الواحات. وإذا بالمكتشفين يجتازون البحر من جميع النواحي في طلب هذه الجزيرة يرغبون في اكتشاف أسرارها، ويرومون النزول إلى معادنها، ويقصدون إلى اقتطاف أزهار رياضها. وأما الجبال العالية والرياض المزهرة والأنهار والبساتين، فهي رموز إلى أعلام الطب العربي، وإلى مؤلفاتهم الرائعة البديعة. وأما الصحراء الخالية التي فيها بعض الواحات، فهي صورة الأطباء الذين اختصروا مؤلفات متقدميهم، وشرحوها وشرحوا الشروح التي قد كتبت من قبل. وأحياناً عبروا عن فكرة جميلة جديدة، وأحيانا أقدموا على نقد القدماء، وعلى سلوك طرق لم يسلكها أحد من قبلهم.

وأما المكتشفون الذين يجتازون البحر من جميع النواحي فهم الباحثون عن تاريخ الطب العربي وأعلامه وتطوره. وهم هيئة تتألف من علماء بلدان مختلفة من جميع الأجناس والأديان. ويدل هذا الاهتمام الدولي بالطب العربي على أن الكتب الطبية العربية فيها قوة عقلية لم تزل تؤثر على الناس حتى في يومنا هذا ولن تزال في المستقبل إن شاء الله... الخ.

وأول من وضع كتابا في الطب العربي في المانيا كتابه «أنه توجد واجبات ثلاثة يجتهد في تحقيقها الباحثون عن الطب العربي وهي:

أولاً: وضع فهارس لجميع المخطوطات، والكتب العربية المنسوبة إلى الطب العربي وتاريخه كي نعرف نحن المستشرقين في الشرق والغرب ما هي مواد أبحاثنا المحفوظة في مكتبات العالم العربي وفي أوروبا وفي الولايات المتحدة.

ثانياً: طبع المخطوطات العربية الطبية بعد تحقيقها وضبطها.

ثالثاً: ترجمة الكتب العربية إلى لغة من لغات الغرب مع شروح وملاحظات أدبية وتاريخية حتى يسهل على علماء الغرب من غير المستشرقين الوصول إليها وإدراكها.

وفي عام ١٨٤٠م ظهر للمستشرق «فرديناند وستنفلد» من جوتنجن كتابه في «تاريخ أطباء العرب والباحثين عن الطبيعيات عندهم» جمع فيه أسماء ثلاثمائة طبيب وفهارس مؤلفاتهم، وموجز تواريخ حياتهم.

وأصدر «شتاينشنايد».. في مدينة جراتس عام ١٩٥٦ «فهرست الكتب الأوروبية المترجمة عن العربية، والمصنفة حتى نصف القرن السابع عشر». وأما الكتب التاريخية الطبية فعني بتحقيقها المستشرقان «يوحناد ويديجر»، و «أوجست ميلر»، وأصدر المحققان كتاب «الفهرست» في ليبزج. وأعيد طبع تحقيق «فليوجل» في بيروت حديثا حين صدر في سلسلة «روائع التراث العربي».

وكان علماء أوروبا يمدحون الكحالين العرب. وأول من حقق في طب أمراض العيون هو «جوليوس هيرشبرج» الذي أصدر في برلين عام ١٩٠٣ كتاب «حنين بن إسحق»، «العشر مقالات في العين»، وأتبع هذه بثلاثة مقالات أخرى عناوينها «في الآلات التي استعملها الكحالون العرب»، والثانية «في قدح العين»، والثالثة «في صور تشريح العين عند العرب»،

وجمع فيه تراجم بعض الكتب العربية في طب العيون. وأفضلها وأبدعها كما يقول «هيرشبرج» كتاب «المنتخب في علم العين» لعماد بن علي الموصلي، أما كتابه الذي جمع فيه ثمار دراساته السابقة فهو «تاريخ طب العيون عند العرب» الذي صدر في ليبزج عام ١٩٠٥م.

ومن العلماء الذين يعملون في دراسة تاريخ الطب العربي «أوتوشيليس» من بون، صدرت له عام ١٩٦٢ مقالة في تاريخ طب الأسنان عند العرب، وله أيضاً «ثلاثة أبواب في مبحث البول عند العرب»، صدرت في عام ١٩٦٤. وكذلك المستشرق «هلموت جاتجي» له بحث أسماه «نظرة إلى الطب الإسلامي في القرون الوسطى» عام ١٩٦٢، ونقل «ألفريد سيجل» كتاب فردوس الحكمة لعلي بن سهل الطبري إلى الألمانية، وأصدره في ثلاثة أجزاء عام ١٩٤١، ١٩٥١، ١٩٥٣.

وأصدر هاينرش شيبرجيس كتابه في «قبول الطب العربي في أميركا اللاتينية عام ١٩٦٤. وبحث ألبرت ديترش عن مخطوطات عربية في بعض مكتبات تركيا وسوريا، وأخرج كتابا عام ١٩٦٦ أسماه «طبيات عربية».

أما «ماكس مايدهوف» فقد اتحد في شخصيته عالم الطب، وعالم اللغات الشرقية، ولد في شمال ألمانيا عام ١٨٧٤، ودرس في جامعة هايدلبرج، وجامعة برلين، ونال الدكتوراه من شتراسبورج، ثم تخصص في طب العيون، وانتقل إلى مصر واستقر في القاهرة، فأصبحت مصر وطنه الثاني، وبقي بها حتى توفي عام ١٩٤٥. وكان يجمع بين لطف المؤانسة، وحذق المعالجة، وأحاط بعلم الطب. وبعلم الاستشراق. كما كان يبحث عن نوادر الكتب الطبية العربية في مكاتب الشرق، وحقق كتاب حنين بن إسحق «العشر مقالات في العين» مع ترجمة انجليزية له عام ١٩٢٨، وأصدر كذلك كتاب «شرح في العين» مع ترجمة انجليزية له عام١٩٣٨، وأصدر كذلك كتاب «شرح أسماء العقار» لابن ميمون عام ١٩٤٠، ونقل إلى الانجليزية خمس رسائل لابن بطلان البغدادي، ولابن رضوان عام ١٩٣٧، وكذلك مقالته الألمانية في تاريخ التعليم الفلسفي والطبي عند العرب، وله مقالات مختلفة عن ابن النفيس وغيره. ويختم «ماكس مايدهوف» كتابه «تراث الإسلام» بالعبارة التالية: «إن الطب الاسلامي قد عكس ضوء الشمس الغاربة في اليونان، وتلألأ كالقمر في سماء العصور المظلمة، وثمة نجوم سطعت من تلقاء نفسها، وأضاء سناها ظلمة هذه السماء، ثم أفل القمر وخبا ضوء النجوم في فجر عهد جديد... لكن أثرها بقي في الحضارة حيا حتى الآن.

فإذا ظهر لنا ان اثر العرب لم يعد واضحا الآن في أوروبا كما كان في الماضي، فإن هذا راجع إلى أن أوروبا وأميركا منذ القرن التاسع عشر بدأتا بالثورة الصناعية، وما نتج عن ذلك من فلسفة وسياسة جديدة تركزت على الماديات، والآن وقد أصبحت أوروبا دولا قوية بعد الثورة الصناعية، وأصبح العرب دولا ضعيفة بسبب الاستعمار والتفرقة، بدأت أوروبا تخرج كنوزاً من المعرفة تباهى بها الشرق».

على أننا لا نقطع الأمل من أن يأتي اليوم الذي توحد فيه الدول العربية قواها العلمية والاقتصادية، وتنزل إلى ميدان العلوم والصناعة، حتى تستعيد ماضيها المجيد. فإذا خلصت النيات ــ وليس هذا ببعيد ــ عندئذ تقوى المعرفة العربية ممزوجة بالقوى الروحية الكامنة فينا، فيتطلع الغرب إلينا مرة ثانية.

●

هوامش

(١٤) SARTON (G), A history of Science, Ancient Science-throwgh the Golden Age of Greece, Harverd, 1952.

(١٥) SARTON (G), Introduction to the History of Science, 3 vol., Baltimore.

(١٦) صاحب كتاب «اليسير في المداواة والتدبير» الذي ترجم إلى اللاتينية، فكان له أثر عظيم في تقدم الطب الأوروبي.

(١٧) جورج سارتون ــ تاريخ العلم ــ القاهرة ١٩٥٧، مؤسسة فرانكلين.

(١٨) المصدر السابق.

(★) Coldstein, (M), Internationale Bibliographie der Altaegyptischen Medizin, (1850-1930).

(١٩) المصدر السابق.

(★) Dawson (W.R), Medicin in the Legacy of Egypt. Oxford, (Clarendon) Press, 1942, p.p. 174-198.

ترميم وإعمار الحرم الشريف في القدس عام ١٩٢٨م.



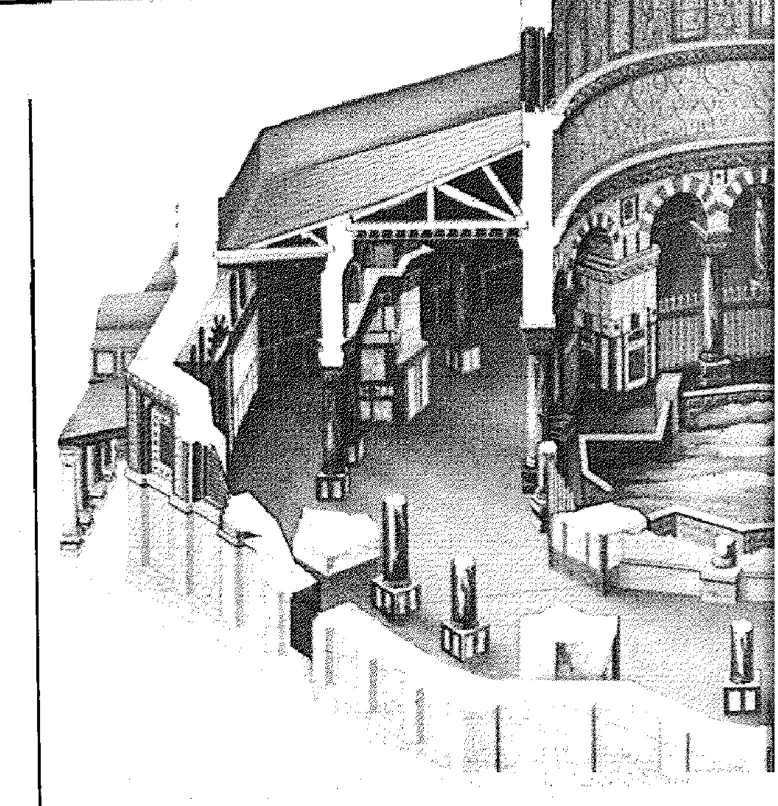
يتضمن الحرم الشريف قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك. وتعتبر هذه الأماكن الاسلامية مقدسة لدى جميع الشعوب الاسلامية في العالم. هذا وقد ورد ذكر المسجد الأقصى في القرآن الكريم. قال سبحانه وتعالى «بسم الله الرحمن الرحيم.. سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير» صدق الله العظيم. وورد اسم المسجد الأقصى المبارك في الحديث الشريف، قال رسول الله (صلعم) «لا تشد الرحال إلا لثلاث، المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا» لهذا تعتبر الشعوب الاسلامية المسجد الأقصى ثاني الأماكن المقدسة بعد المسجد الحرام في مكة المكرمة. ووصف الرحالة العرب والأجانب المسجد الأقصى وذكروه في كتبهم. فمثلاً وصفه الرحالة والصحفي الأجنبي (Vincent Sheean) قائلاً: «إن المسجد الأقصى أعظم بناء في العالم»[١]. وأضاف قائلاً في كتابه عن حياته الشخصية[٢] إن هذا المسجد مهم لكل الشعوب الاسلامية في العالم.

كان قد تمّ بناء قبة المشرفة زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان وذلك بتاريخ ٧٢ هجرية الموافق ٧٠٣ ميلادية. أما المسجد الأقصى فقد تم بناؤه في زمن ابنه الوليد بن عبد الملك بتاريخ ٧٤ هجرية الموافق ٧٠٥ ميلادية. وتعتبر أعمالهم هذه من أهم الأعمال الدينية التي أنجزت في عهد هؤلاء الخلفاء من بني أمية[٣].

حدثت تصدعات وتشققات في بناء الحرم الشريف نتيجة الزلازل وتيارات العوامل الجغرافية عبر التاريخ. لذلك كان الخلفاء والسلاطين الذين تعاقبوا على إدارة هذه البقعة المقدسة منذ زمن بني أمية يقومون بإصلاح وترميم وتزيين (عمل ديكور) على المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة. وكا الهدف من عملهم هذا هو لصيانة هذه الأماكن المقدسة من الدمار أولا، ثم لكي يثبتوا لشعوبهم أنهم حُماة الديار المقدسة. ونستطيع الآن مشاهدة اسماء السلاطين والخلفاء والملوك الذين قاموا بهذه الاصلاحات على جدران المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة، وكذلك على أبنية مختلفة في

□ قبة الصخرة في القدس: مثل رائع للفن المعماري الاسلامي ايام الخلافة الاموية، امر ببنائه الخليفة عبد الملك (٦٨٥ ــ ٧٠٥). رضع هذا الفن العظيم في طفولته شتى الألبان من هيلينية ورومانية وبيزنطية، واخذ ينمو ويتدرج ويتطور ويتطبع بطابع خاص لم يكن معروفاً من قبل، ويتخذ لنفسه شخصية قائمة بذاتها قادرة على الابتكار والابداع. وقد شملت هذه الابتكارات جميع انواع الفنون. وغدت الفنون الجميلة الاسلامية مصدرا من مصادر الاقتباس.

د. تيسير جبارة



القدس الشريف. وهؤلاء السلاطين والخلفاء هم أمويون وعباسيون وفاطميون وأيوبيون ومماليك وعثمانيون.

وعندما انتصر الانجليز على الأتراك في الحرب العالمية الأولى، أصبحت فلسطين تحت النفوذ ثم الانتداب البريطاني. وفي بداية الاحتلال البريطاني لفلسطين نزل ايرنست ريتشموند في القدس، وهو انجليزي وعضو في المعهد الملكي البريطاني للآثار، وأصبح فيما بعد مستشار الشؤون العربية في زمن صموئيل. قام ريتشموند بفحص المسجد الأقصى وتوصل إلى نتيجة أن المسجد بحاجة ماسة إلى ترميم وإعمار وإصلاح في أماكن كثيرة من الجدران. ووجد أن المواد الملصقة على الجدران بحاجة إلى ترميم لأنها بدأت في التلف. ثم قرر ريتشموند دعوة المهندس الأرمني اوهانسان لكي يأتي من دمشق للقدس وذلك لكي يقوم بإصلاح وإعادة بناء المربعات التي تكسرت على جدران المسجد والتي كانت تعطي رونقاً رائعا للمسجد»[٤].

وكتب هاري لوك ــ حاكم مقاطعة القدس ــ بتاريخ ٢/١١/١٩٢٠م رسالة إلى السكرتير العام في القدس قائلاً إنه بحث مع المفتي الأكبر (الشيخ كامل الحسيني) مسألة جمع الأموال للقيام بعملية اصلاح قبة الصخرة المشرفة، وقد أعجب لوك بالنداء الذي كتبه المفتي الأكبر للمسلمين في العالم، ونصحه باعادة طبعه ونشره وقال إنه على المفتي الأكبر أن يشكل لجنة اسلامية تقوم بتوزيع هذا النداء، وأضاف لوك قائلاً للسكرتير العام «إنه من المفيد جداً أن ينشر هذا النداء إلى المحمديين في مصر بواسطة شيخ الأزهر.. وأن المفتي الأكبر الذي بحث معه هذا الأمر مستعد لنشر هذا النداء»[٥].

وبعد وفاة الشيخ كامل الحسيني أصبح الحاج أمين مسؤول الشؤون الدينية في فلسطين وذلك عندما أصبح «مفتي القدس» و«رئيس المجلس الاسلامي الأعلى». لذلك قام الحاج أمين بأول اعماله الدينية العمرانية بأن قرر العمل على ترميم واصلاح الحرم الشريف وخاصة قبة الصخرة المشرفة. وكما يبدو أن ريتشموند هو أول من شجع الحاج أمين على القيام بهذا العمل وأن ريتشموند نفسه كان مهتما بهذا الأمر، والدلالة على ذلك نستخلصه من رسالته الى السكرتير العام التي أرسلها بتاريخ

١٩٢٤/١/٣م، وقد وصف في رسالته الحالة السيئة التي وصلت اليها قبة الصخرة المشرفة وأنها لذلك بحاجة إلى اصلاح وترميم وأضاف قائلاً: «قام معماري ألماني بتقديم تقرير عن هذا الموضوع قبل الاحتلال البريطاني لفلسطين، وقمت بتقديم تقرير بعد الاحتلال.. سوف يكلف هذا العمل الحاج أمين الحسيني حوالي ٢٥,٠٠٠ جنيه»[٦].

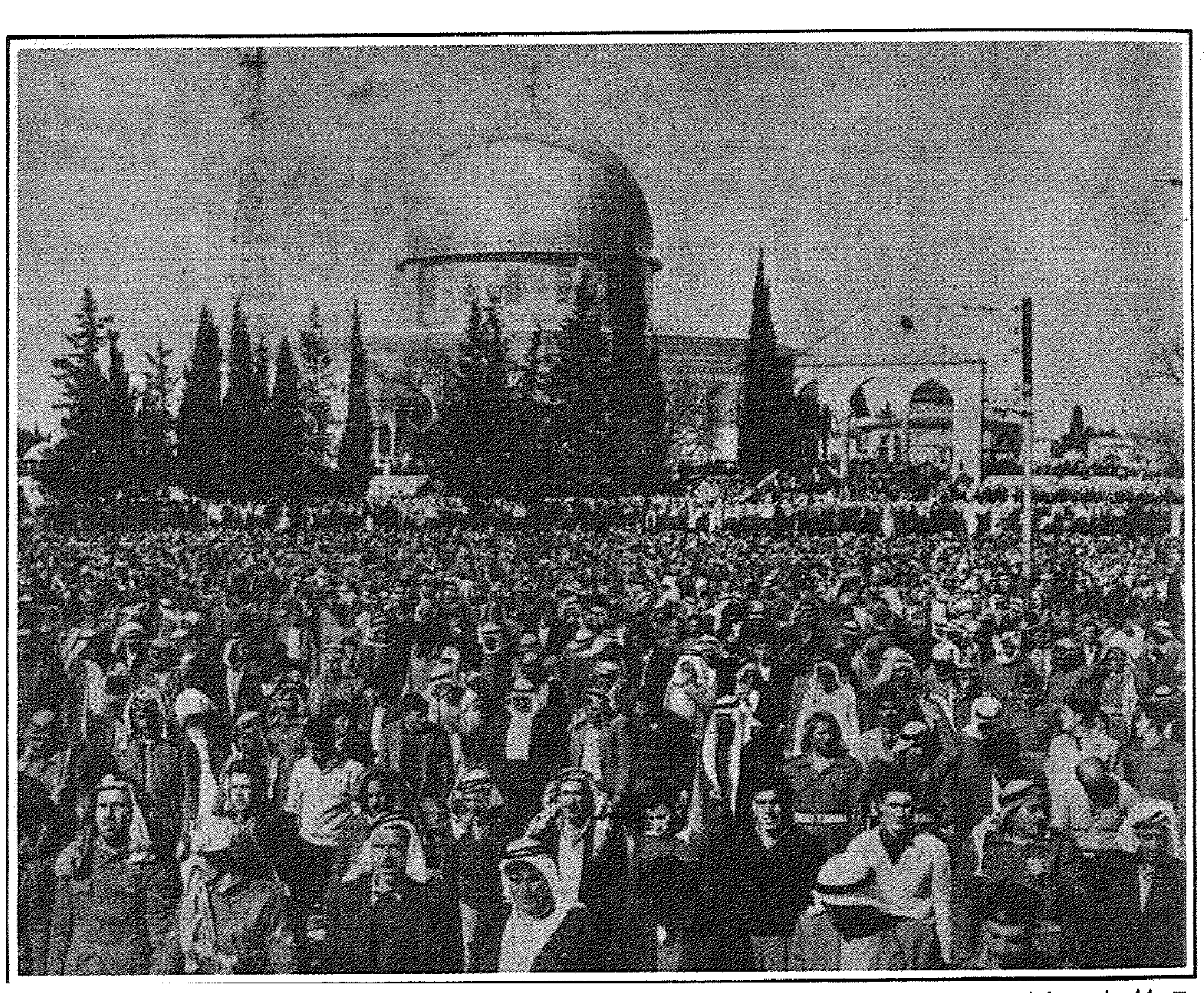
لذلك توجه الحاج أمين الحسيني بنداء إلى العالم الاسلامي طلب فيه المساعدة المادية لإعمار الصخرة المشرفة، وبدأ النداء بذكر آية من سورة الاسراء، ومما جاء في النداء أنه موجه إلى كافة العالم الاسلامي ويذكرهم أن بناء المسجد الأقصى بحاجة ماسة إلى إعمار وأضاف آية من القرآن الكريم «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر»[٧] صدق الله العظيم.

استشار الحاج أمين الحسيني المهندس التركي[٨] المسلم كمال الدين وهو مشهور في تركيا، وطلب منه القدوم إلى القدس وذلك في عام ١٩٢٢م لدراسة الوضع. وعندما وصل المهندس التركي للقدس وفحص المسجد الأقصى أعطى موافقته للقيام بهذا المشروع الاسلامي فشكل لجنة من خمسة مسلمين هم: نهاد بيك، وجمال الدين بيك، وحسني بيك وكلهم من تركيا، ورشدي الامام الحسني من القدس. وترأس كمال الدين هذه اللجنة[٩].

ثم قام كمال الدين بدعوة اثنين من المهندسين الألمان للتوقيع معهم على عقد العمل ليقوموا بالأعمار والترميم في المسجد الأقصى ولكنه لم يستطع التوصل إلى نتيجة معهما وألغى العمل مع الألمان وذلك بسبب الشروط التي وضعوها وهي أن يكون جميع المهندسين من ألمانيا وطلبوا أيضا زيادة ١٧٪ من النقود. لذلك قرر كمال الدين توقيع عقد عمل مع مقاولين محليين للقيام بهذا المشروع الذي قدرت تكاليفه بحوالي ١٥٠,٠٠٠ جنيه[١٠].

كان الحاج أمين يعلم أن هذا المبلغ لم يكن متوفرا لديه لتغطية مصاريف المشروع، لذلك قام بإرسال وفود اسلامية إلى الهند ودول اسلامية اخرى لجمع إعانات لإعمار الحرم الشريف وذلك لأن ميزانية الأوقاف لا تكفي لانجاز المشروع[١١]. وكان قد نصحه وشجعه بإرسال هذه الوفود رئيس الجمعية الاسلامية المسيحية بالقدس السيد .عمر البيطار، ثم. ترأس الحاج أمين بنفسه وفداً إلى الهند وسوريا والعراق ومصر، ونشط في جمع الاعانات لتغطية مصاريف المشروع وتوقع ان يعطيه هذا المشروع شهرة عالمية في جميع العالم الاسلامي. أضف الى ذلك أن النداء الذي وجهه المفتي للعالم الاسلامي استطاع اعطاءه شهرة عالمية وبناء صداقات قوية مع رؤساء الدول الاسلامية وأعتُبر رئيس فلسطين العربية الاسلامية[١٢]. وعن هذه الوفود الاسلامية كتب هربرت صموئيل إلى سكرتير وزارة المستعمرات بتاريخ ١٩٢٢/٨/١١م أن الوفد الذي ذهب للحجاز تدخل في السياسة وأنه هاجم سياسة بريطانيا في العالم الاسلامي[١٣].

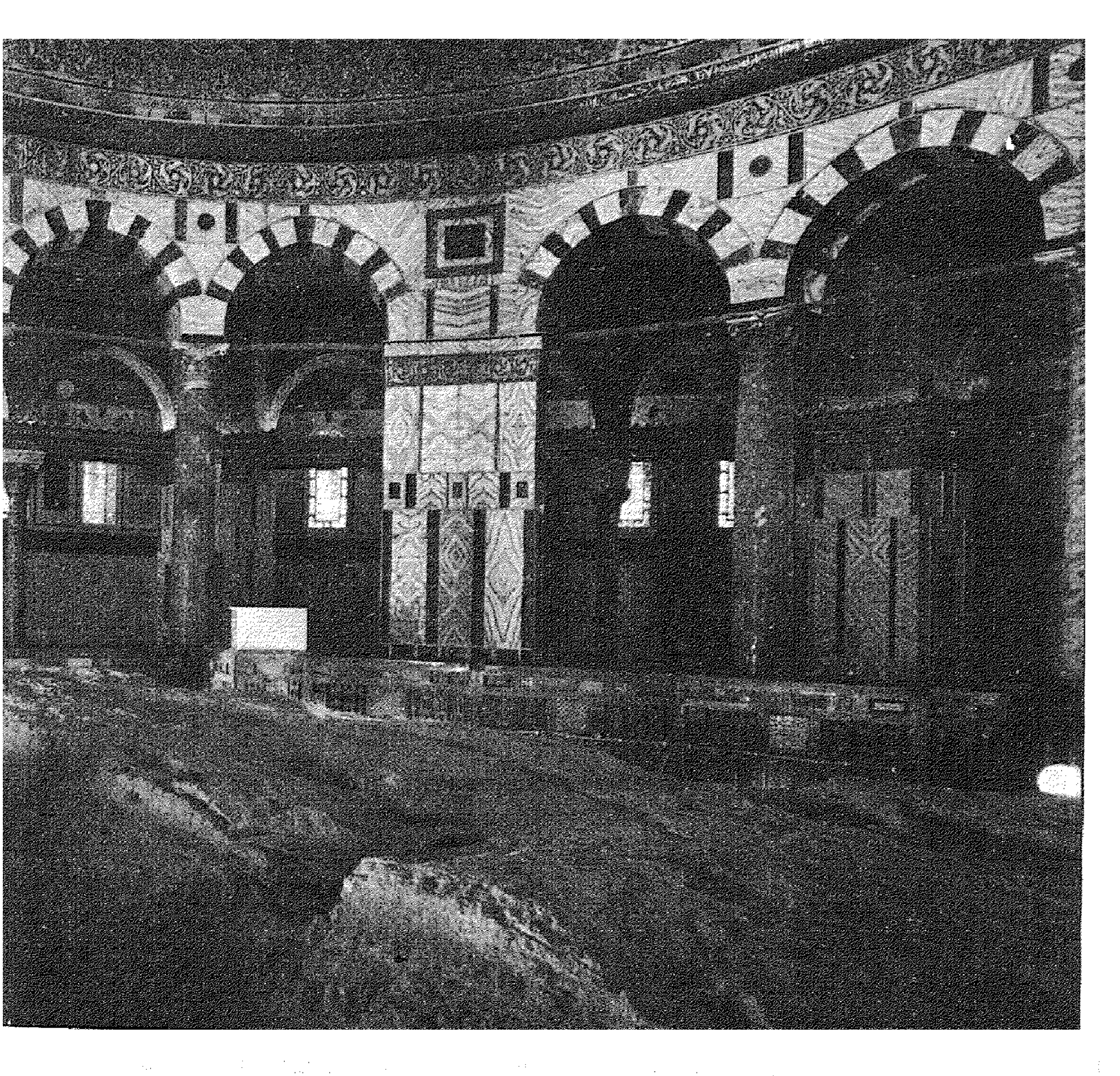
ذهب الحاج أمين الحسيني ومعه كمال الدين التركي إلى القاهرة بتاريخ ١٩٢٣/٢/١م «وذلك بغرض الاستفادة من الاجراءات التي عملتها تلك البلد فيما يخص صيانة الآثار الخاصة بالفن العربي وكذلك لتأسيس متحف للآثار العربية ومكتبة الآثار الخاصة بالفن العربي وكذلك لتأسيس متحف للآثار العربية ومكتبة للأدب العربي»[١٤]. ولكن المفتي لم يحصل من مصر على كل ما أراد. وفي صيف نفس العام تراس الحاج أمين وفداً ثانياً إلى القاهرة[١٦]، وذلك لنفس الغرض. وكانت التحريات الانجليزية تراقب نشاط المفتي، لذلك أرسل اللنبي رسالة الى صموئيل في القدس بتاريخ ١٩٢٣/٦/١٦م اخبره بها عن نشاط المفتي في مصر وأضاف قائلاً انه لا يستطيع مساعدة المفتي في مثل هذه الظروف السياسية الحاضرة وأضاف اللنبي «.. لذلك أخبرت سماحته بما أن هدف النداء ديني وتاريخي ومعماري فإنني لا أستطيع مساعدته، ولكنني أكدت للمفتي الأكبر تعاطفي معه وأنني سوف أساعده حسب استطاعتي بطريقة الاعلانات في الجرائد المحلية ليلقى نداؤه الدعم الكامل»[١٧]. وكان الجنرال كلايتون قد بعث برسالة للجنرال اللنبي بتاريخ ١٩٢٣/٦/٢٨م أخبره فيها بمحاولة تسهيل مهمة الحاج أمين في مشروعه هذا[١٨]. وربما كان هدف الجنرالات الانجليز من محاولة



□ المصلون في المسجد الاقصى ومسجد الصخرة بعد تجديدها.

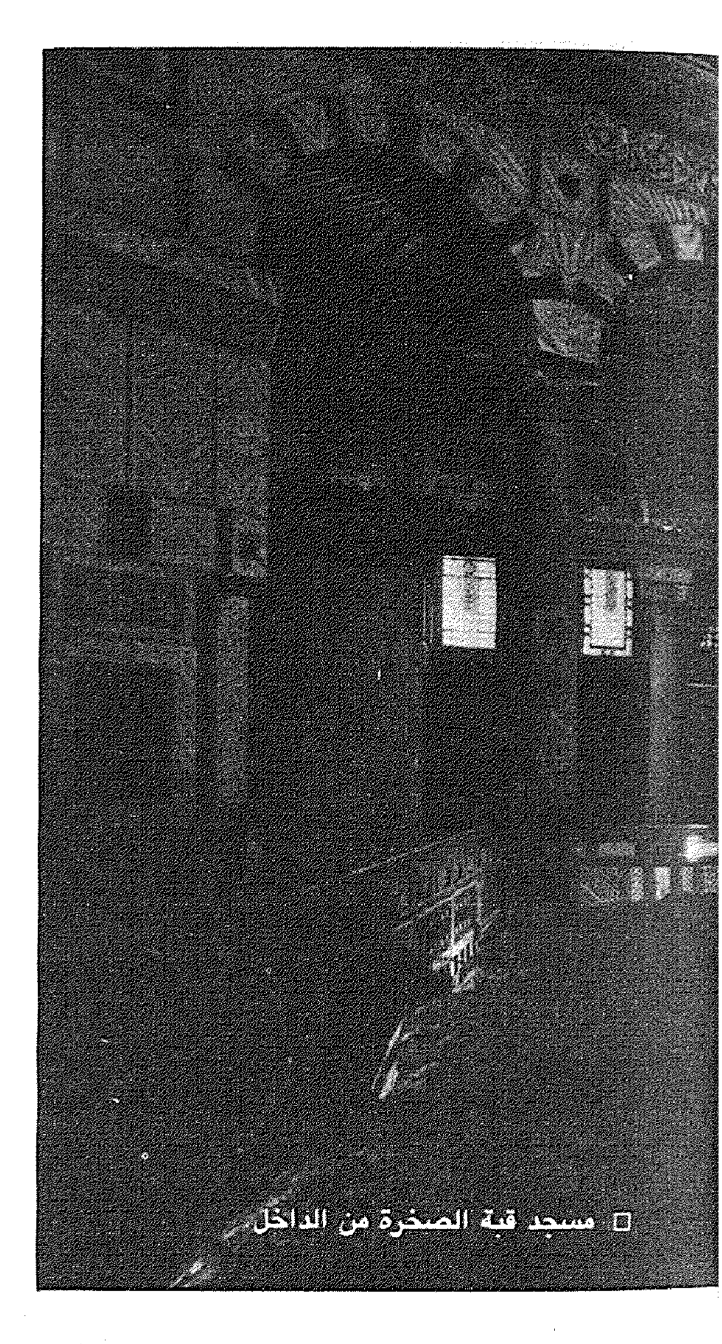
مساعدة الحاج أمين الحسيني، (إذا كان هذا صحيحاً) نشر الدعاية في الهند ومصر عن اهتمام الانجليز بالحفاظ على المقدسات الاسلامية وتعميرها. علماً أن التاريخ أثبت عكس ذلك وبدعاية الانجليز هذه تزداد قبضتهم على المسلمين في الهند ومصر وكافة العالم الاسلامي الذي يرزح تحت الحكم الانجليزي.

أما عن الوفد الفلسطيني إلى الهند فكان مكوناً من الشيخ محمد مراد والشيخ ابراهيم الأنصاري وجمال الحسيني عضو اللجنة التنفيذية. ولكن المندوب السامي صموئيل اعترض على تشكيل هذا الوفد وذلك بسبب وجود جمال الحسيني في الوفد، علماً أن الحاج أمين هو الذي عين جمال الحسيني ليكون عضواً في الوفد الذاهب للهند. وقد ذكر صموئيل أن هذا التعيين هو ضد سياسة الانجليز في فلسطين وخطر عليها[١٩] وكان قد طلب صموئيل من الحاج أمين عدم تعيين جمال الحسيني كعضو في وفد الهند، ولكن المفتي أجاب صموئيل في ١٩٢٣/٩/٢٠م بأن «الوفد سيكون عمله جمع الأموال فقط ولن يتدخل في الأمور السياسية»[٢٠]. وبدأ صموئيل يضع العراقيل امام جمال الحسيني فبعث برسالة إلى وزارة المستعمرات البريطانية بتاريخ ١٩٢٣/٩/١م ناصحاً المسؤولين هناك بالاعتراض على ذهاب جمال الحسيني للهند أو مرافقته الوفد لأنه خطر على السياسة الانجليزية، وخاف صموئيل أن يؤلب جمال الحسيني بنشاطه كل مسلمي الهند على الثورة ضد الانجليز وكذلك لا يريد صموئيل أن يعلم المسلمون في الهند عن فلسطين أي شيء، لذلك طلب صموئيل ايقاف جمال الحسيني ومنعه الاشتراك مع الوفد الفلسطيني[٢١] ولكن الحاج أمين بقي مصمما على ضرورة وجود جمال كعضو في الوفد. ولكي يُقنع صموئيل قام المفتي



وطلب من اعضاء الوفد التوقيع على عدم التدخل في الشؤون السياسية، وقد وقعها الأعضاء وقدمها الحاج أمين لصموئيل وأضاف المفتي لها وثيقة أخرى وهي ضمانه الشخصي والأكيد بأن الأعضاء في الوفد لن يتدخلوا في الأمور السياسية[٢٢]. سافر الوفد للهند ومعه جمال الحسيني، وقام الوفد بنشاط جيد لجمع الأموال لمشروع إعمار وحماية الأماكن المقدسة من التلف، وقد تبرع نظام حيدر أباد بمبلغ ١٠٠,٠٠٠ لاخ أي بقيمة ٦٧٧١ جنيه[٢٣]. وطلب منه الوفد أن يرسل هذا المبلغ بالطريقة التي يجدها مناسبة إلى المجلس الاسلامي الأعلى.

وهناك وفد آخر ذهب للهند ماراً بسوريا والعراق والكويت، وترأس هذا الوفد المفتي نفسه[٢٤]. وواجه الحاج أمين صعوبة في الحصول على (فيزا = تأشيرة) للعراق من السلطات الفرنسية عندما كان في سوريا[٢٥]. واستطاع الاستفادة من رحلته هذه للهند أن بنى صداقة دائمة مع زعماء الهند المسلمين. ولكن من انزعج من هذه الرحلة هم أولاً: صموئيل الذي طلب من المفتي أن لا يتدخل في الأمور السياسية بل بالأمور الدينية التي تخص المشروع فقط. وثانياً: الكولونيل كيش الزعيم الصهيوني الذي كان قد بعث برسالة إلى ريتشموند بتاريخ ١٤/١٢/١٩٢٣م يخبره بها أنه يعارض



□ مسجد قبة الصخرة من الداخل

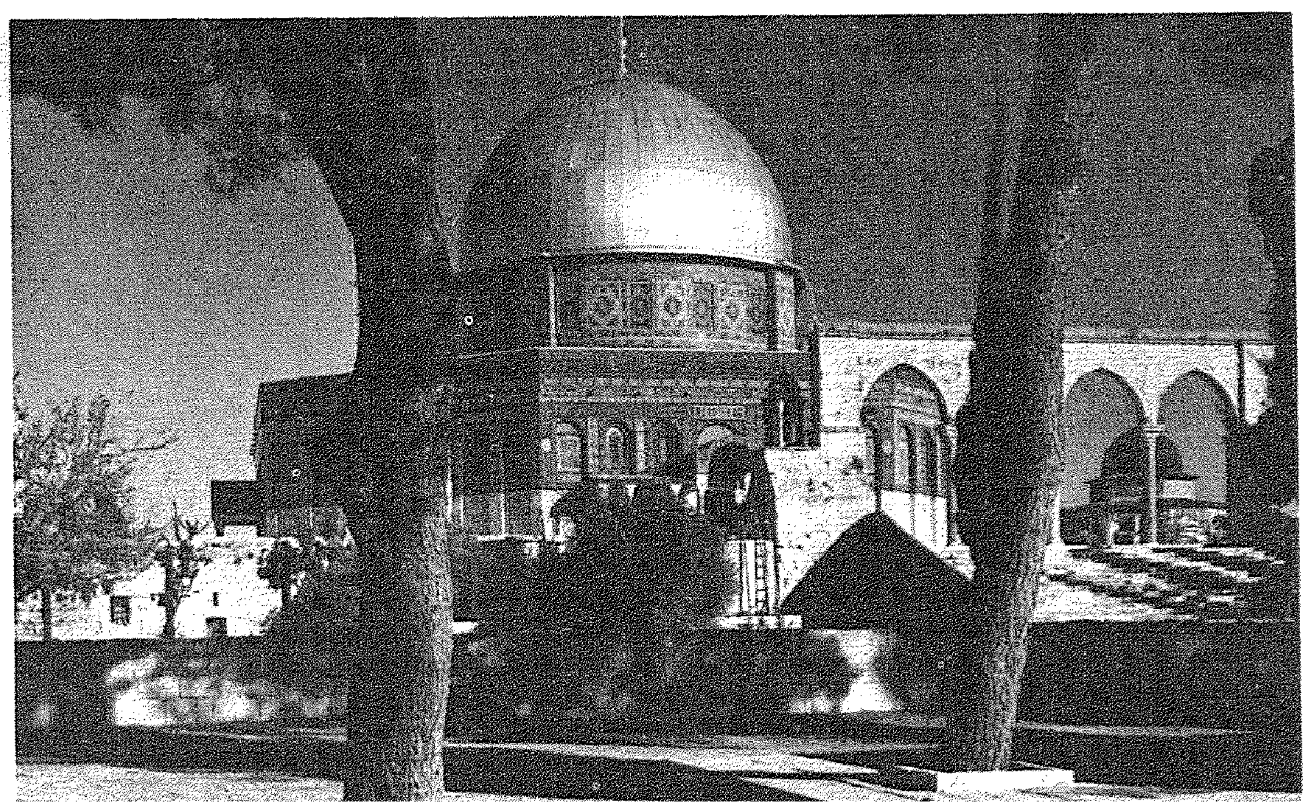
التدخلات السياسية والنشاط السياسي لوفد المجلس الاسلامي الأعلى في الهند[٢٦]. وثالثاً: المعارضون وهم من آل النشاشيبي الذين تهجموا على سياسة الحاج أمين في جمع الأموال لإعمار الحرم الشريف وكانوا يحسدونه بسبب ازدياد شهرته في العالم الاسلامي. وقالوا ان رحلته هذه فاشلة ولم يساعده في هذه الرحلة الا الشريف حسين. وأتهموه بالتصرف غير اللائق في الأمور المالية وأنتقدوه وانتقدوا اعضاء المجلس الاسلامي بسبب حصولهم على معاشات عالية[٢٧].

وكان وفد المجلس الاسلامي الأعلى للهند قد زار الشريف حسين في الحجاز وتبرع الشريف للوفد بمبلغ ١٢,٠٠٠ جنيه، ثم سلم الشريف للوفد ٥٠٠٠ جنيه كان قد تبرع بها الشعب في الحجاز لمشروع إعمار الحرم الشريف[٢٨]. وكان الوفد الاسلامي الأعلى قد سلم الشريف حسين هدية ثمينة، ثم أيدوه ليصبح خليفة المسلمين. وهناك طرق أخرى اتبعها الحاج أمين للحصول على الأموال لدعم مشروعه، عدا عن جمع الأموال من الدول الاسلامية بواسطة الوفود، حيث طلب من الحكومة رسميا في ١٩٢٤/٤/١٧م في رسالة منه الى السكرتير العام في القدس أن توافق الحكومة على فرض دفع ضريبة على كل وثيقة توقعها المحاكم الشرعية، وأن تدفع هذه الأموال إلى لجنة اعمار المسجد الأقصى[٢٩].

اعتقد الحاج أمين أن الفلوس التي جمعها من العالم الاسلامي وكذلك رصيد ميزانية الأوقاف، كل ذلك يكفي لتحقيق مشروع الاعمار. لذلك بدأ المفتي في مشروع آخر هو بناء «فندق الأوقاف» في شارع مأمن الله في القدس، وقد خصص دخل هذا الفندق لدعم مشروع اعمار المسجد الأقصى. وكان الفندق مؤلفا من ١٣٦ غرفة. وكان يظن المفتي ان دخل الفندق سيكون حوالي ٦٠٠٠ جنيه سنويا[٣٠]. وكان تفكير المفتي من ناحية تجارية في بناء الفندق، وتأكيدا لكلامنا هذا بنى الحاج أمين مخازن (حوانيت) في الطابق الأرضي ثم أقام عليها بناء الفندق، وخصص دخل هذه الحوانيت لمشروع اعمار المسجد الأقصى، وظن أن كل هذا الدخل سيكون دخلا جيدا[٣١].

أخطأ المفتي في تقدير حساباته كما كتب دروزة، لأنه صرف حوالي ٧٠,٠٠٠ جنيه لبناء هذا الفندق[٣٢]. واحتاج لجمع هذا المبلغ بأنه استدان ٣٠,٠٠٠ جنيه من البنك العثماني و١٢,٠٠٠ جنيه من خزينة الأوقاف. لذلك واجه المفتي مشكلة مالية بسبب مشروع بناء الفندق.

استمر اعمار الحرم الشريف خمس سنوات، ودعا المفتي كثيرا من الشخصيات الاسلامية في العالم الاسلامي وكذلك بعض الانجليز لحضور حفل الافتتاح (التدشين) الذي تم في ١٩٢٨/٨/٣٠م. وألقى الحاج أمين وريتشموند وهاري لوك خطبا في حفل التدشين (الافتتاح). ذكر المفتي في خطابه وأسهب عن المشروع، وشكر كل الذين قدموا المساعدة المادية وخاصة



□ قبة الصخرة في القدس.

الملك حسين (شريف مكة) الذي تبرع أكثر من اي شخص للمشروع[٣٣]. وبلغت جميع التبرعات ٩٤,٩٥٢ جنيه[٣٤] ثم استمرت تتدفق التبرعات حتى بعد نهاية المشروع. وعن التبرعات ومقدارها كتب المؤرخ الفلسطيني عارف العارف في كتابه «الصخرة المشرفة» أسماء المتبرعين والمبلغ الذي تبرعوا به للمشروع وهم:

	جنيه
الملك حسين وشعب الحجاز	٣٨,٧٦١
المجلس الاسلامي الأعلى	١٦,٤٧٨
الملك فاروق وشعب مصر	١٠,٣٠٧
الهند	٩,٢٠٧
طاهر سيف الدين ـــ الهند	٧,٨١٢
نظام حيدر آباد ـــ الهند	٦,٧٧١
الملك فيصل وشعب العراق	٦,٢٠٧
فلسطين	٤,٢٣٢
البحرين	٢,٦٨٢
الكويت	١,٣٦٣
محمرة	٠,٦١٣
سوريا	٠,٣٣٩
الفلسطينيون في الولايات المتحدة	٠,١٦٤
تركيا	٠,٠٢٠

تمّ مشروع الاعمار في عام ١٩٢٨م، ولكن حصل زلزال في فلسطين بتاريخ ١١/٧/١٩٢٧م ولكنه لم يؤثر كثيرا على البناء، بل كان خفيفا كما صرح بذلك رشدي الامام الحسيني[٣٥]. وقد تم اصلاح آثار الزلزال عام ١٩٣٦م.

هذا وقد أسس المفتي في ساحة الحرم الشريف متحفا اسلاميا ومكتبة اسلامية، وشكل في عام ١٩٣٥ لجنة اسلامية للحفريات. ●

هوامش

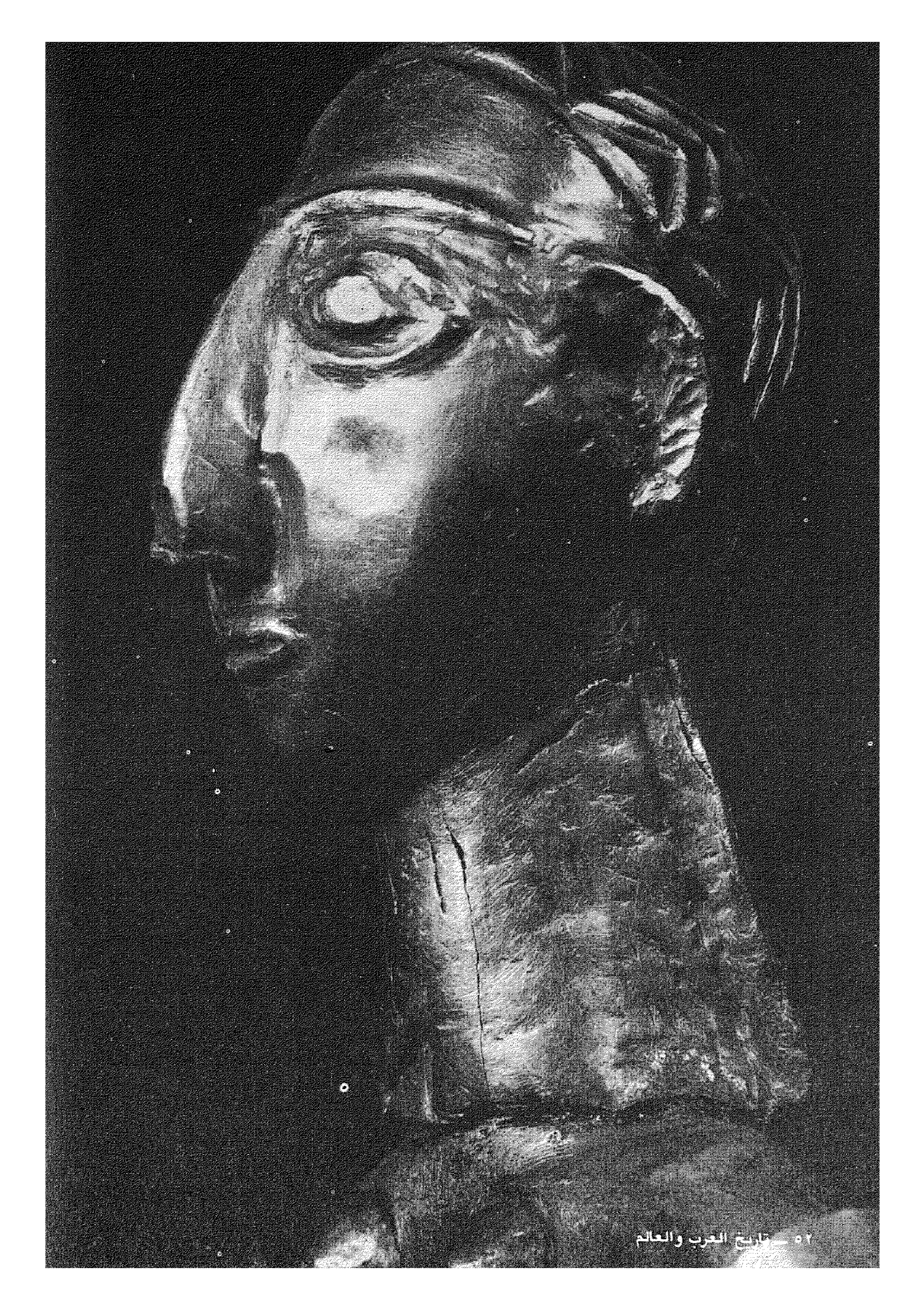
(١) Vincent Sheean: Personal History. Doubleday, Doran and Co., Inc., Garden City, N.Y. 1934. p. 46-8. See also; Ronald Storrs: Orientations, p. 326.

(٢) نفس المصدر Ibid.

(٣) عارف العارف: الصخرة المشرفة والأماكن الاسلامية الأخرى في الحرم الشريف في القدس. المطبعة التجارية، القدس، ١٩٥١، صفحة ٢٢ (الكتاب باللغة الانجليزية). وانظر أيضاً:
Harry Luke: The Handbook of Palestine and Transjordan. MacMillan and Co., Ltd., London, 1934, p. 34, 117-119, See also: Ernest Richmond: The Dome of the Rock, Clarendon Press, Oxford, 1924.

(٤) نفس المصدر، صفحة ٤٦.
(٥) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية. ملف رقم CO733-56، انظر أيضاً أرشيف الوكالة اليهودية ملف رقم ١٨٤.
(٦) أرشيف الوكالة اليهودية، ملف رقم ١٨٤.
(٧) نفس المصدر، انظر كذلك ارشيف وزارة المستعمرات البريطانية ملف رقم CO733/56.
(٨) ارشيف وزارة المستعمرات ملف رقم CO733/62. رسالة من صموئيل إلى تشكبيرغ تاريخ ١٩/٧/١٩٢٣م موضوعها «إعمار الحرم الشريف».
(٩) بيان المجلس الاسلامي الأعلى عن عمارة قبة الصخرة المشرفة. أرشيف مكتبة المسجد الأقصى، صفحة ٤ أنظر ايضاً عارف العارف: قبة الصخرة المشرفة. صفحة ٨٦، كمال الدين كان يعمل مهندساً في جامعة اسطنبول. انظر ايضاً مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين. الجزء العاشر، صفحة ٢٧٥.
(١٠) ارشيف وزارة المستعمرات البريطانية. ملف رقم CO733/62. رسالة من صموئيل إلى شكبيرغ بتاريخ ١٩/٧/١٩٢٣م.
(١١) جريدة فلسطين عدد رقم ١٠/٤٦٩ بتاريخ ٤/٤/١٩٢٢م.
(١٢) اوراق تيجارت الخاصة، محفوظة في جامعة سانت انطوني في اوكسفورد. صندوق رقم ١ ملف ١٣.
(١٣) ارشيف وزارة المستعمرات البريطانية. ملف رقم CO733/73. من صموئيل إلى سكرتير الدولة في ٩/١١/١٩٢٤م.
(١٤) نفس المصدر. ملف رقم CO733/43. رسالة من صموئيل إلى سكرتير الدولة بتاريخ ٩/٣/١٩٢٣م.
(١٥) ارشيف الوكالة اليهودية ملف رقم ١٨٤.
(١٦) اوراق تيجارت الخاصة محفوظة في جامعة سانت انطوني في اوكسفورد.
(١٧) أرشيف الوكالة اليهودية، ملف رقم ١٨٤.
(١٨) نفس المصدر. ربما تكون هذه الوثائق غير صحيحة في الأرشيف اليهودي. ترقبوا كتابي «الوثائق الفلسطينية في الأرشيف اليهودي».
(١٩) ملف وزارة المستعمرات رقم CO733/56. وثيقة بعنوان «الوفد الاسلامي للهند لجمع الأموال للحرم الشريف». الوثيقة مؤرخة في ٢/١٠/١٩٢٣م.
(٢٠) نفس المصدر. برقية من حاكم الهند الانجليزي الى وزارة المستعمرات بتاريخ ٥/١٠/١٩٢٣م.
(٢١) نفس المصدر.
(٢٢) أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية ملف رقم CO733/56. برقية من حاكم الهند الانجليزي إلى وزارة المستعمرات بتاريخ ٥/١٠/١٩٢٣م.
(٢٣) نفس المصدر ملف رقم CO733/81. التقرير السياسي لشهر سبتمبر عام ١٩٢٤م.
(٢٤) نفس المصدر ملف رقم CO733/67. التقرير السياسي لشهر ابريل ١٨/٤/١٩٢٤م.
(٢٥) نفس المصدر ملف رقم CO733/68.
(٢٦) F.H. Kisch: Palestine Diary. Victor Gollanos Ltd., London, 1938, p. 87.
«كان كيش رئيس المنظمة الصهيونية في فلسطين من عام ١٩٢٣ ــ ١٩٣١».
(٢٧) جريدة مرآة الشرق عدد رقم ٣٤٦ بتاريخ ٢٤/٩/١٩٢٤م. ناطقة باسم المعارضين.
(٢٨) جريدة الكرمل، عدد ٩٣٤ تايخ ١٢/٩/١٩٢٣م.
(٢٩) مقابلة مع الشيخ عبد الحميد السائح بتاريخ ١٨/٧/١٩٨٠م في عمان.
(٣٠) دروزة: تسعون عاما في الحياة. صفحة ١٢٢، انظر ايضا ارشيف مكتبة المسجد الاقصى «بيان المجلس الاسلامي الأعلى» صفحة ٨.
(٣١) نفس المصدر.
(٣٢) نفس المصدر. قابل مفتي القدس ومفتي حيفا والدجاني، المستر أمري (السكرتير البريطاني لوزارة الخارجية في ١/٥/١٩٢٥م وشكروه على زيارته للحرم الشريف، وطلب الحاج أمين من آمري تشكيل دولة فلسطين المستقلة وان يعامل العرب في الحقوق والعدالة كما يعامل الانجليز اليهود. فأجابهم آمري «لا يوجد هناك أية نية فيما يخص الانجليز عن هذا البلد بتحطيم العرب أو اللغة او الاقتصاد لمصلحة اليهود، ولا توجد أية نية لخلق وطن قومي لليهود على حساب سكان فلسطين ولا يوجد عندي أي شك أن المسلمين سيبقوا دائماً هم الاكثرية في هذا البلد».
انظر ارشيف وزارة المستعمرات البريطانية ملف رقم CO733/102 تاريخ ١٩٢٥. مقابلة مع المفتين.
(٣٣) ارشيف وزارة المستعمرات البريطانية. ملف رقم CO733/160/112 وثيقة رقم ٥٧٥٢٧ من هاري لوك إلى سكرتير الدولة البريطانية المستر آمري رقم الرسالة ٨٧٥ بتاريخ ٣٠/٨/١٩٢٨م.
(٣٤) جريدة الجامعة العربية بتاريخ ٣٠/٨/١٩٢٨م.
(٣٥) جريدة الجامعة العربية عدد رقم ٥١ بتاريخ ٢١/٦/١٩٢٧م.





ثمة حدث عالمي: في توبكابي، وقصور البوسفور، تعرض حتى الثلاثين من تشرين الأول، معروضات رائعة، تتناول حقبة زمنية كبيرة جداً، إذ تبدأ بالعهد الحثي، وتنتهي بآخر سلاطين عثمان. إنه وارث عظيم وأساسي.

□ كانت المرأة في العهد البرونزي نموذج الفن والدين هاتان المرأتان نموذجان على فن تلك المرحلة. الأولى: تمثال من الفضة. الثانية تمثال فخاري.



عشرة آلاف سنة من الحضارة تعرض في إسطنبول

إنعام الجندي

كان اليونان يسمون تركيا: «البلاد التي تشرق منها الشمس». إنها هضبة ضخمة، أكثر اتساعا من فرنسا. وعالم مستقل بذاته، من موانىء بحر إيجه المتألقة بالضياء إلى الجبال العالية الرطبة في المناطق الشرقية، مرورا بالبوادي، والبحيرات الداخلية في الوسط، حيث الكابادوس «ودروب الجنيات».. الأناضول: إنه مسرح العالم حيث تختلط حضارات شعوب، وتتعاقب وتتناقض أو تتلاقى، أزمان طويلة.

في قلب الأناضول نشأت المدينة.

بدأ كل ذلك في العصر الحجري، حين اكتشف الانسان زراعة النباتات، وتدجين الحيوانات. مضت تسعة آلاف سنة على ظهور أول مجمع سكني ببيوته المبنية بالقرميد، على بعد كيلومترات إلى الجنوب من قونية، حيث تقوم اليوم ساتال هويوك. كانت مجمعاً لا شوارع له. يعبر المرء فيه من سطح إلى سطح، وينزل من السطح إلى قلب البيت. وكان ناس ذلك المجمع يقدسون القوى الخصبة: الثور، أو إلهة البحر التي تهيمن على الأرض، والنبات، والحيوانات البرية.

الألف الرابع منعصرنا: يبدأ العهد البرونزي في الأناضول، وهذه مدينة طروادة حيث كنز بريام الأسطوري الذي اكتشفه شليمان. طروادة، المركز المتقدم لصناعة المعادن التي تنقل إلى أوروبا، حيث يسعى الطرواديون للحصول على القصدير الذي نضب لديهم، راحوا يسوقون البرونز إلى سوريا، في الألف الثالث، قبل أن يعلموه أهل البقان، ومن هناك انتقل إلى أوروبا

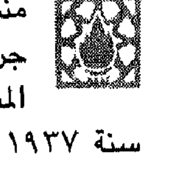


□ عهد طروادة: أيل؛ وثور من البرونز. (النصف الثاني من الألف الثالث).



عملة من القرن السابع قبل المسيح وجدت في إيفيز.

تعرض هذه الوثيقة التاريخية المأخوذة من مذكرات ايدن، للموقف البريطاني الرسمي من ثورة يوليو ١٩٥٢، وهي نظراً لصدورها عن المسؤول البريطاني الأول في شن الحرب الثلاثية على مصر عام ١٩٥٦، تشير بوضوح إلى مقدمات هذه الحرب وعواملها الكامنة في انفجار التناقض بين الاصرار البريطاني على استمرار نفوذ بريطانيا الاستعماري في مصر عبر نظام فاروق وسيطرتها على القنال ونهبها لثروات الشعب المصري، من جهة، وبين إصرار جمال عبد الناصر قائد الثورة، على تصفية ركائز الاستعمار وتحرير الشعب من قيود التبعية للاستعمار الانكليزي آنذاك. تلك هي صورة الوضع آنذاك تنقلها شهادة ينطق بها المستعمرون أنفسهم.



منذ أن انتهت الحرب العالمية الثانية، جرت عدة محاولات لاعادة النظر في المعاهدة الانجليزية المصرية المعقودة في سنة ١٩٣٧، ولكن كل هـذه المحاولات بـاءت بالفشل.

وكان الشعور العام في مصر شعورا بالاستياء نتيجة لحرب فلسطين ولتصرفـات الملك فاروق ولانتشار الرشوة والفساد في قلب حزب الوفد. ولما تحدى الدكتـور مصـدق بـريـطانيـا في سنة ١٩٥١ شجع تصرفه المصريين على التمرد. فقد حدث في اكتوبر من ذلك العام أن أعلن النحاس باشا الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، مع أنه كان باقياً ٥ سنوات لانتهائها.

وكان المتطرفون من المصريين قد بدأوا قبل ذلك موجة من الأعمال الارهابية ولا سيما في منطقة قناة السويس التي كـانت ترابـط فيها القوات البريطانية بموجب معاهدة سنة ١٩٣٦.

أزمة السودان

وكانت الحكومة المصرية قد ألغت كذلك في اكتوبر من ذلك العام الاتفاق الثنائي المعقود في سنة ١٨٩٩ بشأن السودان، وأعلنت أن فاروق أصبح «ملك مصر والسودان». لم أوافق على ذلك التصرف وقلت وقتئذ أمام مجلس العموم أن من حق الشعب السوداني أن يقرر مصيره بنفسه وأن يحدد علاقته مع كل من مصر وبريطانيا.

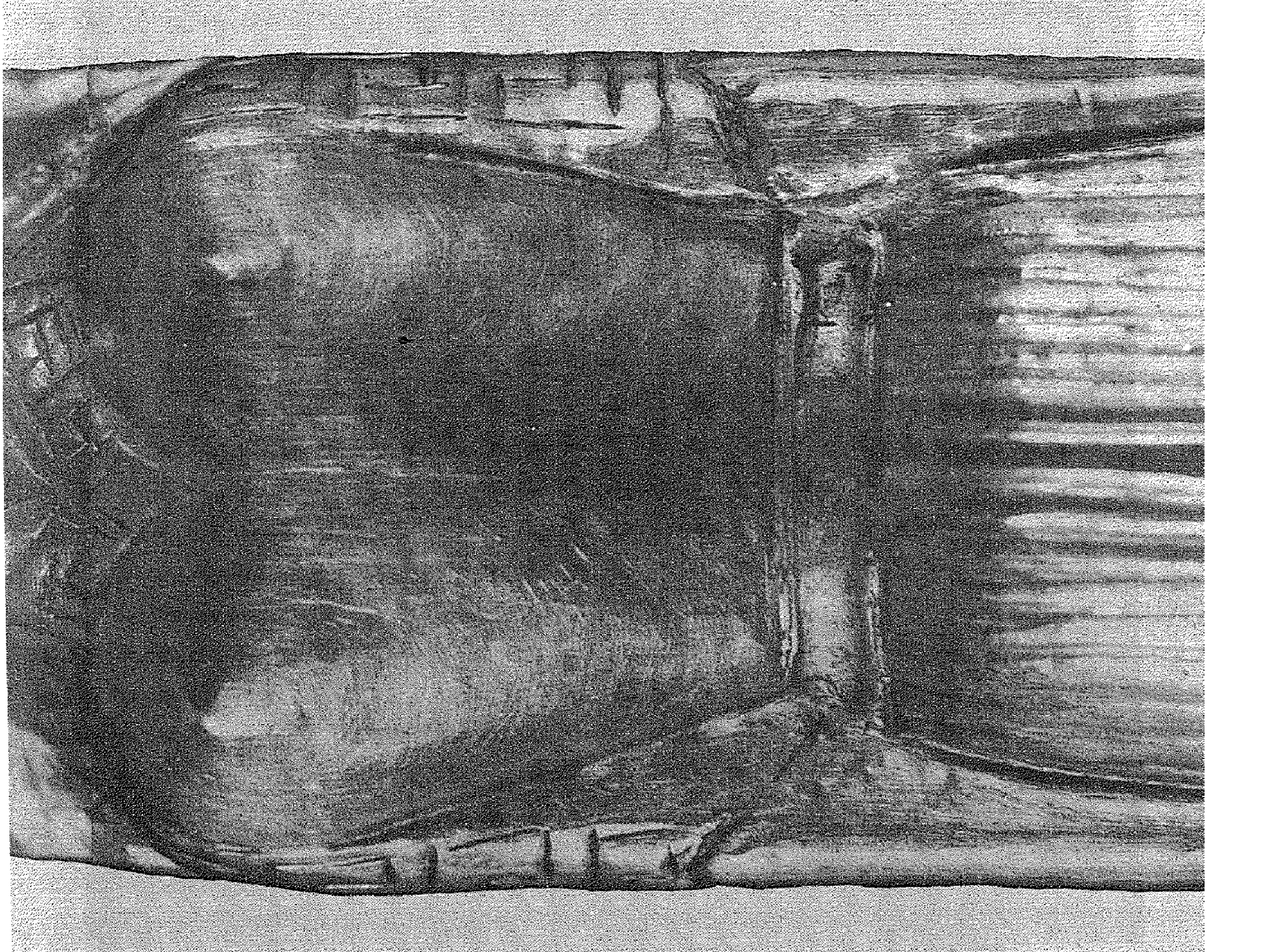
وبـالرغم من هذا الايضـاح عـاد السفـير الاميركي مرة أخرى وطلب أن تعترف بريطانيا بفاروق كملك لمصر والسودان، ولكني أوضحت له أن بريطانيا لا تستطيع أن تتخلى عن موقفها من مسألة السودان.

الغربية قبل ١٨٠٠ سنة من عصرنا.

في القرن الثالث كذلك، عبرت قبائل اناضولية إلى كريت، ليستقدم آلهتها، وبذور الحضارة الأوروبية الأولى.

القرون الأخيرة من ذلك الألف، ظهر المجتاحون الهنود الأوروبيين من الدانوب والفولغا. أحرقوا المدن القديمة. ولكنهم اندمجوا في المواطنين وكونوا الطبقة النبيلة بينهم. وعند بدء الألف التالي، بسط أحفادهم الباشرون، الحثيون سلطانهم على قسم كبير من الأناضول، ثم سوريا ومصر. بعد ثلاثة عشر قرنا كانت معركة قادش على العاصي، وقد وضعت حدا لتوسعهم.

ورث الحثيون ديانة الالهة الكبرى، كما ورثت الهلينية عن الأناضول عقيدة «الأمازونات»، المقاتلات اللاتي كان اليونانيون يحلونهن على ضفاف «ثيرمودون» عند نصبه على البحر الأسود.



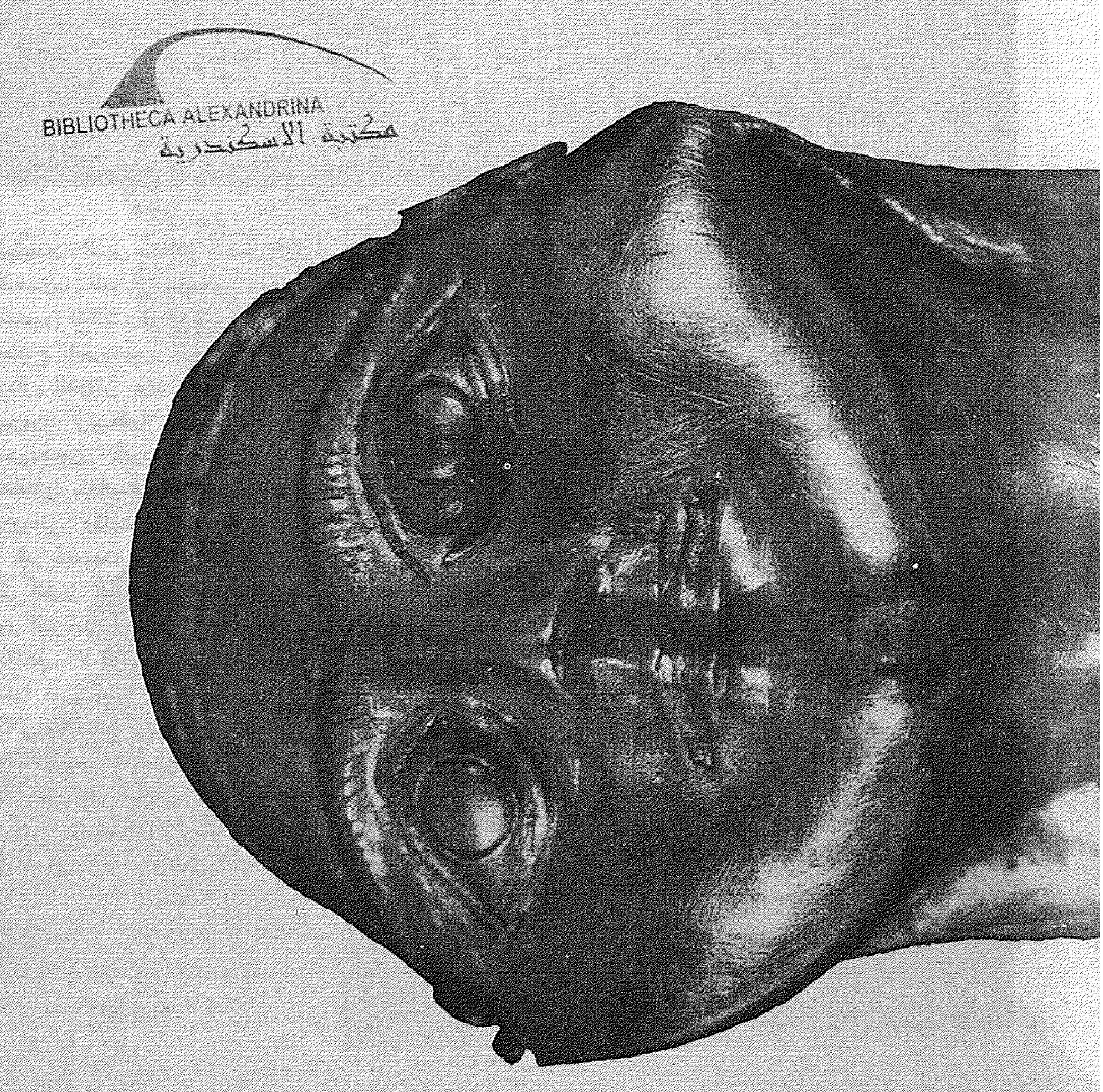
ونلقى هذه الأمازونات حتى في «إيفيز»، حيث توجد الالهة الأم الأناضولية.

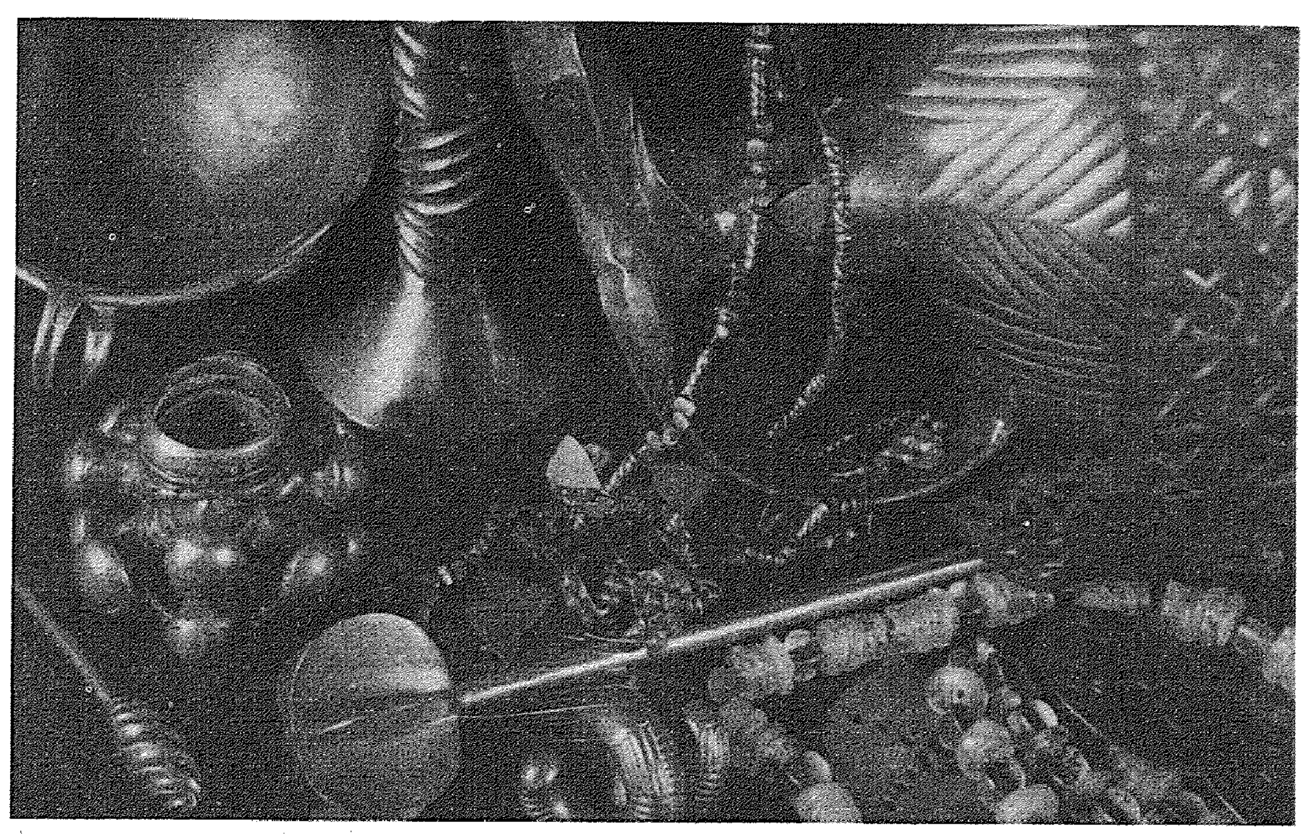
ثمة شيء غير معروف تماماً. وهو اننا ندين للحثيين بالثورة الاقتصادية الثالثة. الأولى: الزراعة، تدجين الحيوانات، الأواني الفخارية، الدولاب، المدينة. الثانية: تذويب النحاس والبرونز. الثالثة: الحديد. ففي مطلع الألف الثاني، بدأ الحثيون بالحدادة، ولكن بعد زوال سطوتهم السياسية، وتدمير عاصمتهم هاتوزا، بدأ عصر الحديد الحقيقي في الشرق. في قبر توت عنخ آمون (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) خنجر شفرته من الحديد. وكان هدية من ملك الحثيين إلى فرعون مصر.

نحو العام ١٢٠٠ قبل عصرنا، انهار الحثيون تحت ضربات برابرة شمال الأناضول. ثم حدثت هجمات شعوب أخرى كالهنود الأوروبيين، المتحالفين مع

□ تمثال امرأة من القرن السابع قبل الميلاد. لم يعرض من قبل.

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية



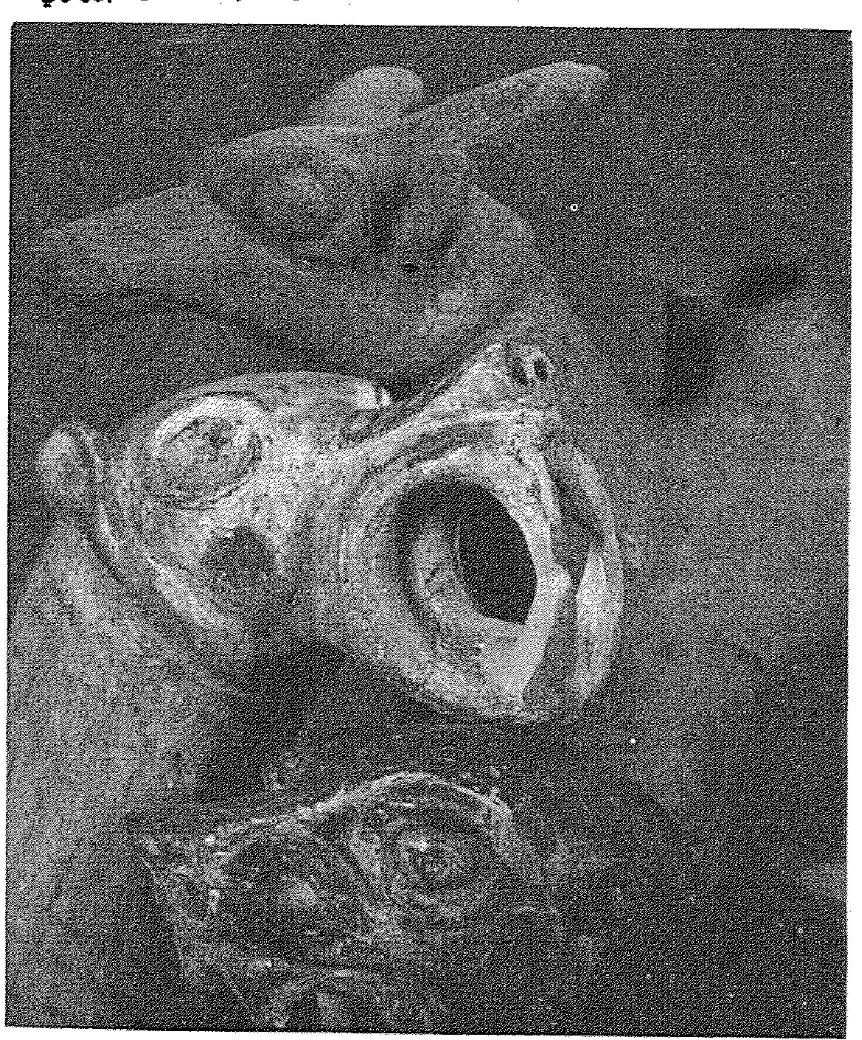


□ كنز الاكاهويوك يعود إلى العصر البرونزي.

الميثينيين، الذين سماهم المصريون «شعوب البحر» وقضى عليهم رمسيس الثالث، في الدلتا. ثم كان اجتياح الفريجيين، القادمين من شمال القوقاز. وقد أقاموا ثلاثة قرون، وجعلوا عاصمتهم غورديون، غرب أنقرة. وقد احتفظوا بتقاليدهم حتى في العهد الروماني. وكانت إلهتهم كيبيل.

ثم خضعت الأناضول للفرس قبل القرن الحادي عشر. ثم جاء دور اليونانيين، الذين اقاموا حول سواحل الأناضول وبحر ايجة، وبنوا مدن ميلي، وإزمير، وتيوس، وكلازومين، الخ.. ثم كان احتلال الاسكندر الكبير الذي ضم الأناضول إلى اليونان.

وجاء العهد الروماني فأصبحت الأناضول رومية. وانتقل إليها، في



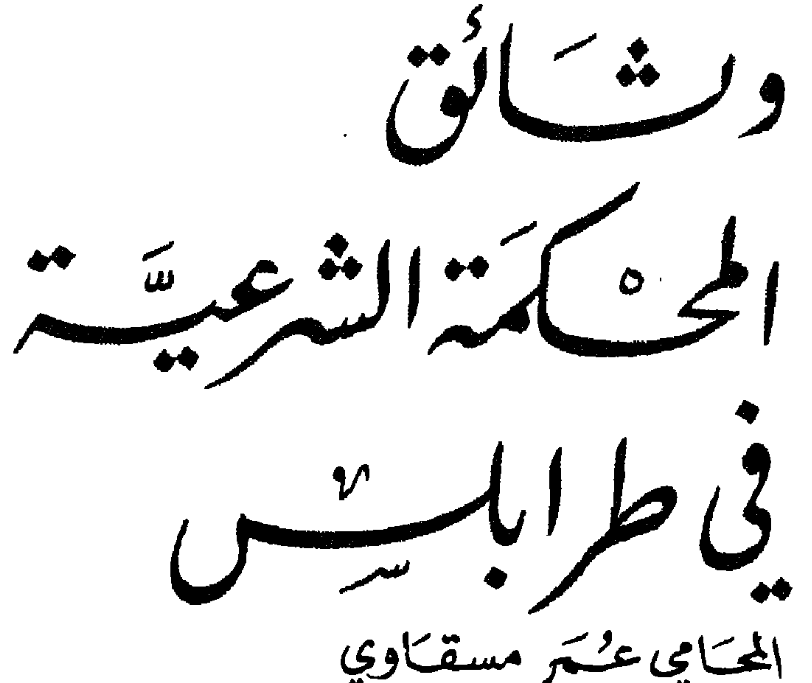
□ أوان من القرن التاسع عشر قبل عصرنا. يرى فيها اثر بلاد ما بين النهرين، وهي تمثل: أسداً وغزالاً وكلباً.

فترة من الفترات، عدد من الفلاسفة: تاليس، أناكسيمين، أناكسيمندر.

وواجهت الأناضول بعد ذلك الاحتلال العربي، عدا القسطنطينية، حتى جاء محمد الفاتح فدك أسوارها، واحتلها وأقام فيها الحكم العثماني. ●

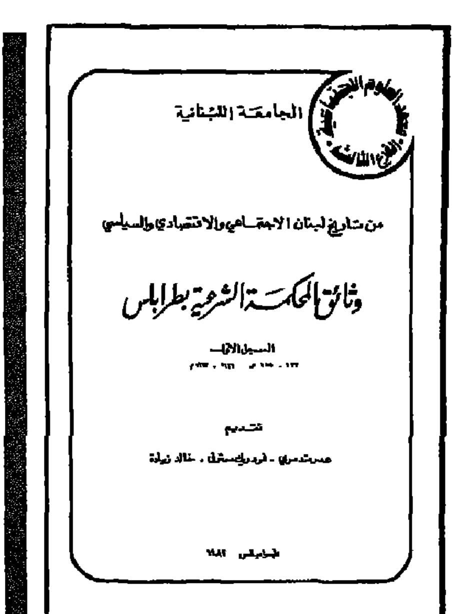
□ رياضي شاب، من المرمر، وجد في مدينة ايدين (متحف اسطنبول).





وثائق المحكمة الشرعية في طرابلس

المحامي عمر مسقاوي





قبل أن تكون الجامعة مرسوما تصدره الدولة، أو بناء تأوي إلى ارجائه نشاطاتها هي اتجاه وروح معا.

لقد قيل في الجامعة أنها كلمة المستقبل وطريقه. ولكي تكون كذلك لابد أن تتوفر فيها أصالة الانتماء إلى تراث المجتمع والرؤية المتحررة من قوالب الحاضر ومعطياته السياسية والسلطوية.

فالدولة تمنح الجامعة اعترافا بمهماتها لكنها لا تستطيع احتواءها وهي إذا فعلت تحول بين الوطن ومستقبل الثقافة فيه.

الجامعة في مفهومها الحضاري نظرة واعية تتأصل بالبحث لكنها تتجذر في أعماق المسيرة الاجتماعية: في التراث وما أعطى. والثقافة وما تركت من قسمات على صفحة الزمن. والعبقرية وما أنجزت في خطى الحضارة. والصلات الاجتماعية وما ترابط بينها من وشائج وما تعارف بينها من عادات وتقاليد.

تلك حصيلة التاريخ وذكريات المجتمع المشتركة تحتويها الجامعة في فروع اختصاصاتها تمنح الأجيال من صلابة المرتقى ثبات الأقدام ومن مدارج الثقافة وضوح الآفاق وتتّقي بها في منعطف الأحداث كل ارتباك.

وإذا كانت الجامعة اتجاها وروحا فإن وعي الروّاد والعاملين فيها كفيل بوضع هذه المؤسسة على الطريق الصحيح في خدمة الأجيال. وهذا الوعي يستمد أساسه من مصداقية الأساتذة نحو العلم والحقيقة. يعطون بمثل ما أخذوا بغير حساب للزمن وللمستقبل القريب.

في طرابلس بادرة جديرة بالتنويه أعادتنا إلى مذاق العلم في انتمائه العميق لتراث المجتمع الذي يعمل فيه وينمو.

وهي تضيء في ظلمة ما يحيط بنا بوارق أمل طالما خبت طلائعه في زحمة التهافت الذي تروج بضاعته هنا وهناك.

فحين كانت الطائرات الاسرائيلية تضرب بيروت وتجتاح الجنوب والجبل وتهدد المدن الأخرى بالخراب كان ثمة هاجس أقلق ثلاثة من شباننا معنيين بمعهد العلوم الاجتماعية وكلية الآداب والعلوم الانسانية ـــ الفرع الثالث من الجامعة اللبنانية في طرابلس.

أما أولهما فمدير فرع العلوم الاجتماعية، الدكتور فريدريك معتوق.

وأما الثاني والثالث فهما الدكتور عمر عبد السلام التدمري الأستاذ بكلية الآداب والدكتور خالد زيادة الأستاذ بمعهد العلوم.

ولمتتبّع المكتبة اللبنانية الحديثة أن يعرف هؤلاء الشباب من خلال انتاجهم. فالدكتور تدمرى أخرج في بواكير نشاطه العلمي العديد من الكتب التراثية في تاريخ طرابلس على الخصوص وأضاف إلى مكتبتنا مزيدا من التعرف على تاريخنا الثقافي والحضاري. والدكتور خالد زيادة استهواه القرن التاسع عشر والثامن عشر قبله فرصد ناشئة الاتصال الغربي بالشرق وحقق الكثير من الرسائل والمؤلفات التي كتبها معاصرون لتلك الحقبة تجهلهم الجلة من الدارسين.

اما الدكتور فريدريك معتوق فنحن نعلم ما أنجز من جهود في إطار علم الاجتماع.

أسرع الفرسان الثلاثة إلى أرشيف المحكمة الشرعية في طرابلس يجمعون أحكامها ووثائقها وهي وثائق تعود إلى عام ١٠٧٧ هجرية ١٦٦٦ ميلادية.

كان العمل من أجل معهد العلوم الاجتماعية وكلية الاداب والعلوم الانسانية في الجامعة اللبنانية ومن أجل الحركة الثقافية في مدينة طرابلس. وفي هيمنة القلق والهلع كان ثمة متأملون متوفرون بصبر وأناة على لملمة شتات صحائف المحكمة الشرعية وما سجلت من علاقات المجتمع الطرابلسي في ذلك الزمن البعيد.

لم يحملوا في أيديهم وهم في غمرة هذا الاستغراق المضني ساعة يقيسون بها جهدهم وما عملوا لأنهم لم يضعوا نشاطهم في سوق العمل، فنشاطهم اتخذ بُعْدا أوسع من آفاقهم لقد وضعوه في مستوى المخاطر التي دقت بابنا لكن في مستواها الأعمق والأبعد عن ذلك الخوف

الغريزي الذي تسورنا جميعا في الصيف الماضي.

فمن كان يفكر في معترك المخاطرات بتراث ملقى في احدى حجرات المحكمة الشرعية أو في زاوية من زوايا مؤسسة تمتد في عميق التراث؟

إن الذين فكروا في هذا التراث هم الجديرون بالخوف لأنه قلق حضاري. وهو شأن النخبة دائما. بل شأن المؤسسات.

لقد كان هؤلاء الشباب يفكرون، ويخافون، ويبادرون، ويشحذ عزيمتهم تشجيع، من أدركوا جلال المهمة وقد عبر هؤلاء الشباب عن شكرهم لهم في مقدمة السجل الأول الذي أخرجوه.

فقد وفر معهد العلوم الاجتماعية، فرع الجامعة اللبنانية بعض ميزانية البحث العلمي ليخرج السجل الأول الذي تم تصويره بكامله من أرشيف المحكمة الشرعية.

وهذا السجل حصيلة عام من الأحكام والوثائق الشرعية التي تعود إلى عام: ١٠٧٧ — ١٠٧٨ هجرية الموافق ١٦٦٦ — ١٦٦٧ ميلادية.

إنه السجل الأقدم في سجلات المحكمة الشرعية وتقول المقدمة التي وضعها الأساتذة الثلاثة الدكتور تدمري ومعتوق وزيادة:

«فالعاصفة أصابت سجلات طرابلس على السواء سنة ١٩٧٦، إبّان الأحداث المعروفة، ففقد ما فقد من السجلات هنا وهناك، وإذا كان حسن الحظ قد حمى سجلات محكمة طرابلس من كارثة حقيقية، فقد بدا جليا لبعض المهتمين أن الاعتماد على الحظ وحده لم يعد جائزا، فعادت فكرة حفظ السجلات تراود الأذهان مرة أخرى، إلا أن الموانع القديمة حالت مجددا دون التنفيذ».

ثم تستطرد المقدمة فتقول:

«وواقع الأمر، أن الفرصة الوحيدة التي كانت متاحة في ذلك الصيف الرهيب، الذي شهد الغزو الاسرائيلي للبنان، هي تصوير السجلات نسخا متعددة تحفظ في أماكن مختلفة. على أن يكون ذلك هو المهمة الضرورية العاجلة التي تسمح

على الأثر، بعمل دؤوب لفهرسة ما تتضمنه من مواد، وتوضع بعد ذلك في تصرف الدارسين والباحثين، السجلات والفهارس على السواء».

ثم يقدم لنا الأساتذة تدمرى ومعتوق وزيادة كشفا بـ ٧٠ سجلا يغطي الفترة ١٦٦٦ ــ ١٨٨٣ ميلادية.

لكن هذه الفترة اعترتها فجوات ناشئة عن فقدان بعض السجلات ويعزو الباحثون فقدان هذه السجلات إلى ضعف الرقابة وبعثرة الذين توفروا على دراسة حقبات من تلك السنين.

تقول المقدمة:

«ونذكر هنا أن المجلد الذي أعطيناه رقم ٢٩ والذي يمتد عشر سنوات بين ١٢١٥ ــ ١٢٢٥ هجرية/ ١٨٠٠ ــ ١٨١٠ ميلادية ليس بالأصل، إلا أوراقاً متفرقة من سجلات مختلفة جمعناها على هذا النحو.

ويمكننا أن نقدم تفسيرا لذلك. فالفترة المذكورة تمثل، المرحلة الأولى من حكم (بربر آغا الشهير، حاكم طرابلس آنذاك ولعل بعض دارسي تلك الحقبة قد فعلوا ما فعلوا بغياب الرقابة التي لم تكن متشددة على الدوام».

وتوضح المقدمة أهمية هذه الوثائق باعتبارها المصدر الرئيسي لمواضيع نذكر منها:

ــ إعادة تخطيط المدينة عمرانيا.

ــ دراسة شاملة للمدينة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية في فترات محددة.

ــ دراسة لعلاقات طرابلس بمحيطها الريفي.

ــ دراسات خاصة بالمناطق وتطورها: (الزاوية ــ الجبة ــ المنية ــ عكار ــ الضنية).

ــ النواحي الاقتصادية: التجارة.

ــ الأوقاف.

ــ تاريخ العائلات.

وهكذا...

وهذه المواضيع تسمح للباحث كما تقول المقدمة بدراسات لم تطرق بعد. من ذلك الادارة ــ الألقاب ــ أسلوب الانشاء ــ الأسماء ــ الثقافة ــ الوظائف العامة ــ الاشراف ــ تراجم الاعلام ــ تطور أسماء الأماكن... وغيره.

والواقع أن المحاكم الشرعية كانت فيما مضى سجل الحياة اليومية للمدينة وما يحيط بها من قرى وأرياف.

إنها الفصل في الخصومات على اختلاف انواعها وفي قراراتها عقاب المجرمين، وصفحاتها مشرعة للوصايا والأوقاف يأمن بها من يخاف على ذرية ضعفاء من بعده ويؤمن بها صدقة جارية في عقبه كل من يطمع بعد الموت في مآب حميد.

إنها صورة الحياة الاجتماعية ونمط علاقاتها وجوهر ثقافاتها.

وتتساءل المقدمة: «هل ثمة تواصل في هذا التاريخ، أم أن هنالك انقطاعا».

وتجيب:

«إن وثائق المحكمة الشرعية لتسمح بحد ذاتها بطرح التساؤل من خلال رصد حركة الحياة اليومية كما تسمح تطورات النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالبحث عن الاجابة».

وتنتهي المقدمة إلى القول:

«ألا تبدو الاستمرارية مضمونة، مع ما تحتله الرابطة العائلية والعاطفة الدينية، والمكانة الاجتماعية، من قوة تأثير تسمح برؤية الماضي في الحاضر؟»

وأخيرا يطرح الباحثون هذه الأمنية:

«نتمنى أن نكون قد قدمنا، في هذه المقدمة بعض الايضاحات المفيدة للباحث، فالمهمة التي تنتظر اكتشاف تاريخ لبنان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وإعادة كتابته، مهمة شاقة لكنها تتسم بطابع الواجب الوطني، بعدما عرفته بلادنا من ويلات ودمار. وإن عملية الأعمار، بالنسبة لنا، تبدأ من هذه النقطة بالذات».

جهد في مستوى العمل الجامعي كاتجاه وروح قبل أن يكون هيكلا وتنظيما اداريا ومرسوما. وهو في الوقت نفسه يبرز الحاجة لحفظ وتعميم ما تجلس عليه مؤسسة المحكمة الشرعية والأوقاف الاسلامية من تاريخ وتراث. فهذه مهمة لن تنتظر التأخير. ●

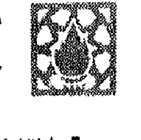
انطوني إيدن

القوّات البريطانية كانت تنوي احتلال القاهرة عقب حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢ !



□ تظاهرة في ميدان الاسماعيلية في القاهرة.

تعرض هذه الوثيقة التاريخية المأخوذة من مذكرات ايدن، للموقف البريطاني الرسمي من ثورة يوليو ١٩٥٢، وهي نظراً لصدورها عن المسؤول البريطاني الأول في شن الحرب الثلاثية على مصر عام ١٩٥٦، تشير بوضوح إلى مقدمات هذه الحرب وعواملها الكامنة في انفجار التناقض بين الاصرار البريطاني على استمرار نفوذ بريطانيا الاستعماري في مصر عبر نظام فاروق وسيطرتها على القنال ونهبها لثروات الشعب المصري، من جهة، وبين إصرار جمال عبد الناصر قائد الثورة، على تصفية ركائز الاستعمار وتحرير الشعب من قيود التبعية للاستعمار الانكليزي آنذاك. تلك هي صورة الوضع آنذاك تنقلها شهادة ينطق بها المستعمرون أنفسهم.



منذ أن انتهت الحرب العالمية الثانية، جرت عدة محاولات لاعادة النظر في المعاهدة الانجليزية المصرية المعقودة في سنة ١٩٣٧، ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل.

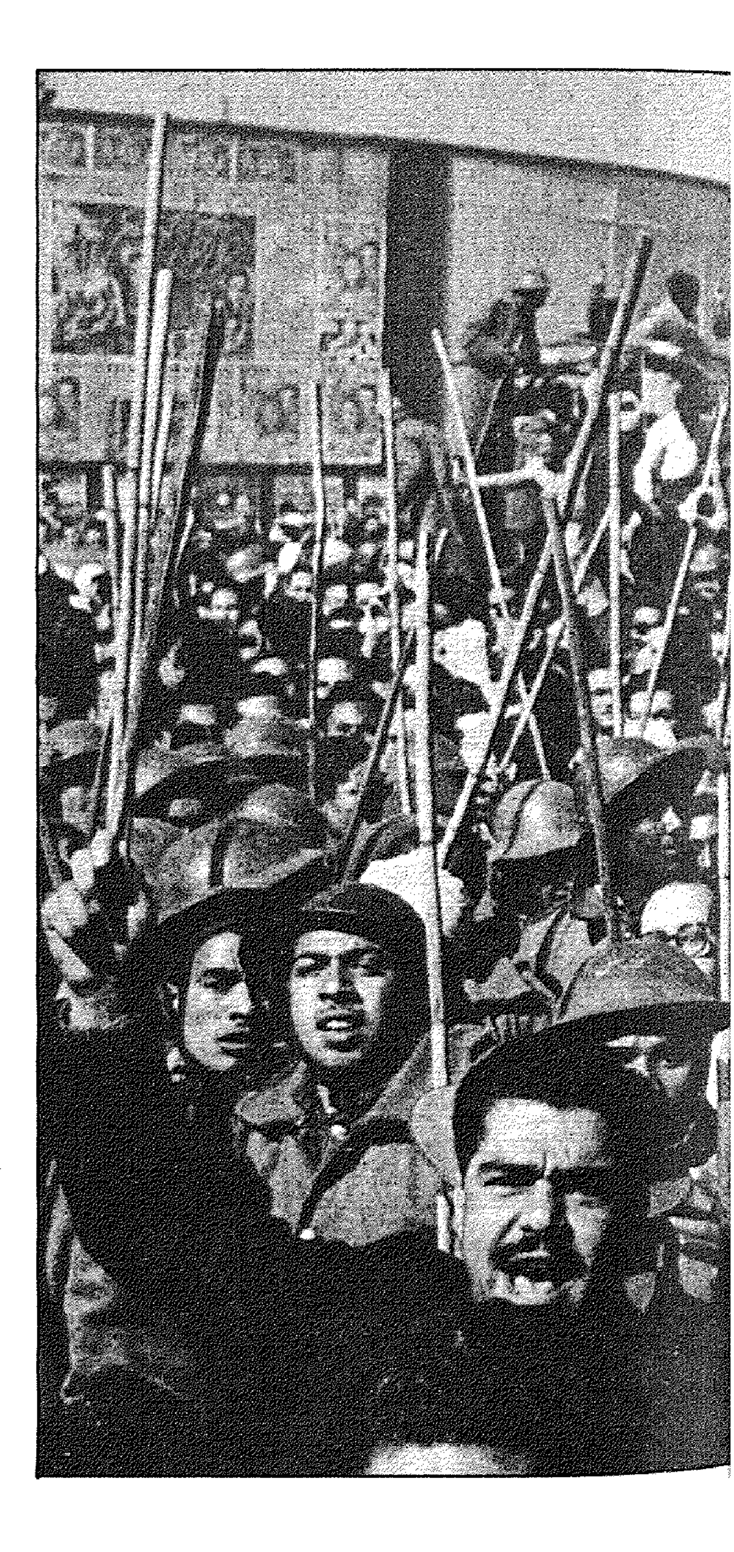
وكان الشعور العام في مصر شعورا بالاستياء نتيجة لحرب فلسطين ولتصرفات الملك فاروق ولانتشار الرشوة والفساد في قلب حزب الوفد. ولما تحدى الدكتور مصدق بريطانيا في سنة ١٩٥١ شجع تصرفه المصريين على التمرد. فقد حدث في اكتوبر من ذلك العام أن أعلن النحاس باشا الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦، مع أنه كان باقياً ٥ سنوات لانتهائها.

وكان المتطرفون من المصريين قد بدأوا قبل ذلك موجة من الأعمال الارهابية ولا سيما في منطقة قناة السويس التي كانت ترابط فيها القوات البريطانية بموجب معاهدة سنة ١٩٣٦.

أزمة السودان

وكانت الحكومة المصرية قد ألغت كذلك في اكتوبر من ذلك العام الاتفاق الثنائي المعقود في سنة ١٨٩٩ بشأن السودان، وأعلنت أن فاروق أصبح «ملك مصر والسودان». لم أوافق على ذلك التصرف وقلت وقتئذ أمام مجلس العموم أن من حق الشعب السوداني أن يقرر مصيره بنفسه وأن يحدد علاقته مع كل من مصر وبريطانيا.

وبالرغم من هذا الايضاح عاد السفير الاميركي مرة أخرى وطلب أن تعترف بريطانيا بفاروق كملك لمصر والسودان، ولكني أوضحت له أن بريطانيا لا تستطيع أن تتخلى عن موقفها من مسألة السودان.



دور باكستان

وكان المندوب السامي الباكستاني في لندن قد لفت نظري إلى خطورة الاعتراف — ولو مؤقتاً — بفاروق كملك مصر والسودان، وقال أن معنى هذا أن بريطانيا لم تعد مهتمة بأمر السودان، ومعناه أيضاً اعتراف ضمني بأن بريطانيا موافقة على أن يصبح فاروق ملكا على السودان — وهو أمر يفت في عضد السودانيين المعارضين لذلك.

وإنه لمن المؤسف ان سياسة واشنطن لم تكن على وفاق مع سياسة لندن حيال هذه المسألة. وقد أدهشني عبد الفتاح عمرو سفير مصر في لندن وقتئذ عندما صرح عقب عودته من القاهرة بأن كافري سفير أميركا في مصر يؤيد وجهة نظر مصر كل التأييد فيما يتعلق بمسألة السودان.

ومع ذلك أصررت على ضرورة التمسك بوجهة نظر الحكومة البريطانية وعملت على ايضاح وجهة النظر هذه الى الحكومة الأميركية.

حريق القاهرة

وفي أوائل عام ١٩٥٢ أصبح الموقف في منطقة القناة نوعا من الحرب العلنية بين القوات البريطانية وكتائب التحرير التي تؤيدها رسميا الحكومة المصرية. وحدث في يوم ٢٥ يناير أن مات عدد كبير من رجال البوليس المصري بالاسماعيلية بعد أن رفضوا طلب للقيادة البريطانية يقضي بأن يسلموا بنادقهم وأسلحتهم التي كانت القيادة تعتقد أنها تستخدم في الهجوم على قواتها.

وفي اليوم التالي قامت مظاهرات صاخبة في القاهرة وسرعان ما سيطر الجمهور على جزء كبير من المدينة وبدأ يشعل النيران فيه. وكان ذلك اليوم يوم سبت، وقد هجم الجمهور على الشركات والمؤسسات البريطانية ومات من رعايا بريطانيا في ذلك اليوم ١٢ شخصا.

وبينما كانت القاهرة تحترق في ذلك اليوم، كانت السفارة البريطانية ترسل التقارير تلو التقارير الى وزارة الخارجية، بينما كانت القيادة العسكرية في منطقة القناة توافي وزارة الحربية بتطورات الموقف أولاً بأول.

خطة لاحتلال العاصمتين

ووضعت الحكومة البريطانية خطة في ذلك الوقت تقضي بأن تدخل القوات البريطانية القاهرة والاسكندرية لحماية رعايا بريطانيا وممتلكاتهم هناك.

ولكن القائد البريطاني في مصر بعث يقول أنه يشك في أن تتمكن القوات الموضوعة تحت قيادته من التدخل في القاهرة والاسكندرية، ولا سيما بعد المقاومة التي أبداها رجال البوليس المصري في الاسماعيلية.

وكان معظم الوزراء متغيبين خارج لندن ما عدا لورد سيموندز وزير العدل فتشاورت معه في الأمر ووافق على أن نبلغ القائد البريطاني في مصر أن ينفذ الأوامر التي تصدر إليه بإرسال قوات إلى القاهرة والاسكندرية مهما كانت الأخطار.

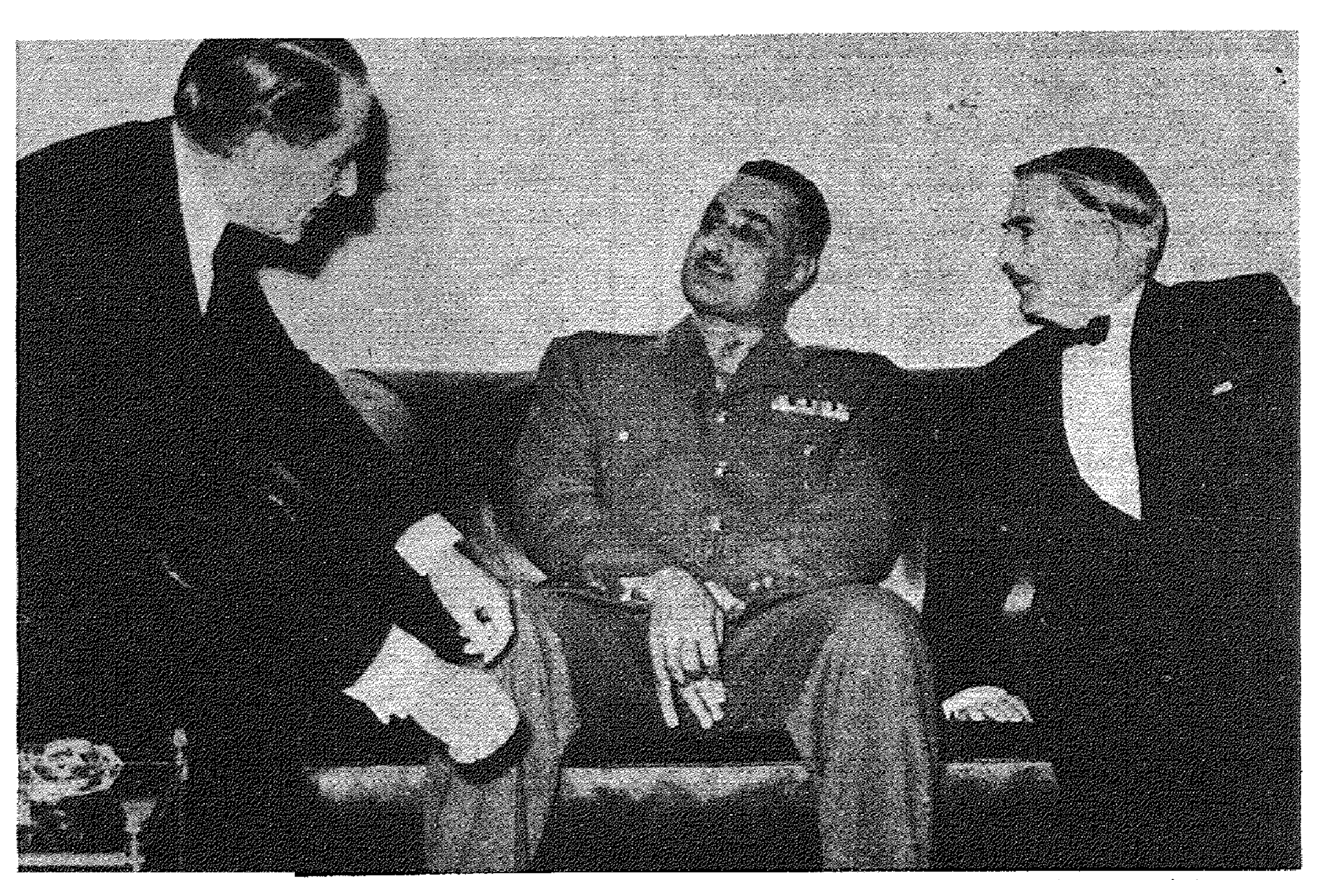
ويظهر أن علم الحكومة المصرية أن بريطانيا كانت مستعدة للتدخل بقواتها جعل هذه الحكومة تأمر جيشها بالتدخل لوقف المظاهرات وأعمال الشغب.

وفي اليوم التالي أمر فاروق باقالة مصطفى النحاس وكلف علي ماهر بتأليف وزارة جديدة، ولكن البلاد كانت على شفا الفوضى، وكان الدخان لا يزال يتصاعد مما تخلف عن حريق القاهرة.

وفي خلال الأسابيع الخمسة التي مكثتها وزارة علي ماهر في الحكم تمكنت هذه الوزارة من اعادة الأمن والنظام وأوقفت حملات الراديو وحلت كتائب التحرير وخفضت الأسعار.

ومع أن علي ماهر خدم بلاده فإن الملك عين نجيب الهلالي رئيسا للوزارة، وكان من الممكن الدخول مع وزارته في مفاوضات ولكن الأزمة التي تركها الوفد بإلغائه معاهدة سنة ١٩٣٦ واتفاقية سنة ١٨٩٩ ظلت باقية فلم يطل أمد هذه الوزارة واستقالت في يونيه وخلفتها وزارة برياسة حسين سري بعد مؤامرة من مؤامرات رجال القصر اشترك فيها كريم ثابت وأحمد عبود وشجعهما عليها كافري السفير الأميركي في القاهرة.

وكانت الحكومة الأميركية تواصل الضغط في سبيل التفاهم مع مصر، وحدث في يونيه من ذلك



□ الرئيس الراحل جمال عبد الناصر يتوسط انطوني ايدن والسفير البريطاني في القاهرة.

العام أن بحثت المسألة في لندن بحضور دين اتشيسون وزير خارجية أميركا وروبرت هاو حاكم السودان وروبرت ستيفنسون السفير البريطاني في القاهرة وأوضحت لاتشيسون أن عبد الرحمن المهدي الزعيم السوداني غير موافق على أن يصبح لقب فاروق ملك مصر و «السودان».

بقيت وزارة حسين سري في الحكم أقل من ٣ أسابيع، ثم رأى فاروق أن يسترد ما فقد من شعبيته فقرر تكليف نجيب الهلالي بتأليف وزارة أخرى، ولكن الهلالي اشترط عدة شروط لقبوله تأليف وزارة. بيد أن كل هذه المحاولات جاءت متأخرة.

ثورة ٢٣ يوليو

ففي مساء ٢٢ يوليه سيطرت قوات الجيش التي كانت تحت اشراف حركة الضباط الأحرار على القاهرة. ونجحت هذه الحركة في الاسكندرية أيضا، وكان الملك بها وقتئذ وكذا الحكومة. واختار الضباط الأحرار علي ماهر ليكون رئيسا للوزارة.

وفي تلك الأثناء ظل فاروق منذ الساعة الثامنة صباحا على اتصال تليفوني مستمر تقريبا مع السفير الأميركي في القاهرة وراح يكرر على مسامعه أنه لا سبيل لانقاذه هو وأسرته إلا بالتدخل الأجنبي. ولم يطلب بالتحديد أن تتدخل القوات البريطانية ولكن الأمر كان واضحا.

بيد أني كنت قد أوضحت الى السفارة البريطانية بالقاهرة أنه ليس المطلوب من القوات البريطانية أن تتدخل لابقاء فاروق على العرش. ولهذا فإن السفارة لم ترد ردا مشجعا على الرسائل التي وجهها اليها كافري السفير الأميركي تحت الحاح فاروق عليه.

تهديد بالتدخل

وكلفت السفارة بأن ترسل مستشارها لمقابلة المسؤولين لتوضح لهم أن بريطانيا لا تريد التدخل في شؤون مصر الداخلية ولكنها لن تتردد في التدخل ــ إذا لزم الأمر ــ لحماية أرواح رعاياها.

وفي الوقت ذاته أرسلت تعليمات إلى قواتنا بمنطقة القناة لتكون على استعداد.



محمد مصدق.

ولما لم يجد فاروق من يلبي رغبته في الاستعانة بقوات أجنبية اضطر الى التنازل عن العرش ومغادرة البلاد مساء يوم ٢٦ يوليه.

وهكذا تحتم على بريطانيا أن تتعامل مع حكومة الثورة الجديدة.

وفي تلك الأثناء انضمت تركيا واليونان إلى حلف الاطلنطي فاستوجب ذلك تعديلا في الخطط الاستراتيجية وفي توزيع القوات بمنطقة الشرق الأوسط. واستقر الرأي مبدئيا على نقل مقر قيادة القوات البريطانية بالشرق الأوسط إلى قبرص.

وفي خريف سنة ١٩٥٢ أسقطت حكومة الثورة المصرية لقب «ملك مصر والسودان» فكان هذا عملا سياسيا رائعا منها رحبت به الأحزاب السودانية التي راحت تعقد بعد ذلك بأسابيع اتفاقات مع الحكومة المصرية.

تقرير المصير للسودان

وجرت مفاوضات بعد ذلك بين بريطانيا وحكومة الثورة المصرية أدت الى الاتفاق على الاعتراف بحق الشعب السوداني في أن يقرر مصيره بنفسه. ونص الاتفاق الذي عقد في ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ على تأليف لجنة تتألف من أعضاء سودانيين ومصريين وبريطانيين على أن يرأسها باكستاني، وتكون مهمتها مساعدة الحاكم العام للسودان أثناء فترة الانتقال. كما تم الاتفاق على تأليف لجان أخرى مشتركة للإشراف على الانتخابات وعلى سودنة الوظائف بالسودان.

ولكن بعض اعضاء مجلس العموم أعربوا عن شكوكهم في اهمية هذا الاتفاق، وكنت أخشى لو لم يصدق البرلمان على الاتفاق، أن يلقي السودانيون اللوم علينا ويتهموننا بعرقلة الجهود المبذولة لاجراء انتخابات في بلادهم تمهيدا لتمتعهم بحق تقرير المصير. وبديهي ان مصر كانت ستغتنم الفرصة فتضاعف من حملتها علينا.

لهذا جاهدت في شرح الاتفاق ومزاياه لأعضاء المجلس إلى أن تمكنت من اقناعهم بسلامته. وكنت في الواقع أرى أن أستقيل لو لم يؤيد المجلس الاتفاق ويأخذ بوجهة نظري.

عروض مرفوضة

ثم بدأت في أوائل سنة ١٩٥٣ أهتم بتحديد احتياجاتنا في مصر وذلك بالتشاور مع زملائي الوزراء، واستقر الرأي على أن نعرض على مصر ما يلي:

١ ـ أن يتم سحب القوات البريطانية بالتدريج وعلى مراحل.

٢ ـ العمل على صون قاعدة السويس العسكرية، في زمن السلم، في حالة تسمح لنا ولحلفائنا باستخدامها زمن الحرب.

٣ ـ تأليف هيئة مصرية انجليزية لتنظيم الدفاع الجوي عن مصر.

٤ ـ أن تشترك مصر في منظمة الدفاع عن الشرق الأوسط.

٥ ـ وضع برنامج لتقديم مساعدات عسكرية واقتصادية لمصر من بريطانيا وأميركا.

وكان من رأيي أن كل أجزاء هذا الاقتراح مرتبطة ببعضها بعضا، وكان لا بد من التأكد من أن مصر لن تعد أي اتفاق يعقد معها مجرد قصاصة ورق، فلا تلغيه كما سبق أن ألغت معاهدة سنة ١٩٣٦.

وكان من رأيي انه لو أمكن طمأنة فرنسا وغيرها من الدول الملاحية على استمرار حرية الملاحة بقناة السويس، فإنه يمكن في هذه الحالة ايجاد طريقة أخرى لكفالة هذه الحرية بدون حاجة إلى وجود القوات البريطانية في منطقة القناة.

كذلك كنت أرى أنه لا بد من أن تكون لأميركا صلة وثيقة بمنظمة الدفاع عن الشرق الأوسط.

وزرت واشنطن في مارس من ذلك العام، وتباحثت مع أيزنهاور ودلاس وبعثت الى لندن بتقرير قلت فيه أن الرئيس ايزنهاور موافق على ضرورة الاحتفاظ بقاعدة السويس وأن من رأيه أن جلاءنا عنها قبل تأسيس منظمة للدفاع عن الشرق الأوسط يجعلنا معرضين لتهديدات مصر وضغطها. وقد أوضحت له أن مصر تعد مفتاح الدفاع عن الشرق الأوسط وأنه يجب أن تتضامن أميركا مع بريطانيا في حالة امكان الوصول إلى اتفاق مع مصر.

واستقر الرأي على كيفية الاتصال بمصر والتفاوض معها. ثم عدت إلى لندن، ولكن حدث أن رفضت مصر اشتراك أميركا في المفاوضات معها، وكان الرئيس أيزنهاور قد اشترط أن توافق مصر أولاً على ذلك.

وكان رأي مصر أنه يجب أولاً الوصول الى اتفاق بشأن جلاء القوات البريطانية عن أراضيها، على أن تبحث في مسألة تنظيم الدفاع عن منطقة الشرق الأوسط كلها فيما بعد.

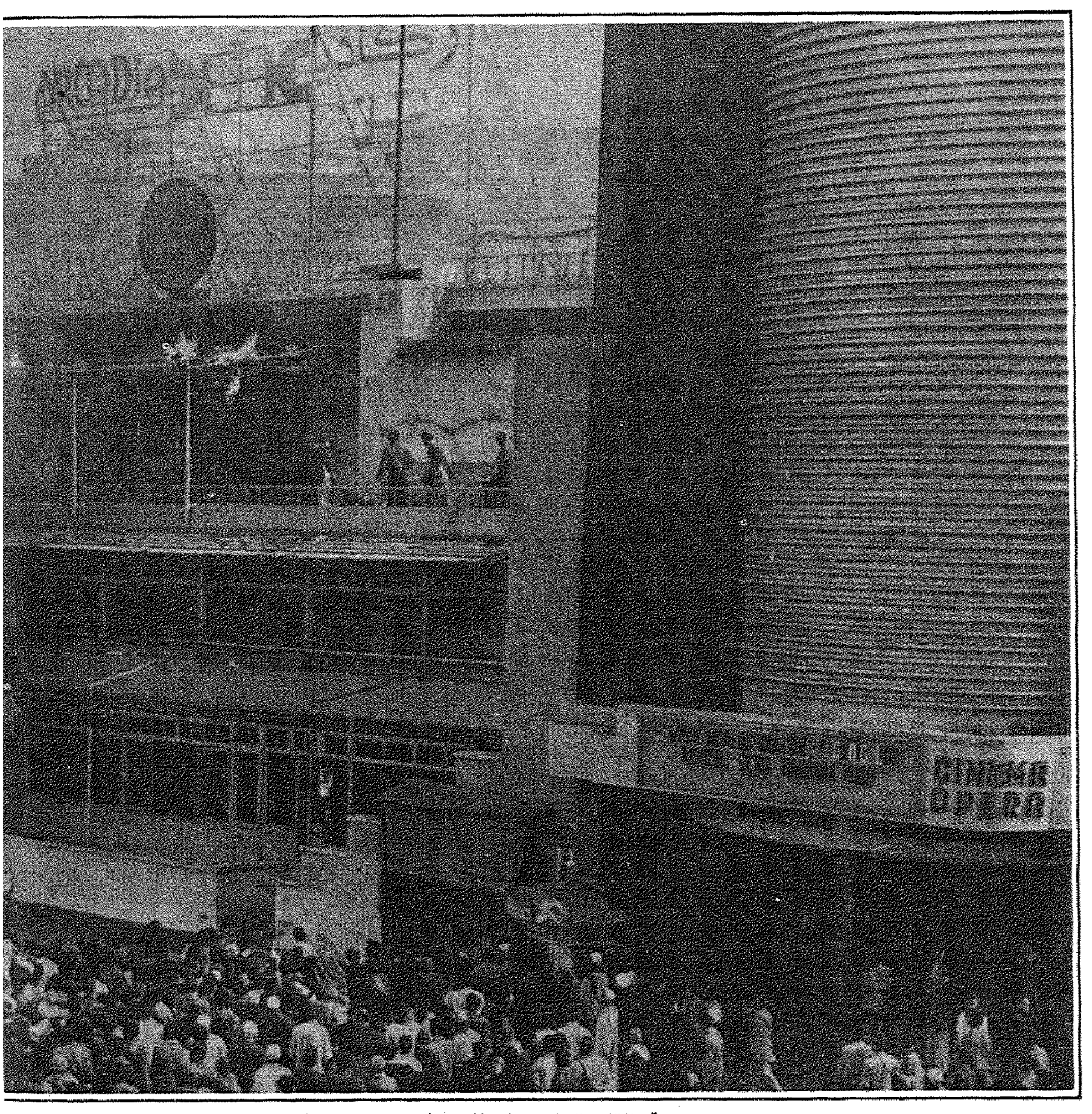
ولم تكن بريطانيا مستعدة للبحث في مسألة سحب قواتها من مصر وهي في عزلة عن أميركا، وإنه لمن سوء الحظ أن الحكومة الأميركية، وخاصة سفيرها في القاهرة، لم يضغط على



□ الملك فاروق.

□ نهاية الاستعمار: للكاريكاتورست الانكليزي الشهير فيكي.





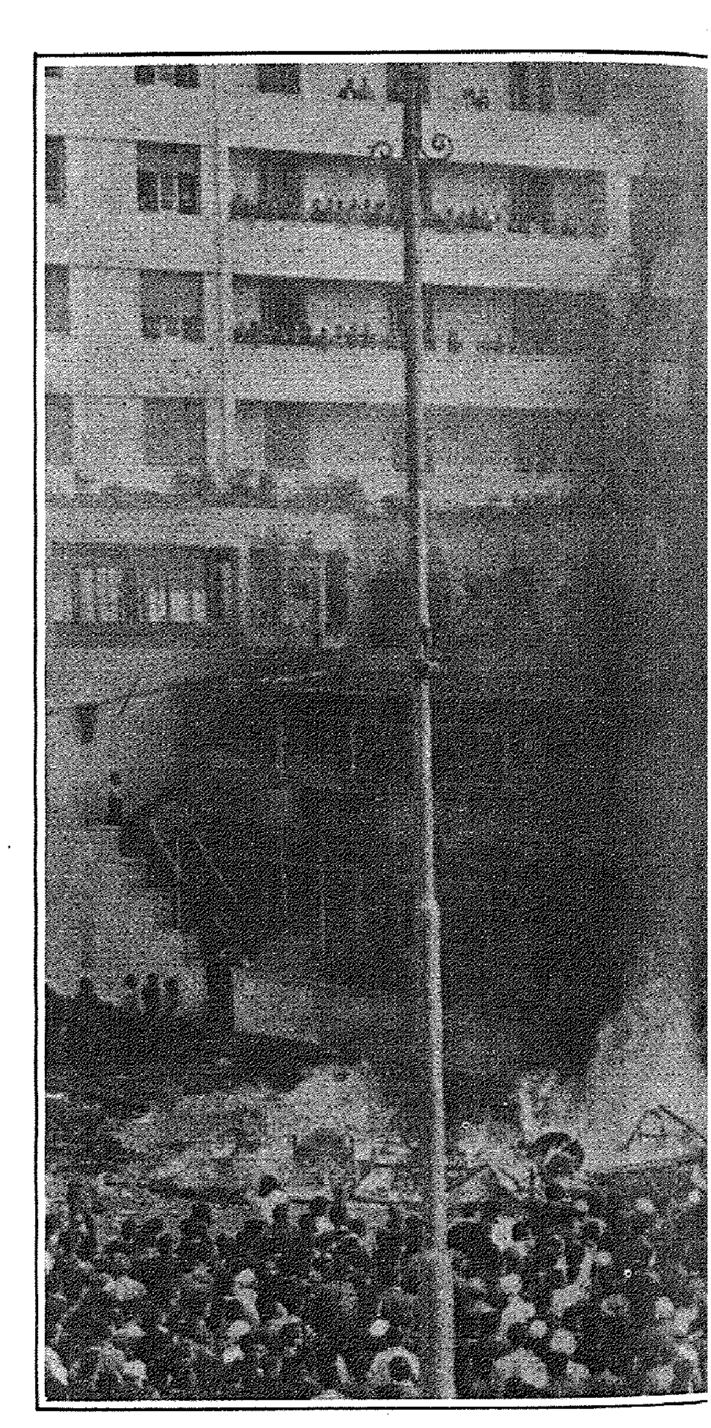
□ حريق القاهرة في ميدان الاوبرا.

الحكومة المصرية لجعلها تقبل اشتراك أميركا في التفاوض. وأعتقد أنه لو أن أميركا تمكنت من الاشتراك معنا في ذلك الوقت مع مصر، لتغير الوضع الآن في الشرق الأوسط، مع العلم أن أميركا كانت تستطيع، بسبب مساعداتها المالية التي قدمتها لمصر والتي وعدت بتقديمها فيما بعد، أن تلح في طلب الاشتراك في المفاوضات، ولكنها تركت مصر تفعل ما تشاء وأن تضع الشروط للفصل بين مباحثات الجلاء ومباحثات الدفاع عن الشرق الأوسط، وأن تفرق بين الحليفتين بريطانيا وأميركا.

ثم مرضت بعد ذلك ومنعني مرضي ستة أشهر عن الاشتراك في أية مباحثات مصرية. وبدأ نجم الرئيس عبد الناصر يظهر وبدأت ارادته هي التي تسود في قرارات حكومة الثورة المصرية.

وأعلن مجلس الثورة المصرية قيام النظام الجمهوري في مصر وتم الاستيلاء على ممتلكات الأسرة المالكة دون دفع أية تعويضات.

وكانت تجري في تلك الأثناء مفاوضات متقطعة بين بريطانيا ومصر، وكان كل فريق يقترب من



الاتفاق على وجهة نظر الفريق الآخر. إذ اعترفت مصر بأنه ليس من الضروري أن تصبح قاعدة القناة مصرية، كما أبدت بريطانيا استعدادها لخفض عدد خبرائها الفنيين بتلك القاعدة.

ولما عدت إلى الوزارة في اكتوبر كانت المسألة المعلقة هي مسألة الوضع الخاص بالخبراء الفنيين الانجليز ومسألة الظروف التي يمكن فيها استخدام القاعدة. وقد وافق الجانب المصري على أن نستخدم القاعدة إذا هوجمت إحدى الدول العربية ولكننا كنا نريد أن يكون من حقنا استخدام القاعدة إذا وقع هجوم على ايران وتركيا.

وتعثرت المفاوضات مع مصر في ذلك الوقت وكان من رأي كثير من أعضاء مجلس العموم أن تقطع هذه المفاوضات ولكني كنت لا أزال آمل في امكان الوصول الى اتفاق مع مصر.

وكنت أرى أنه سيحتم علينا في حالة فشل التفاوض مع مصر، أن نبقى في قاعدة السويس إلى ما لا نهاية رغم عداء مصر ومحاولتها اخراجنا منها بطريقة دولية. وهو أمر غير مرغوب فيه لما ينطوي عليه من مساوىء سياسية وعسكرية واقتصادية وما قد يؤدي إليه من تدهور في العلاقات بين بريطانيا وبقية الدول العربية.

ثم أن بقاءنا بالقوة في قاعدة السويس كان سيتيح الفرصة امام مصر لاستصدار قرار دولي ضدنا، كما كان سيتيح لها الفرصة لكي تضاعف هجوم الفدائيين على القاعدة يضاف إلى هذا انه كان سيتعذر ايجاد عمال مصريين للعمل بالقاعدة. وأخطر من كل هذا أنه كان من المحتمل أن تقطع مصر مياه الشرب عن القاعدة، وهكذا كانت قواتنا ستصبح مقيدة بالبقاء في قلب القاعدة دون امكان الاعتماد عليها لاستخدامها في أية منطقة اخرى في حالة الطوارىء.

وكان الخلاف السياسي على كيفية التعامل مع مصر مستمراً بين أميركا وبريطانيا ففي نهاية ذلك العام بعث سفيرنا في القاهرة يقول أنه يبدو أن سياسة اميركا تقوم على أساس الاعتقاد بأن مصر ما زالت ضحية للاستعمار البريطاني، وأن هذا هو سبب العطف الذي تبديه أميركا نحو مصر.

ولكن الحقيقة هي أن اميركا كانت تشعر بأن أهل المنطقة لا يحبونها وتخشى أن تفقد ميل حكومة الثورة المصرية نحوها، كما كانت لا تريد أن يكون دورها في المنطقة دورا قانونيا. ولهذا فإنها لم تؤيد بريطانيا حليفتها وشريكتها في حلف الاطلنطي. وكانت النتيجة أن استغل المصريون هذه الخلافات السياسية بين لندن وواشنطن.

وقررت الحكومة البريطانية الاستمرار في التفاوض مع مصر. وكانت العلاقات في هذا الوقت



تنمو وتتوثق بين تركيا وباكستان، فرأيت أن أثير مع أميركا مسألة «الحزام الشمالي» للدفاع عن الشرق الأوسط، ولا سيما أن اميركا كانت تعد برنامجا لتقديم مساعدات اقتصادية لمصر، لتجعلها تخفف من موقفها منا إلى أن تنتهي المفاوضات معها.

وفي يونيو سنة ١٩٥٤ زرت واشنطن فتباحثت مع المسؤولين هناك في هذا الأمر وتمكنت من اقناعهم بأن تستخدم اميركا برنامج مساعدتها لمصر كوسيلة لاغرائها على تعديل موقفها حتى يمكن عقد اتفاق معها. كذلك أبدت الحكومة الأميركية استعدادها لكي تعلن رسميا على الملأ انها تؤيد مبدأ حرية الملاحة بقناة السويس، وهو مبدأ كان من المقرر ان تعيد مصر وبريطانيا تأكيدهما التمسك به.

وبدأت في ذلك الوقت تظهر عوامل جديدة كان لها تأثير على العلاقات بين مصر وبريطانيا. وتبين للعسكريين في بريطانيا ان الأسلحة الذرية الحديثة تستوجب تغييرا في الخطط الاستراتيجية، وأن الاحتفاظ بقاعدة السويس لم يعد امرا ذا اهمية وخاصة أن ورش القاعدة وتموينها متوقف على المصريين.

ولهذا أبدى لورد الكسندر وزير الدفاع وانطوني هيد وزير الحربية ميلهما الى الاتفاق مع مصر على اعتبار ان عقد أي اتفاق جديد معها يعد وسيلة يمكن لبريطانيا أن تتخلص بها من التزامات انقضى عهدها.

يضاف إلى هذا أن أميركا كانت تضغط علينا لكي نصل إلى اتفاق مع مصر، كما كان أصدقاؤنا في العالم العربي يريدون أن نصل إلى هذا الاتفاق.

وهكذا بدا لنا أن عقد اتفاق جديد مع مصر لا بد أن يحقق لنا مزايا كما أنه جدير بالتجربة.

وتم توقيع الاتفاق الجديد مع مصر في ١٩ اكتوبر سنة ١٩٥٤ ونص فيه على أن تجلو القوات البريطانية عن قاعدة القناة خلال ٢٠ شهرا.

والواقع ان كلا من بريطانيا ومصر لم تكن راضية عن استمرار الحالة بينهما على ما كانت عليه. بيد ان هذا الاتفاق كان ينطوي على اخطار سياسية بالنسبة لنا. ●

كنوز القارة القطبية

□ تعرف القارة القطبية الجنوبية منذ وقت طويل بقارة العلم، العلماء يعتقدون ان سجل التاريخ الجيولوجي لكرتنا الأرضية محفوظ تحت جليدها. والسفر اليها، يقارن، من بعض النواحي، بالسفر بآلة زمن خيالية عبر الماضي السحيق.

ومن ابرز معالم فصل الصيف على القارة، قيام العلماء باستكشاف جزر جرداء في بحر ويديل، عند الطرف الجنوبي لأميركا الجنوبية. وتحتوي هذه الجزر، التي تعرف باسم جيمس روس، وسنوهل، وسيمور، على سجل احفوري يعود تاريخه الى مئة مليون سنة. ويأمل العلماء في ان تقدم هذه المواد الاحفورية معلومات جديدة عن الطريقة التي انشطرت بها قارات العالم وتباعدت عن بعضها بعضا، وعن الظروف التي كانت سائدة قبل ذلك الحدث المفاجيء العنيف.

ومنذ نحو خمسين عاما عندما قدمت المرة الأولى النظرية القائلة بأن القارات الحالية التي تشكل نصف الكرة الجنوبي كانت ذات يوم اجزاء من كتلة يابسة واحدة تسمى غوندوا نالاند، كان عدد قليل جدا من العلماء على استعداد لقبول تلك النظرية بصورة جدية. اما اليوم فإن نظرية الألواح التكتونية ـ وانقسام الألواح الهائلة الحاملة للمحيطات والبحار والقارات وتباعدها، مقبولة عالميا، باعتبارها احدى نظريات الجيولوجيا الحديثة.

وتحتوي الجزر الصغيرة الثلاث ـ كما يرى العلماء على افضل سجل محفور للفترة الجيولوجية التي تشمل انقسام غوندوانالاند والممتدة من مئة مليون سنة الى ثلاثين مليون سنة خلت. ويصف وليم زينميستر، الاستاذ بجامعة ولاية اوهايو، وقائد بعثة الاستكشاف، هذه المنطقة بأنها مفتاح فهم التاريخ الأولي للأرض.

وقد اكتشفت هذه الجزر منذ سبع سنوات. وتحتوي المواد الأحفورية فيها على مجموعة كبيرة من بقايا النباتات والحيوانات بما في ذلك بقايا طيور البطريق العملاقة التي كان طولها نحو مترين، أي ضعف طول طيور البطريق الحالية. هذا بالاضافة الى ان بقايا الحيتان المتحجرة، والزواحف البحرية الكبيرة وأسماك القرش تغطي الجزر الثلاث. وكانت بعثة سابقة قد وجدت جذوع اشجار متحجرة يبلغ سمك الواحد منها مترا تقريبا في جزيرة خالية من الأشجار في الوقت الحاضر. وتثبت بقايا النباتات والحيوانات ان هذه الجزر القطبية الجنوبية كانت قبل انقسام غوندوا نالاند وتباعد اجزائها موجودة على مسافة ابعد إلى الشمال. في مناخ أكثر اعتدالا: ●

اكتشاف بقايا السفينة تيتانيك

□ عثرت مجموعة من الباحثين بجامعة كولومبيا على ثلاث قطع من بقايا السفينة «تيتانيك» ومن المقرر فحصها قبل الرجوع الى ميناء نوفا سكوتيا في اول اغسطس القادم.

ويقوم المليونير جاك جريم بتمويل هذا البحث ويعد الثالث من نوعه خلال الأعوام الأخيرة وقد عرقلت الأحوال الجوية السيئة اتمام هذا البحث خلال الأعوام الماضية.

وكانت السفينة تيتانيك قد ارتطمت بالثلوج خلال رحلتها عام ١٩١٢ وغرقت وعليها ١٥١٣ شخصا.

اغلى اللوحات.. بالمزاد العلني



□ «اسبانيا» لوحة بالزيت على القماش للرسام ارجينز ــ ١٩١٠.

□ ما زال مصير الباخرة «فرنسا» ناقلة الركاب الفخمة التي بيعت وأعيدت تسميتها «النرويج» يحتل عناوين رئيسية في الصحف وقد عرضت في المزاد في العاشر من يوليو الماضي مجموعة من اللوحات التي كانت تزين أعظم عابرات المحيطات في العالم وعددها ٢٥٠ لوحة والتي بقيت ملكا لشركة الملاحة البحرية حتى هذا التاريخ ومنذ أن دخلت السفينة خدمة عبور المحيطات عام ١٩٦٣.

وكانت تلك اللوحات معلقة في صالونات السفينة وممراتها وغرفة الطعام وفي خمسة وثلاثين شقة فخمة في السفينة، كل منها كان مزينا بأسلوب يصور احدى مقاطعات فرنسا. وقد شارك في تحقيق هذا الغرض الفني على متن السفينة نخبة من الفنانين المعاصرين الموهوبين ومن بينهم «ايزبيري» «برايز» «بيرتوم سانت اندريه» «ديسبيريه» «بيزومبيه» وغيرهم.

العثور على سفينة عربية في اعماق بحر مارسالا غرقت قبل ألف عام

□ قال ناطق باسم دائرة الآثار والتراث في باليرمو ان مجموعة من الغطاسين المحترفين عثرت في اعماق مياه بحر مارسالا بجزيرة صقلية على سفينة عربية غرقت هناك قبل الف عام بالضبط اي ابان الموجات الاولى للفتح الاسلامي في صقلية. وذكرت الصحف في مراسلات عاجلة من باليرمو ان اكتشاف السفينة العربية يعتبر على درجة قصوى من الأهمية العلمية ــ التاريخية اذ صرح احد الغطاسين بأن هيكلها متكامل ولم يتضرر حيث ترقد في اعماق البحر بهدوء كامل وسط مياه شفافة لا تكثر بها اسماك وأعشاب بحرية كان يمكن ان تصيب خشب السفينة بالتآكل.

وقد تمكن فريق الغطاسين بتكليف من قيادة حرس المراقبة المالية ودائرة الاثار من استخراج حمولة السفينة كاملة قبل ان يكتشفها لصوص وقراصنة التحف الاثارية الذين يبيعون مثل هذه المواد الى متاحف وهواة جمع التحف في كافة انحاء العالم. ووصفت احدى صحف الجنوب اكتشاف السفينة العربية بأنه حدث مثير بمعنى الكلمة ستعرف قيمته كاملة حين يبدأ العمل في نشل السفينة من اعماق البحر في مطلع سبتمبر القادم. وتدرس دائرة الاثار حاليا تكاليف هذه العملية الشاقة لتنفيذ توصية الخبراء بنشلها الى سطح الماء كاملة كما هي دون التأثير على هيكلها الهش بالتأكيد بعد قرون متعددة لبقائها في اعماق البحر الذي فتح الطريق للحضارة العربية نحو اوروبا وسيجري ترميم السفينة بعد البحث في الوثائق عن اسمها أو اسم صاحبها في تلك الحقبة أو الملك التي كانت جزءا من اسطوله انذاك لوضعها فيما بعد في معرض خاص ليشاهدها الجمهور.

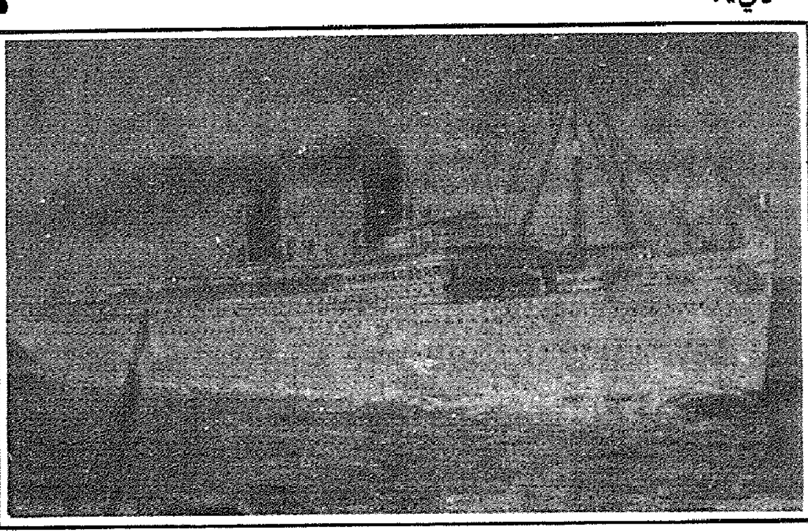
●

وتضم اللوحات كذلك اعمالا لعدة فنانين ذوي باع طويل ومنها لوحتان بريشة «تشابلن مايدي» ولوحة مائية بريشة «دنوييز دي سيغونزاك» لوحتان اخريان تحملان توقيع «راؤول دفي».

وتجدر الاشارة إلى أن اثنتين من الصور المعروضة للبيع بريشة الفنان «لاكروا» المرسيلي كانتا قد استخدمتا من قبل على متن ناقلة اخرى كانت تحمل الاسم ذاته عام ١٩١٢. ●



□ لوحة رائعة للرسام «لي كوينزي»



□ «السفينة» لوحة للرسام د. ديلابلين.

مستوطنات بشرية تاريخية في حلب يعود تاريخها للألف الأول قبل الميلاد

□ تمكنت بعثة الاثار الوطنية السورية في نهاية اعمالها التي قامت بها بإحدى قرى مدينة حلب بشمال سورية من اكتشاف عدة مستوطنات بشرية يعود تاريخها الى الألف الثاني والثالث قبل الميلاد.

اعلن ذلك مصدر سوري مسؤول وقال ان هذا الاكتشاف الأثري سيلقي اضواء جديدة على التاريخ الحضاري لمدينة حلب. وكانت البعثة الأثرية المذكورة قد اكتشفت في بداية اعمالها بالتنقيب في نفس الموقع معبدا ضخما يعود تاريخه الى الألف الأول قبل الميلاد ويحتوي على مجموعات ضخمة من التماثيل والنقوش الفنية التي تمثل الحياة الفكرية والدينية قبل ثلاثة الاف عام. ●

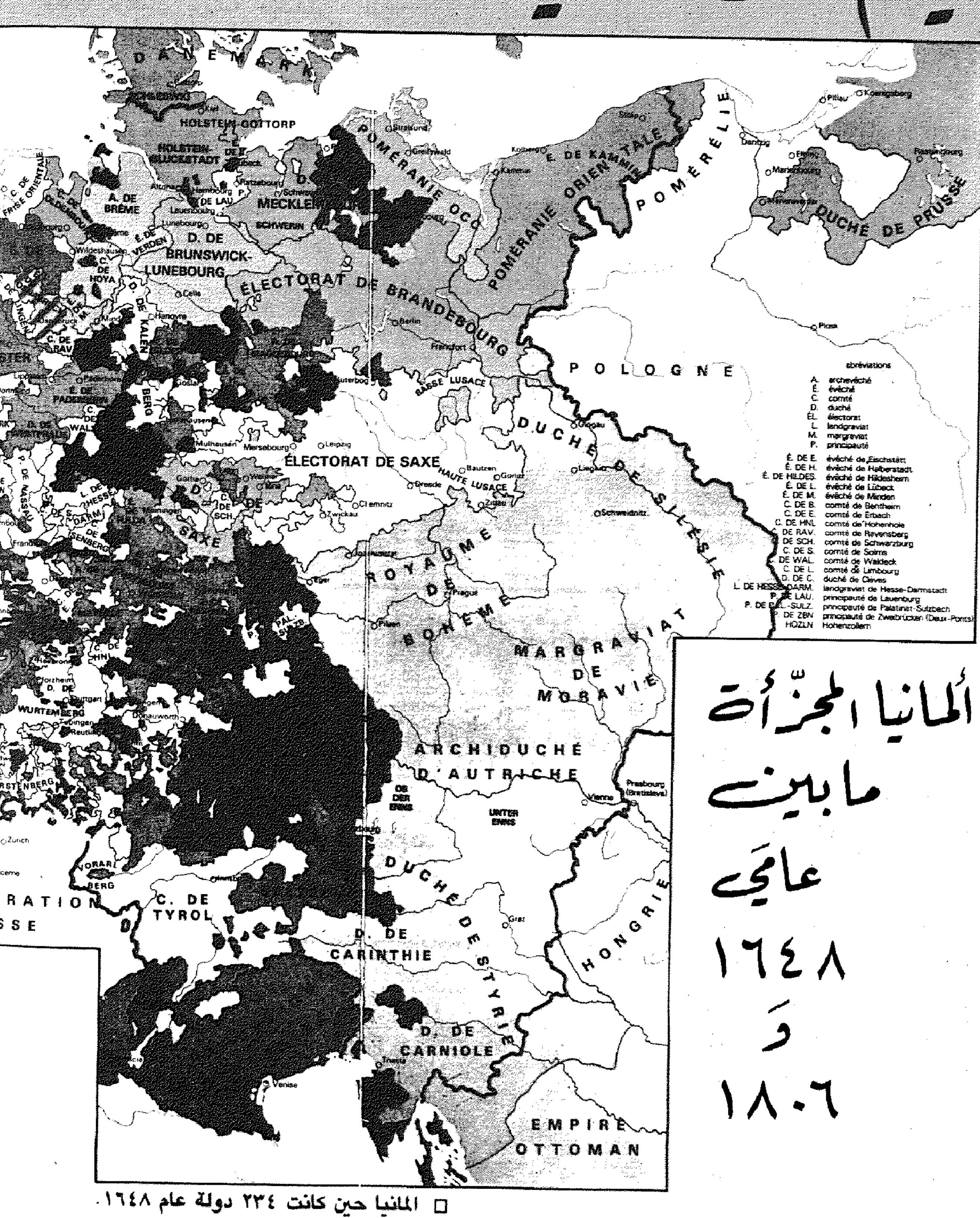
مسلة من المعدن طولها ١٣٧ قدما

□ أقام المهندس المعماري والشاعر الروسي اندريه فوزينزكي مسلة من المعدن يبلغ طولها ١٣٧ قدما في مدينة موسكو وذلك في اطار الاحتفال بمرور ٢٠٠ عام على ضم ولاية جورجيا واعتبارها من الامبراطورية الروسية.

والمسلة عبارة عن لوائح مكتوب عليها مقتطفات من الحروف الابجدية لولاية جورجيا والحروف الأبجدية الروسية وبعض قطع شعرية لمشاهير الكتاب الروس.

ومن اشهر ما كتب على هذه اللوائح مقطوعة شعرية لبوريس باسترناك الشاعر الروسي الشهير الذي توفي عام ١٩٦٠ وقام بكتابة قصة «الدكتور زيفاجو». ●

أيام كانت ألمانيا ٢٣٤ دَولة ...



أُلمانيا المجزَّأة ما بين عامَي ١٦٤٨ وَ ١٨٠٦

□ المانيا حين كانت ٢٣٤ دولة عام ١٦٤٨.

ومعاهدة وستفالي تضع حداً لحروب الثلاثين عاماً

د. رياض العالي



كانت ألمانيا، مطالع القرن السابع عشر، وحتى احتلال بونابرت لها، مقسمة إلى ٢٣٤ دويلة، أو إمارة، و٥١ مدينة حرة، وعدة إقطاعيات للحرس الامبراطوري. فقد مزقتها الحروب الطائفية، بين البروتستانت والكاثوليك، والصراع بين السلالات الحاكمة في ألمانيا وأوروبا. وقد لعبت، في ما بعد، براندبورغ والنمسا، دورا هاما في التوحيد.

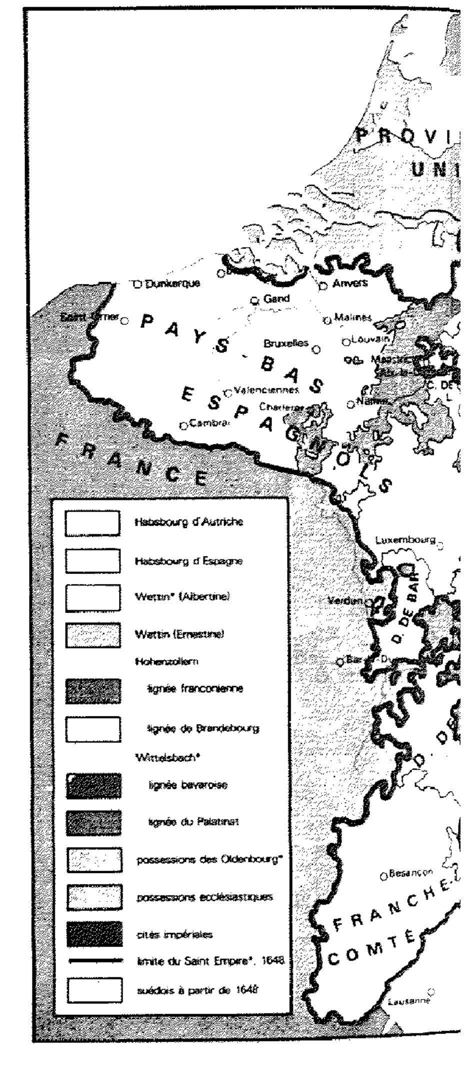
ولما احتل نابليون ألمانيا اختصر العدد اختصارا شديدا، وضم المقاطعات الصغيرة إلى مقاطعات أكبر منها، وظهرت دويلات واسعة قليلا، بينها بروسيا. وغدت الدويلات تسعاً.

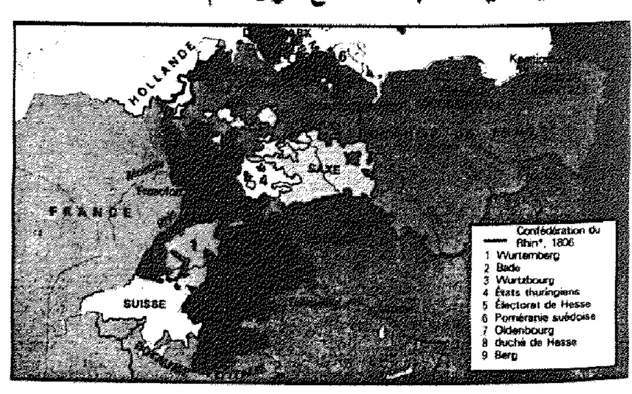
تصور محفورات جاك كالّو المآسي التي عاشتها ألمانيا في ظل صراعاتها الداخلية، وصراعات الدول الأوروبية (فرنسا ــ إسبانيا ــ هولندا ــ إيطاليا ــ إسبانيا) خلال حرب الأعوام الثلاثين، فينقل ألوانا من الفواجع: النهب، الحرائق، القتل والاغتيال، الوباء، الجوع، الاغتصاب، ابتزاز الجيوش المحتلة الشعب... وقد خرجت ألمانيا من تلك الحرب منهكة مدمرة مجردة من كل قدرة...

بدأت تلك الحرب عام ١٦١٨، ٢٣ أيار، ولم تنته إلا في ٢٤ تشرين الأول ١٦٥٨، بتوقيع معاهدة مونستر وأوسنابروك، المشهورة بمعاهدة ويستفالي.

بدأت بثورة بوهيميا البروتستانتية التي سحقها الامبراطور فرديناند في معركة الجبل الأبيض، فقضى على حلم البوهيم بتنصيب فريدريك الخامس على عرش بوهيميا.

غير أن تدخل القوى البروتستانتية في الشمال، ولعبة فرنسا ريشيليو، وإسبانيا دون





□ ألمانيا حين اصبحت تسع دول عام ١٨٠٦.

اوليفاريس، أطالت زمن الحرب ثلاثين عاما.

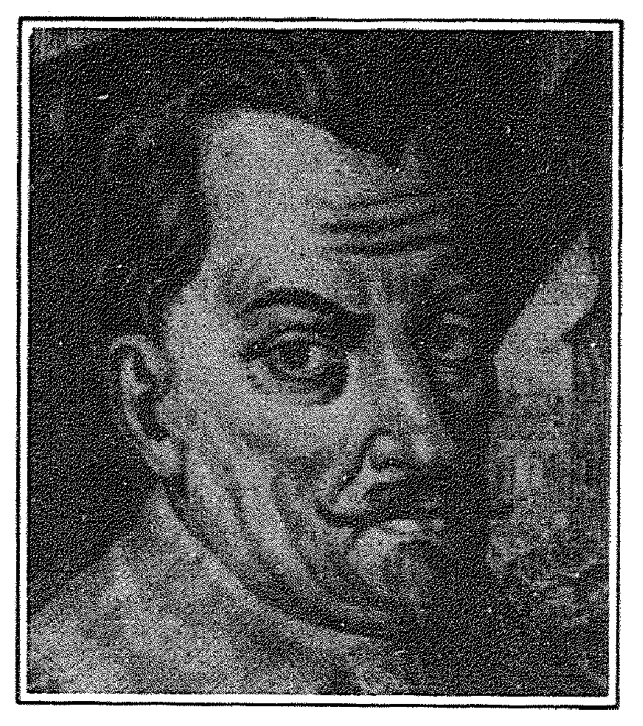
كادت انتصارات والنشتاين تتيح للامبراطور ان يقضي على الدانمرك وحلفائها من البروتستانت، ولكن تدخل ملك السويد غوستاف ادولف، وانتصار جيشه في براندفيلد ولوتزن ـ حيث قتل الملك نفسه ـ كادا يضعان حدا للحرب، غير أن الأمراء الألمان البروتستانت وقعوا صلحا مع الامبراطور، فقضي على الحلم.

قررت فرنسا عندئذ التدخل السافر ضد الامبراطورية الاسبانية، متحالفة مع هولندا، التي كانت على حرب مع فيليب الرابع، والسويد التي كان يحكمها المستشار أوكزانستيريا، دون أن تتخلى عن صداقاتها مع الدويلات الكاثوليكية في جنوب ألمانيا، خاصة البافيير.

السنة التالية هددت القوات الاسبانية باريس، بعد احتلالها كوربي، فيما جيوش الامبراطور كانت تحاصر سان ـ جان دولوسن. غير أن الوضع تحسن سريعاً بعد احتلال بريزاك، وقد احتلها ساكس ويمر حليف ريشيلو (١٦٣٨)، وسقوط بربينيان، واجتياح روسينيون (١٦٤٢) والانتصار الساحق في روكروا (٩ أيار ١٦٤٣) الذي أحرزه دوق أنجيان.

لقد كان للتضحيات الضخمة والمآسي الفاجعة التي جرتها الحرب على عدة مناطق وشعوب، الأثر المباشر في عزم حكام تلك البلاد على وضع حد لها. وقد هدأت الحمية الطائفية التي كانت شديدة في العصر السابق، وبدا من الممكن تحقيق مساومة، يتم فيها قيام توازن يضمن مصالح الحكومات جميعا.

ومنذ ١٦٤١ تقبل ملك فرنسا والامبراطور فرديناند بفكرة جمع المؤتمرين: مونستر وأوسنابروك، وقد شجع البابا أوربان الثامن ذلك. وكان من المفروض أن يحدث ذلك في ٢٥ آذار ١٦٤٢، ولكنه أجل حتى نيسان ١٦٤٤. وقد جاء المندوبون الفرنسيون إلى مونستر ولكنهم لم يجدوا أحدا. وكان الافتتاح في الرابع من كانون الأول ١٦٤٤. غير أن الأعمال لم تبدأ رأسا، ومضى وقت قبل ذلك. وقد طالب الفرنسيون باطلاق مطران تريف الذي احتجزه الامبراطور. وطالبوا بأن يمثل كل الأمراء والمدن الحرة في ألمانيا، مما يعني الاقرار بسيادتهم،



□ البرت دوق دوفريدلاند، كونت ولانشتاين، شاء ان يعتمد على جيشه الفاعل ليوحد المانيا لمصلحته. ولكن الامبراطور دبر مقتله.

وحفزهم على دعم المواقف الفرنسية. ووافق مندوبو الامبراطور وبدأت المحادثات جديا.

أصدقاء لا جيران

مثل كل حكام أوروبا تقريباً في المؤتمر، ما عدا قيصر روسيا والسلطان التركي وملك انكلترا شارل الأول، الذي كان يعاني من فشل في الحرب الأهلية التي اضطرته الى الصدام مع البرلمان.

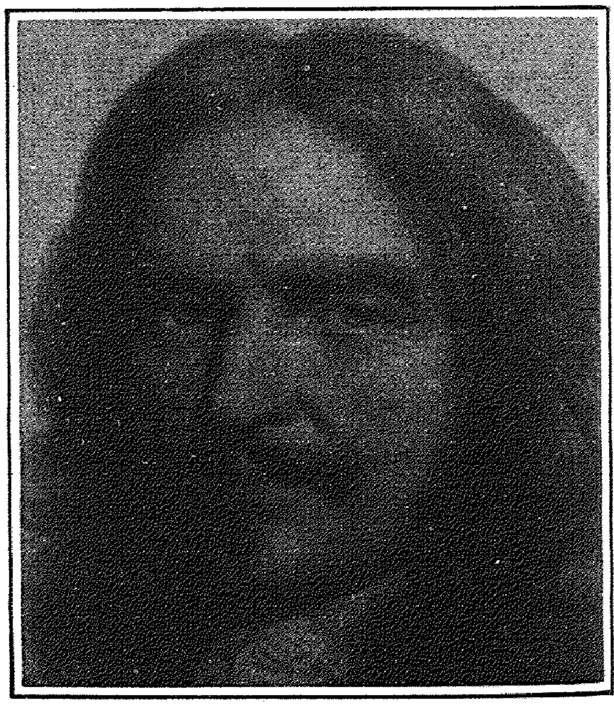
مثل السويد سالفيوس وجان أوكزانستيرنا. وكان الأول أشد اقترابا من فرنسا، من الثاني. ورئس الوفد الفرنسي هنري دورليان، دوق لونغفيل. أما المفاوضان الحقيقيان فكانا كلود دو ميسم، كونت آفو، وآبيل سرفيان.

وأرسل الاسبان لمونستر، دون غاسبار براكامونت، كونت بنيراندا. ومثل الامبراطور كونت تروتما نسدورف. وعدا مندوبي الأقطاب الأربعة في الصراع، حضر مندوبو الدويلات الألمانية، ومندوبو المقاطعات المتحدة، والبرتغال، والسافوا، وتوسكان ومانتو، وقطاعات سويسرا وفلورانسا. وقد لعب ملك الدانمرك، الذي صالح الامبراطور منذ ١٦٢٩، لعب في أوسنابروك دور



□ ملك السويد غوستاف ادولف الذي وسع اثر بلاده خلال حرب الثلاثين عاما.

□ برنارد دو ساكس وينر حليف فرنسا المخلص.



الوسيط. أما في مونستر فقد قام بهذا الدور مندوب البابوية فابيو شيجي، والسفير النمساوي كونتاريني.

كانت مهمة المؤتمرين واسعة ومعقدة. ذلك أن مصالح بعض الحلفاء كانت متعارضة. مصالح آل هابسبورغ مثلاً لم تكن متفقة دائماً مع مصالح الامبراطور. وكانت فرنسا متحالفة مع القوى البروتستانتية في السويد، والمقاطعات المتحدة، ولكنها كانت «ابنة الكنيسة البكر» لذلك كانت تتوقع دعم ولايات صديقة في المانيا الجنوبية الكاثوليكية. أما الهولانديون والمقاطعات المتحدة فكانوا يعتبرون فرنسا صديقة لا جارة، لذلك لم يكونوا يخفون أية نوايا عنها.

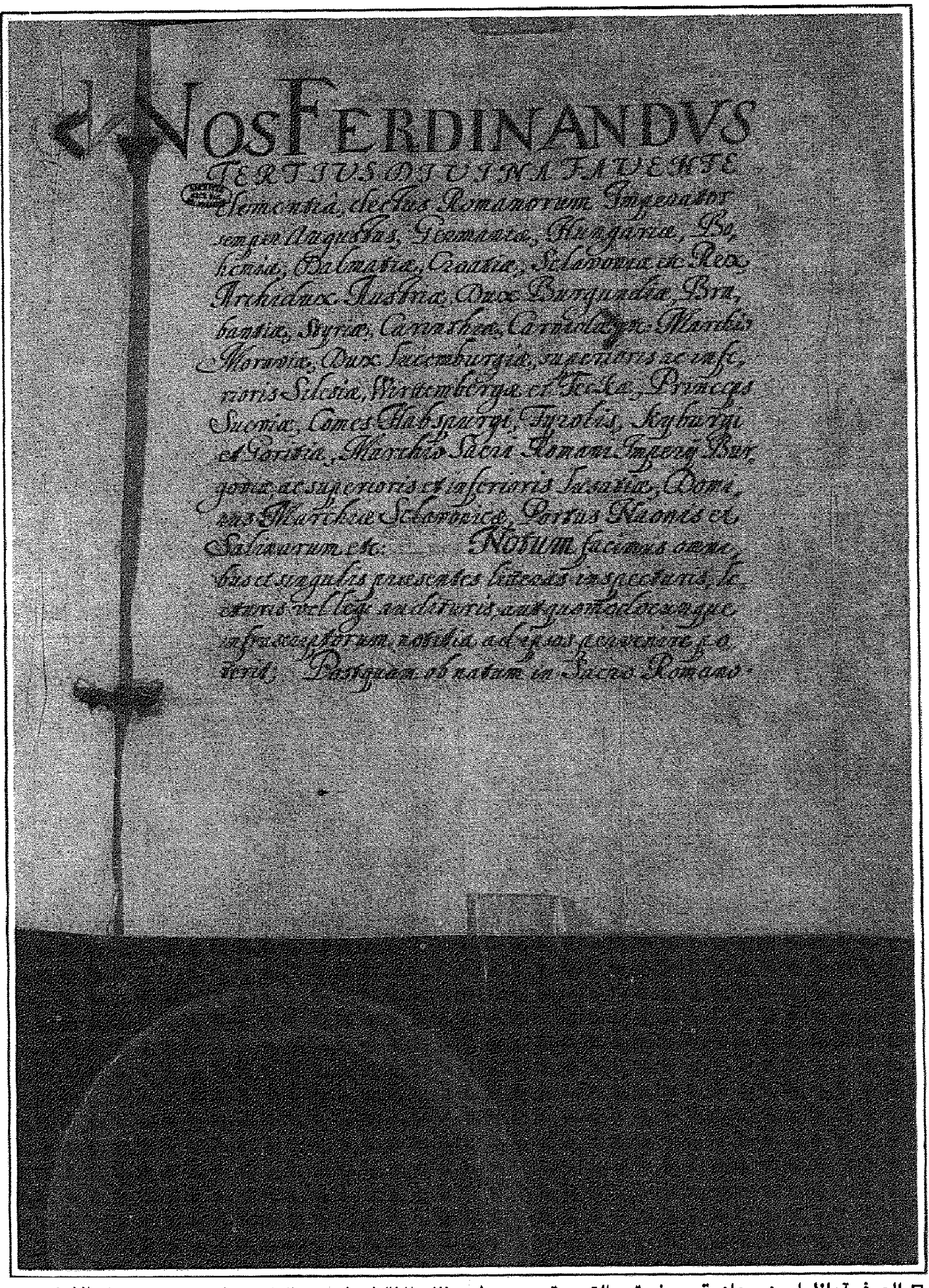
منذ ١٦٤٦ ساد السلام بين اسبانيا والمقاطعات المتحدة، وإن أجّل الهولانديون التوقيع حتى لا يغضبوا فرنسا. لقد انزعجوا من مشروع مازاران القاضي باستبدال كاتالونيا التي تحتلها الجيوش الفرنسية بالأراضي الواطئة (الهولاندية) مع انهم حصلوا على اعتراف مدريد باستقلالهم الذي ناضلوا طويلا من أجله.

تورين يجتاح البافيير

حاول مندوب الامبراطور تروتمانسدورف عزل فرنسا، بفصلها عن السويديين والأمراء الألمان. ولكنه لم يوفق. ذلك أن ريشيلو دعم المطالب السويدية حول الأراضي في ألمانيا الشمالية، التي لم تكن تعنيه، ولم يكن الأمراء الألمان لينسوا دعمه لجعلهم يمثلون في المؤتمر. ومنذ ١٦٤٦ أقر بعودة كل الألزاس إلى فرنسا.

في ٣٠ كانون الثاني ١٦٤٨ وقعت المقاطعات المتحدة معاهدة مع اسبانيا، اعترفت فيها اسبانيا بسيادة واستقلال الجمهورية، وتخلت لها عن أقسام من الفلاندر. فكونت برابان ولامبورغ «بلاد الجنرالية» حاجزا رادعا ضد أي هجوم متوقع من الجنوب. هذه المعاهدة، جعلت فرنسا في موقف حرج: ذلك أن الجيش الاسباني الموجود في البلاد الواطئة، بات يستطيع مهاجمة فرنسا وقد حفظ ظهره، بينما كان من قبل يحارب على جبهتين.

هذا الوضع، بالاضافة الى الانزعاج المتزايد من وطأة الحرب، حمل مازاران على تسريع الأحداث، ليعجل بالصلح مع الامبراطور. فأعطى أوامره إلى تورين لاحتلال بافيير، التي كان حاكمها قد قطع الهدنة الموقعة قبل زمن يسير مع فرنسا. بعد أسابيع أحرز الفرنسيون نصرا هاما في زوسمارهاوزن، وكان باستطاعتهم تخريب امارات ماكسيمليان.



NOS FERDINANDUS
TERTIUS DIVINA FAVENTE
Clementia, electus Romanorum Imperator
semper Augustus, Germaniae, Hungariae, Bo-
hemiae, Dalmatiae, Croatiae, Sclavoniae etc. Rex,
Archidux Austriae, Dux Burgundiae, Bra-
bantiae, Styriae, Carinthiae, Carniolae etc. Marchio
Moraviae, Dux Luxemburgiae, superioris ac infe-
rioris Silesiae, Wirtembergae et Teckae, Princeps
Sueviae, Comes Habspurgi, Tyrolis, Kyburgi
et Goritiae, Marchio Sacri Romani Imperii Bur-
goviae, ac superioris et inferioris Lusatiae, Domi-
nus Marchiae Sclavonicae, Portus Naonis et
Salinarum etc. Notum facimus omni-
bus et singulis praesentes litteras inspecturis, le-
cturis vel legi audituris, aut quomodocunque
infrascriptorum notitia ad ipsos pervenire po-
terit: Postquam ob natum in Sacro Romano

□ الصفحة الأول من معاهدة «مونستر» التي عقدت بين فرديناند الثالث ولويس الرابع عشر من «الارشيف الفرنسي».



□ هنري دولاتور دوفرني، فيكونت تورين، من اقدر القادة الفرنسيين.



□ لويس الثاني دوبوربون، دوق انجيان، امير كوندي، صاحب انتصار روكروا.

جزء الامبراطور فرديناند فأرسل ترونسماندورف إلى مونستر ليعقد صلحا مع فرنسا. وفي ٢٠ آب ١٦٤٨ أحرز كوندي انتصارا كبيرا في لانس على الارشيدوق ليوبولد، واقنع الجيش الاسباني في البلاد الواطئة الامبراطوريين بأن من العبث متابعة القتال في الوقت الذي بلغت فيه الجيوش السويدية براغ.

نهاية حلم قديم

أخرت ضرورة تنسيق أعمال المؤتمرين توقيع المعاهدات التي وقعت أخيرا في ٢٤ تشرين الأول ١٦٤٨.

نالت فرنسا ما شاءت. فضمت اليها مقاطعات متزوتول وفردان التي احتلتها قبل مائة عام، واعترف لها بها أخيرا. وحصلت على موقع ستراتيجي هو بريزاك، فهو يشرف على الطريق التي يعبرها الاسبان من ايطاليا إلى البلاد الواطئة. وهو مع فيليبسبورغ يشكلان بوابة مثالية لألمانيا. وحظيت كذلك بالألزاس العليا والدنيا، ولكن ستراسبورغ ظلت مستقلة. وضمّت كذلك مدن ديكابول الألزاسية، ولكن الامبراطورية احتفظت ببعض حقوقها فيها. ولكن رفضت مشاريع مازاران في ايطاليا وهولاندا، فقد كانت فرنسا تهيمن على قطاعات اقتصادية هامة فيها.

وحصلت السويد على البوميراني وسترالسند وبريم وفردين، أي انها باتت تقيم في الدييت الامبراطوري، مع غرامة قدرها خمسة ملايين تالر.

واحتفظ ماكسيمليان دوبافيير الذي حل محل زميله في الدراسة فريديريك الخامس الذي كان يعيش في المعتقل بعد ثورة بوهيميا. وخص شارل لويس ابن ملك بوهيميا السابق، بمقاطعة بالاتينا الرينانية.

وعوض على برندبورغ ومكلنبورغ عن الأراضي التي أعطيت للسويد. أما من الناحية الطائفية فإن صلح ١٥٥٥ عمم على الكالفينيين، وحدد تاريخ ١٦٢٤ كنهاية لاقتطاع الأراضي للكنيسة.

ومنح الأمراء الألمان الحق في التحالف مع أي بلد خارجي دون الرجوع إلى الامبراطور، شرط الا يضر ذلك بمصلحة الامبراطورية.

وقد وضع مؤتمر وستفالي نهاية للحلم القديم بتوحيد المسيحية والامبراطورية الكونية. وتمزقت حدود القرون الوسطى لتفسح المجال أمام ولادة عالم جديد هو عالم أوروبا الدول القائمة على توازن القوى.

ولكنه توازن هش، إذ أن الحروب الفرنسية الاسبانية استمرت احدى عشرة سنة، حين عقد صلح البيريني، في عهد لويس الرابع عشر.

●



□ ادولف هتلر عام ١٩٣٢.

حول المذكّرات المنسُوبَة إلى هتلر!

د. سامي زكي



هل انطوت قصة «مذكرات هتلر»؟ هل صحيح انها كلها مزورة؟ ما هي خلفيات كل ما حدث؟ ما هذه الضجة التي اثارتها المذكرات؟ وما هذا الموقف الدراماتيكي الذي وقفه جيرد هايدمان، محرر المخبر في صحيفة شتيرن، حين اعلن فجاة، على العالم كله، إسم ذلك الرجل الذي اتاه بالمذكرات، بعد أن ظل زمناً يرفض الافصاح عن إسمه، بحجة الحرص على أسماء شخصيات لا يجب توريطها في القضية ويجب «الحرص على حياتها».

اسم الرجل الذي كشف عنه هايدمان، هو كونراد فيشر، اللاجىء من ألمانيا الديموقراطية. وقد سكن في بلتيشايم، في ضواحي شتوتغارت، ويعمل في تجارة الأدوات الحربية، القديمة خاصة، وعلى نحو أخص، ما يتصل بعصر هتلر.

كان فيشر يعلم أن هايدمان يبحث عن أوراق شخصية تعود إلى هتلر، انقذتها من كهف البناء الذي كان فيه الزعيم الألماني في الأيام الأخيرة من الحرب، طائرة أقلعت بها، ولكنها تحطمت عند قرية بورنسدورت، وهي اليوم في قطاع ألمانيا الديموقراطية.

اتصل فيشر بهايدمان وأبلغه أن الأوراق قد عثر عليها جميعا، وأن من بينها وثيقة هامة جدا، وهي «مذكرات هتلر الشخصية»، وأن هذه الوثائق في حوزة صهره، مدير المتحف. وأن أخاه جنرال في الشرطة - وبالتالي فالقضية عائلية - ويمكنه تدبير تمرير الوثائق عبر الحدود، بالاتفاق مع شخص ثالث ينقل كل أسبوع تقريبا بيانويات كبيرة.

حين أعلن هايدمان عن اسم فيشر، أرسلت صحيفة شتيرن رسلها للبحث عنه في محل إقامته، ولكن الرجل كان قد اختفى. أجري بحث دقيق حول شخصيته وما يملك، ورصيده في المصارف، فإذا هو شخص غريب حقا، فقد ولد في لوبو ١٩٣٨ في الساكس، (على بعد خمسين كيلومترا من المكان الذي تحطمت فيه الطائرة التي حاولت انقاذ أوراق هتلر). وفيشر تاجر معروف لدى عدة أشخاص محترمين، يحترفون جمع الوثائق والتحف النادرة. وقد سمى مخزنه «المتحف الحربي»، ووضع لافتة تقول: «الشجاعة والاخلاص»، وفوق كل الأبواب كاميرات لجهاز مراقبة، وحواجز من حديد مشبك.

جيرد هايدمان، محرر مجلة «شتيرن» يعلن اكتشافه مذكرات هتلر.

حقيقة فيشر

اضطر البوليس، في سبيل الدخول إلى المخزن، للاعتماد على السلالم، والعبور عبر النوافذ إلى الطابق الأول. وقد عثروا على مجموعة رائعة من التحف واللوحات والمخطوطات، والكتب القيمة، وبينها «كفاحي» لهتلر، في طبعة نادرة. وعلموا أنه يملك، عدا مخزنه، شقة من سبع غرف في ضاحية شتوتغارت الرائعة. وقد اشتراها عام ١٩٨١ بمبلغ ٦٦٠٠٠٠ مارك.

كان اسم فيشر في المدينة كوجو، وكان يظهر بمظهر مختلف عن مظهره في حياته العملية. فهو يبذر المال كملياردير. يلبس معاطف جلدية، ويعتمر بقبعات صغيرة، ذات مربعات ــ هو أصلع قليلاً ــ ويرتاد حانات «بيغال» «سيسي» و «بيريار». ويضيّف الفتيات بالشمبانيا، التي يبلغ سعر الزجاجة منها (٢٥٠) ماركا. ويصرف ليليا حوالي ألف مارك. ويدفع شهريا كل حساباته، فتبلغ، معظم الأحيان، (٣٠٠٠٠) مارك. ويوصله السائق، فيدفع له مائة مارك بدل ثلاثة. ويقول له نادني «يا جنرالي». وقد حكم عليه عام ١٩٨٠ بغرامة قدرها ٨٠٠ مارك، لأنه أدعى لقب «دكتور» «والجنرال الدكتور» زورا.

ميردوروف يعرض الوثائق

حدث أول اتصال، حول الوثائق، بين ميردوروف وفيشر، عام ١٩٧٨. ولكن لنتابع أحداث هرب فيشر. حين أعلن هايدمان اسم فيشر، وتناقلت البرقيات نبأ هرب فيشر، تقدم هذا من بوليس الحدود، وقال: «لقد اتهمت بعمليات تضليل وتهريب» وأنا أضع نفسي في تصرف السلطات المحلية. إني واثق من أن «مذكرات هتلر» صحيحة مائة بالمائة. وكل ما كتب حول موضوع التزوير مختلق.

الواقع أن ميردورف، حين اتصل بفيشر عام ١٩٧٨، عرض عليه نماذج من «مذكرات هتلر» فحملها فيشر إلى جامع وثائق وتحف اسمه أوغوست فريتز ستيفل. وقد قرر أن الوثائق صحيحة، وأنها بخط هتلر، الذي لا يحسن فيشر تقليده فهو من النمط «الغوطي Gothique» الصعب التقليد. واتصل ستيفل بالبروفسور بريزك الذي كان حافظ أرشيف النازية، وكان هتلر كلفه بجمع وثائق الرايخ الثالث، مع البروفسور جاكل، الذي يعلم التاريخ الحديث في شتوتغارت. وقد أكد الاثنان أن الوثائق صحيحة ثابتة. وزاد بريزاك أنها لا بد أن تكون اخذت من الطائرة التي سقطت وهي تحمل الوثائق.

وانبأ بريزاك هايدمان بالأمر، فاتصل هذا بفيشر وألح عليه بضرورة الحصول على الوثائق.

يقول فيشر إن هايدمان دفع له مقدما (١٥٠٠٠٠) مارك. ولكني رفضت المبلغ. فأتاني ببزة كانت لغورينغ، وهذا مغر بالفعل، لذلك اتفقت معه على شراء الوثائق».

وقد نظمت عملية نقل الوثائق عبر الحدود بين الألمانيتين. فكان فيشر يأتي ببعضها، ويأتي هايدمان ببعضها الآخر. ولكن هايدمان خاف وطلب من فيشر أن يقوم بنفسه بنقل الوثائق.

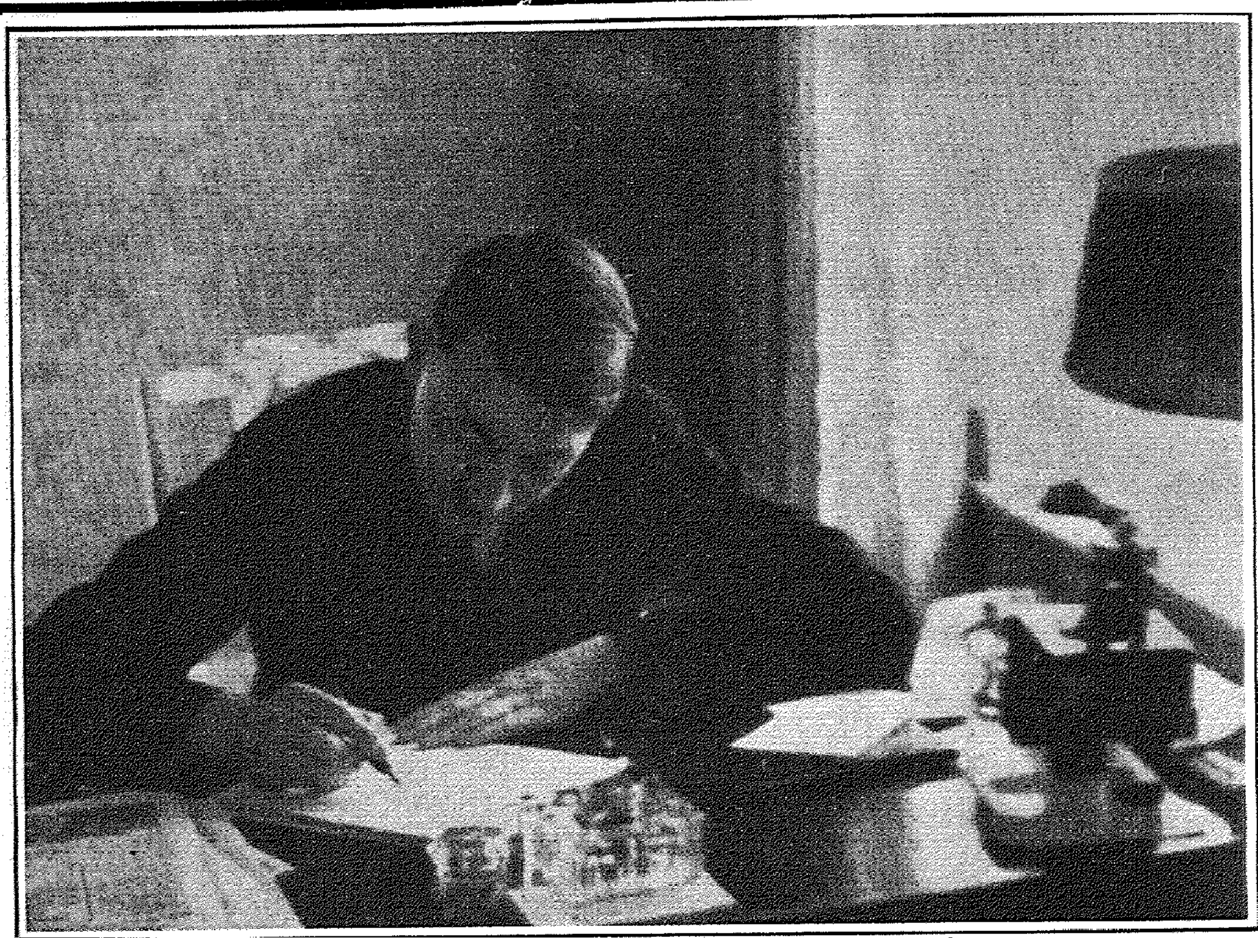
خلاف حول الناحية المالية

واستخدم شخص ثالث كوسيط، يسلم الوثائق في سويسرا

□ المذكرات المزورة!



□ هتلر وموسوليني



□ أدولف هتلر يكتب مذكراته.

واسمه لانزر. وهكذا حصل فيشر على باقي دفاتر المذكرات.

أما قضية الصهر، والأخ الجنرال، فكلها مختلفة، وقد تلفن فيشر من تشيكوسلوفاكيا لهايدمان يقول له إنه اختلق ذلك ليؤكد صحة الوثائق، وليحمله على شرائها، مع أنها حقيقية.

على أن فيشر وهايدمان اختلفا، عند التحقيق حول المبلغ الذي دفع للأول. تقول شتيرن إنها دفعت لهايدمان تسعة ملايين مارك، خلال فترات الشراء، وحسب الصفقة، أي كمية الوثائق المرسلة إلى المجلة. أما فيشر فيقول إنه لم يستلم إلا مليونين ونصف المليون، بما في ذلك حصته، وحصة الوسيط، وأجرة النقل، والمصاريف الأخرى. ويؤكد أن حصته بلغت ثلاثمائة الف مارك، بينما أخذ ميردورف القسم الأكبر.

أين الحقيقة؟

مهما كان من أمر الاختلاف حول المال. فهل كان فيشر غير واثق من الوثائق؟ إنه يؤكد حتى الساعة أنها صحيحة! كما أكد ذلك من قبل اثنان من المختصين بالوثائق، خاصة المتصلة بالرايخ الثالث.

ويؤكد هايدمان أنه لم يشك لحظة في صحة الوثائق. فلماذا انهار كل شيء دفعة واحدة؟ هل كان فيشر ضحية فخ نصبه ميردورف؟ ثم تبعت سلسلة الفخاخ، فوقع فيها هايدمان وشتيرن.

هل فيشر جاسوس لالمانيا الديموقراطية، نفذ مخططا ما؟

هل ميردورف قادر على تقليد خط هتلر على هذا النحو الذي لا تجد فيه خطيئة واحدة خلال مئات الصفحات؟ هل كان يستعين بجهاز تقنين يقومون بالتقليد؟

يقول العارفون إن الأسلوب هو اسلوب هتلر، فكيف، إذن، حدثت هذه الحركة المفاجئة الدراماتيكية، التي نقضت ادعاء نسبة الوثائق إلى هتلر؟

يقول محققون آخرون إن ثمة تعابير والفاظا لم يستخدمها هتلر أبدا. وإن ثمة فرقا في بعض الأحرف بين خط هتلر وخط الوثائق!

فأين هي الحقيقة؟

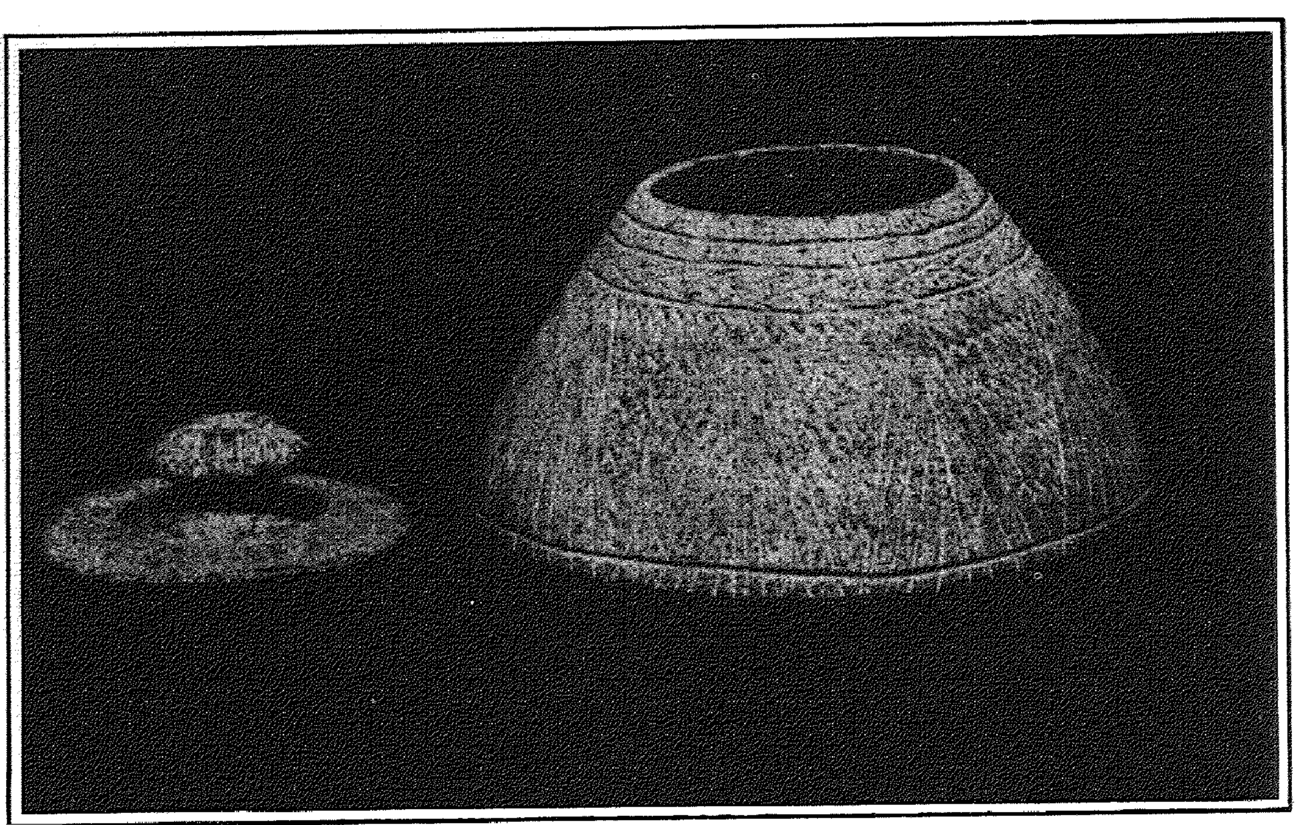
●



التنقيب في موقع القصيص في إمارة دبي

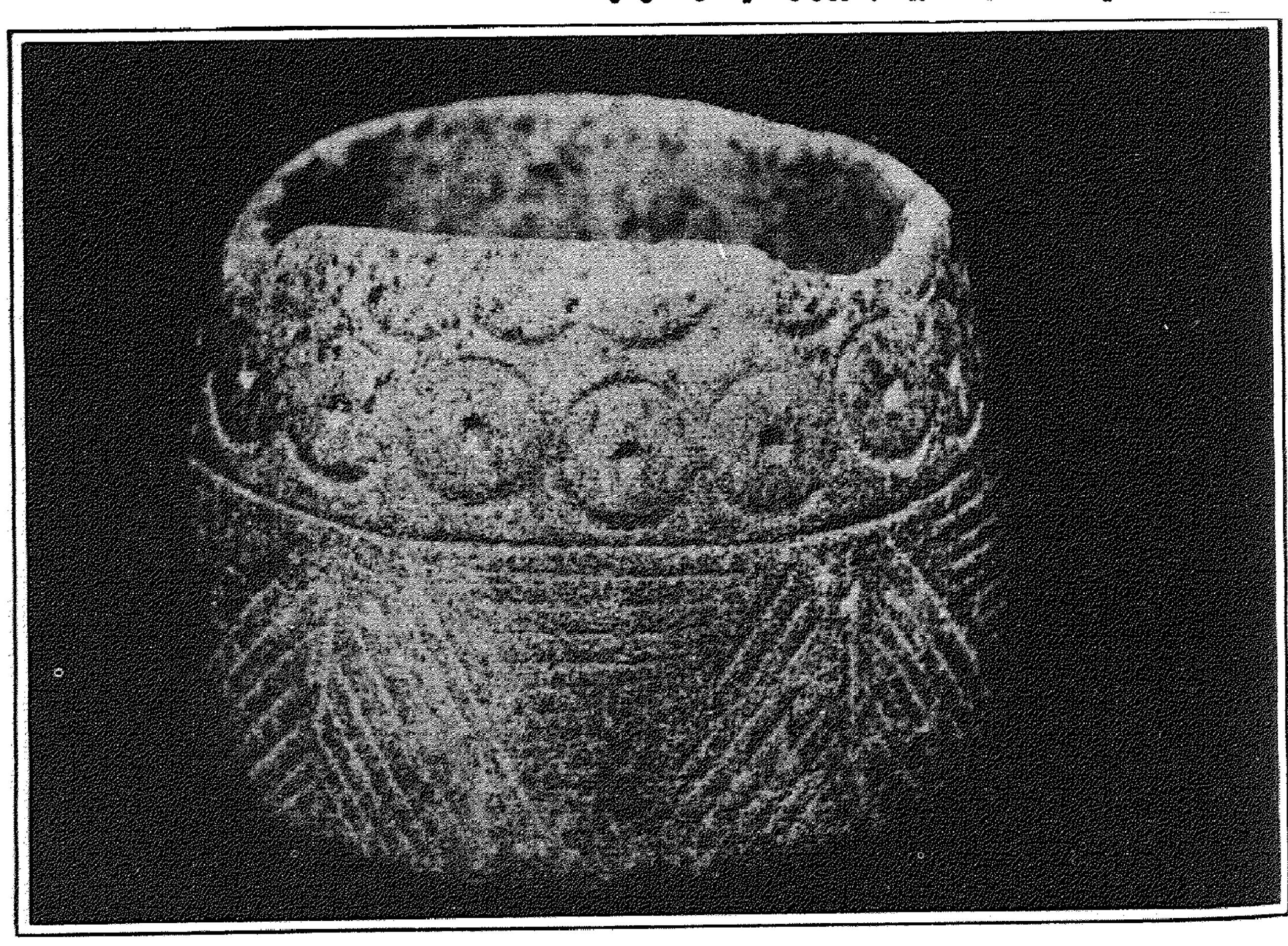
يقع موقع القصيص شرق مدينة دبي على بعد ثلاثة عشر كيلومتر ويتكون من تلول جصية صلبة متباعدة ومتباينة الارتفاع والمساحة. لا يتجاوز ارتفاع أعلاها عن سطح الأرض أكثر من مترين ملتقطاته السطحية قليلة لا تتعدى الكسر الفخارية الملونة والعادية مع كسر محززة لأواني صنعت من حجر (Steatite) على جزء من هذا الموقع أقيمت مقبرة القصيص الجديدة حيث يمكن ملاحظة بعض المخلفات الأثرية مبعثرة بين القبور المحفورة حديثا.

لقد ركزت البعثة العراقية التي تولت التنقيب في هذا الموقع عملها في مجموعة القبور القديمة



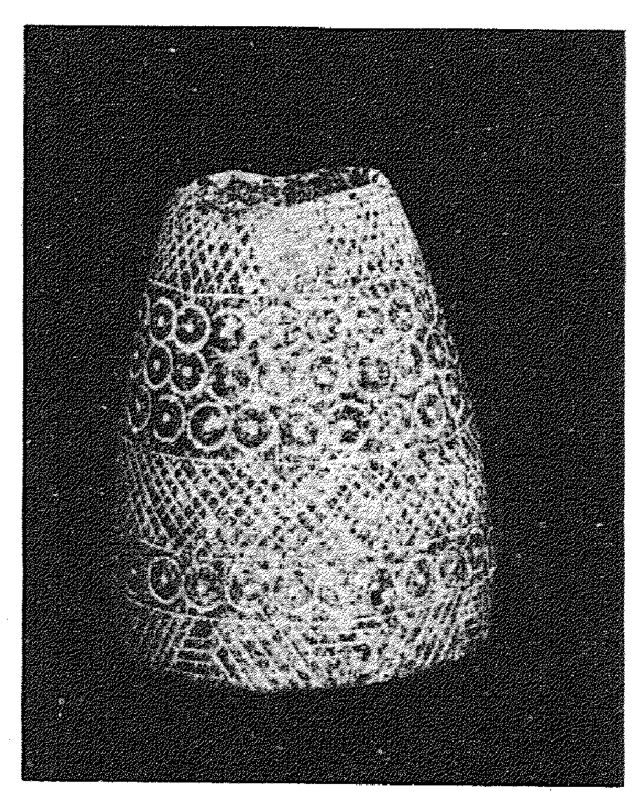
□ إناء حجري محزز مع غطاءه من موقع القصيص(١١٠٠ــ ١٠٠٠ ق. م.) □

□ كاس حجري من القصيص مزين بحزوز وصفين من الدوائر المنقطة □



التي استطاعت أن تكشف عنها والمجاورة لسور المبرة الحديثة. وفي مناطق (أ، ب، ج) كشف ولحد الآن عن عشرين قبرا ترجع جميعا إلى فترة زمنية واحدة يمكن حصرها مبدئيا بنهاية الألف الثاني وبداية الألف الأول قبل الميلاد. وذلك استنادا إلى مقارنة المكتشفات الأثرية مع مثيلاتها من بديع بنت سعود. وما يجدر ذكره أن قبور القصيص تختلف من حيث أشكالها عن القبور الأخرى المعروفة ومنها قبور حفيت وهيلي وكذلك بنت سعود، فقبور القصيص عبارة عن حفر مستطيلة أو بيضوية قطعت في الأرض ووضعت فيها جثث الموتى مزودة بالهدايا المختلفة ثم غطيت فيها بعد بأحجار مرصوفة. أما الهدايا التي زودت بها هذه المدافن فتشمل موادا حجرية وبرونزية/ نحاسية تشمل أواني وكؤوس وأكواب إضافة إلى أدوات الزينة.

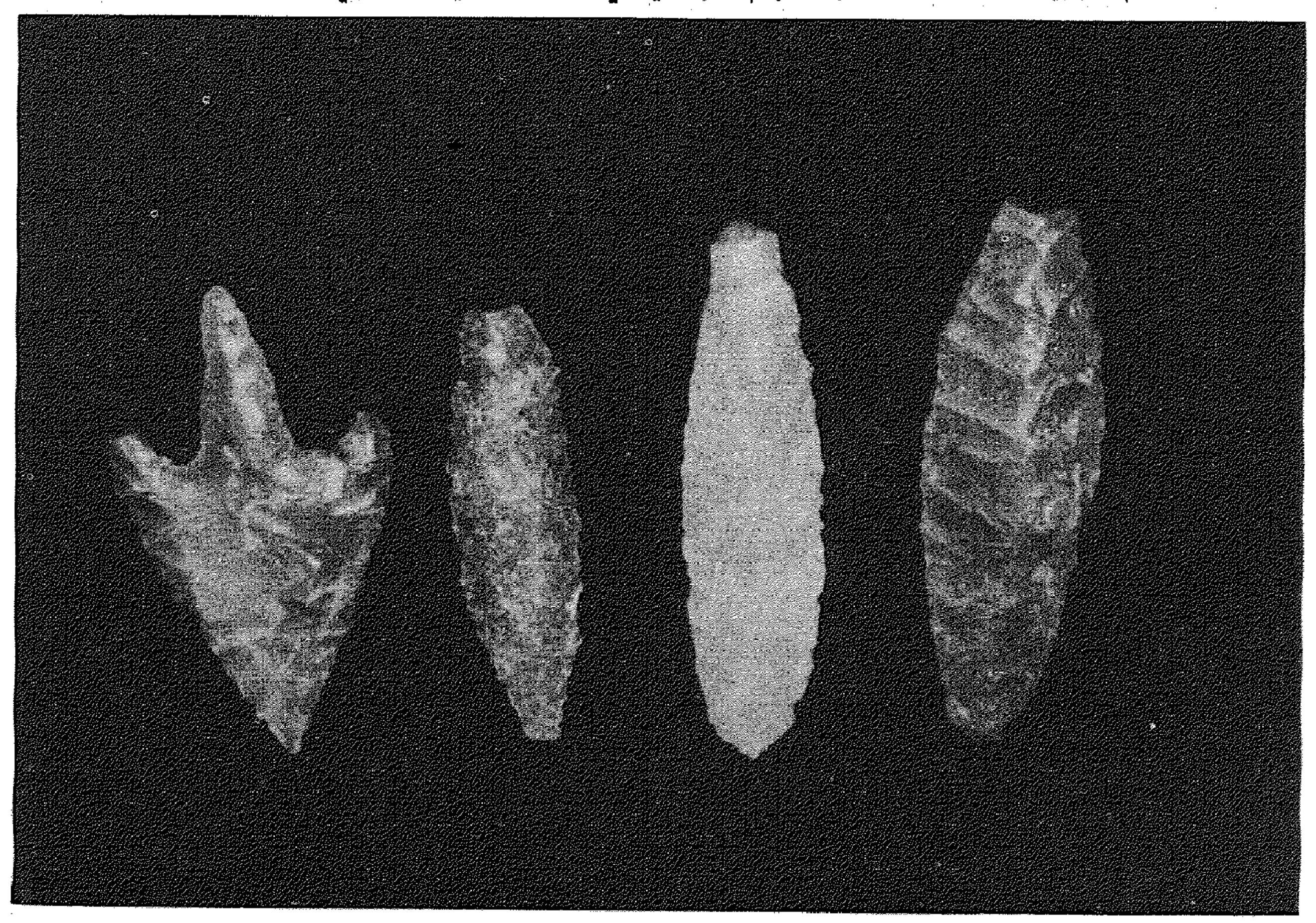
وفي النقطة (أ) كشف عن قبر واحد فقط فريد الشكل أقيم على تل صغير قليل الارتفاع وذلك بقطع خندق مستطيل الشكل ٨,٦٠ ×

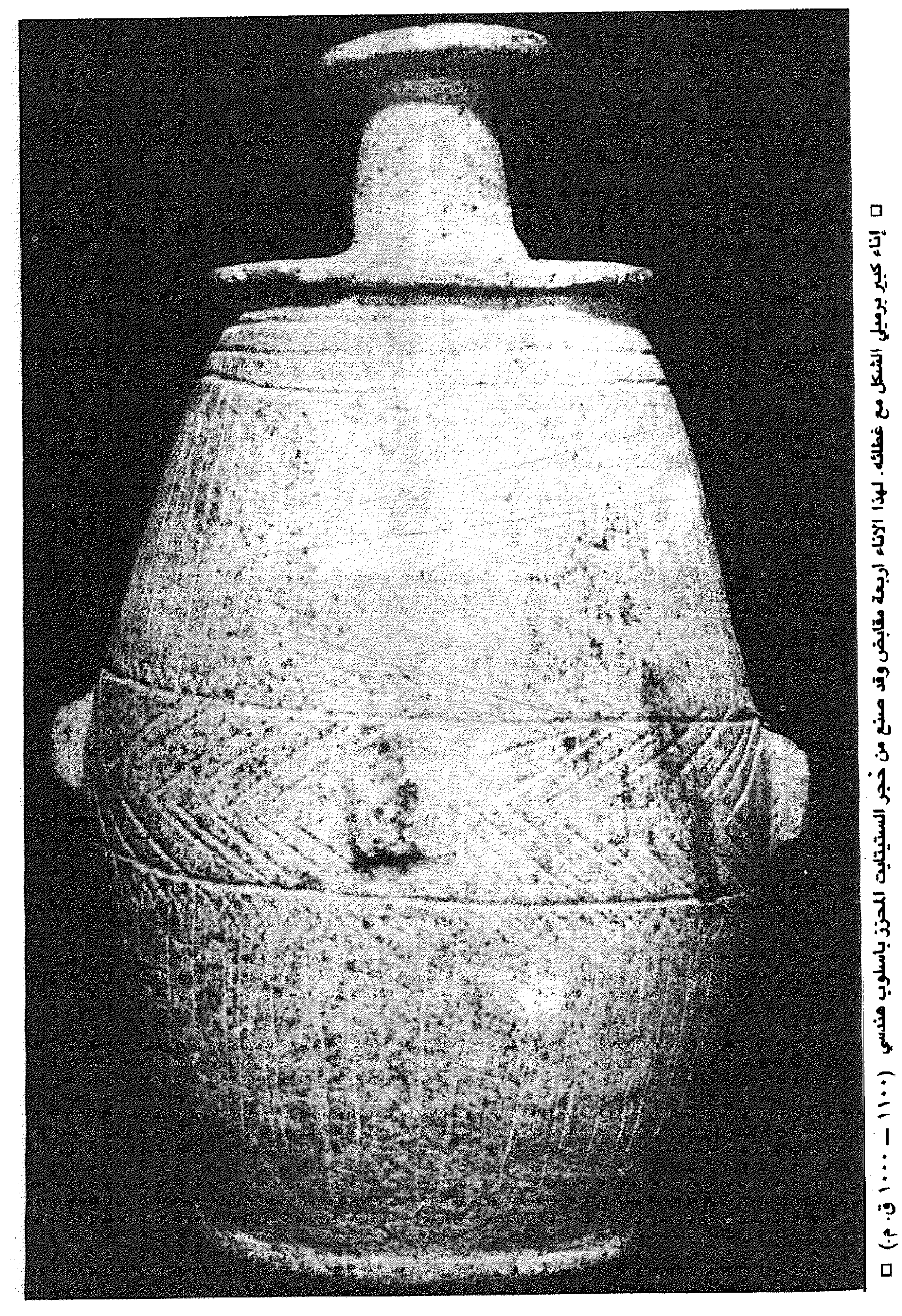


□ كاس صغير من الستيتايت مزين بخطوط محززة متقاطعة وعدة صفوف من دوائر تتوسطها نقطة من موقع القصيص ــ دبي (١١٠٠ــ ١٠٠٠ ق. م).

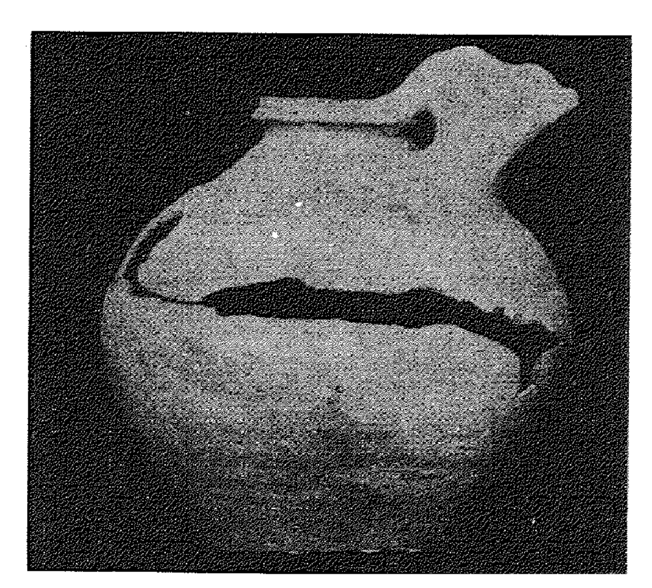


□ رؤوس سهام حجرية مختلفة الأشكال والأحجام عثر عليها في مدافن القصيص ــ دبي □





□ إناء كبير برميلي الشكل مع غطائه. لهذا الإناء اربعة مقابض وقد صنع من حجر الستيتايت المحزز باسلوب هندسي (١١٠٠ — ١٠٠٠ ق.م.) □



□ **جرة فخارية ذات مصب عريض عثر عليها في موقع القصيص ـــ دبي (١١٠٠ ـــ ١٠٠٠ ق. م).**

٢,٥٠م وبعمق متر واحد وضعت بداخله جثث الموتى ومتاعهم ثم أحيط بجدار من الأحجار المثبتة بالطين بارتفاع ٨٠ سم وغطي فيما بعد بالأحجار. وقد أقيمت على امتداد أحد ضلعي القبر مرافق تتكون من ثلاث غرف صغيرة تتعامد على حفرة القبر المستطيلة.

وفي النقطة (ب) المجاورة للنقطة (أ) كشف عن قبر اخر مستطيل الشكل (طوله ٥,٧٥ م وعرضه ١,٢٠ م، وعمقه ٩٥ سم) يمتد أسفل سور المقبرة الحديثة.

وفي النقطة (ج) كشف عن عدة قبور متقاربة (١٨ قبرا) وهي تشابه القبور السابقة ومن نفس العصر الزمني بدليل تشابه المواد النحاسية والفخارية والحجرية.

إن الشيء الذي يلفت النظر هو كثرة الأواني البرونزية/ النحاسية ذات المصبات الطويلة وكثرة الخرز المعمول من أحجار كريمة ورؤوس السهام البرونزية وقد عثر كذلك على مثقب طوله عشرة سنتمترات ذو مقبض من العظم ورأس مدبب من الحديد. ●



□ **غطاء من حجر الستيتايت، القصيص ـــ دبي (١١٠٠ ـــ ١٠٠٠ ق. م).**

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي



صدر العدد الأول في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨
تصدر في منتصف كل شهر عن « دار النشر العربية »
صاحبها ورئيس تحريرها : فاروق البربير



الاشتراكات

- للأفراد في لبنان .... ١٠٠ ل.ل.
- للأفراد في الوطن العربي .... ١٢٥ ل.ل.
- للأفراد في دول العالم الأخرى ..... ١٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في لبنان .... ٢٥٠ ل.ل.
- للمؤسسات والدوائر الحكومية في الوطن العربي .... ٧٥ دولاراً
- للمؤسسات والدوائر الحكومية خارج الوطن العربي .... ١٠٠ دولار

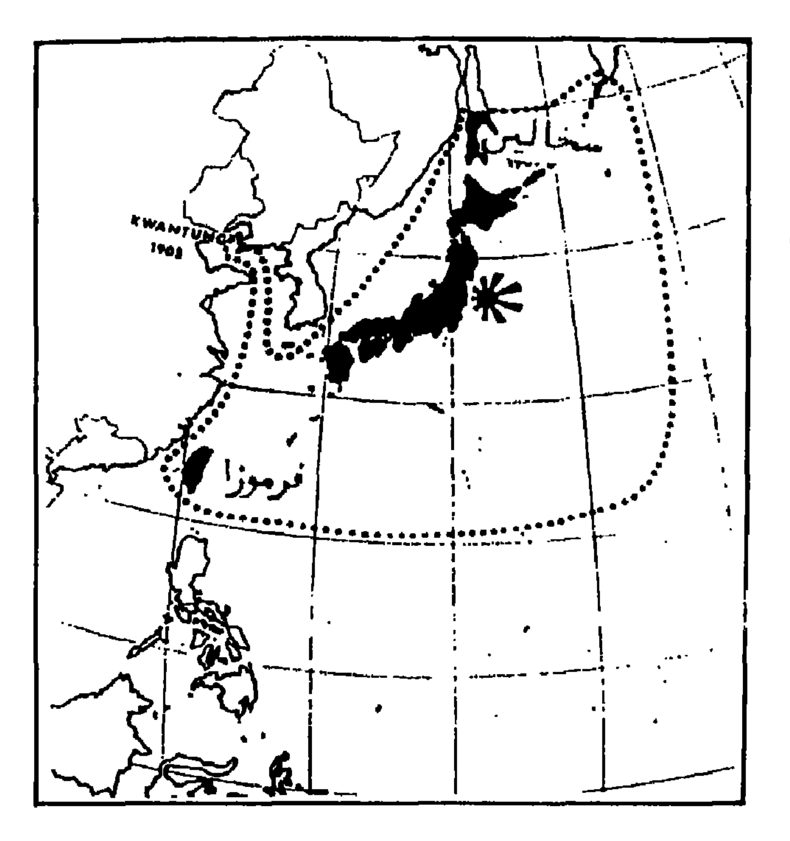
جميع المراسلات توجه باسم رئيس التحرير

بناية ابو هليل - شارع السادات - بيروت - لبنان - ص . ب . / ٥٩٠٥ / هاتف : ٨٠٠٧٨٣



مُعاهدة بورتسماوث (٥ أيلول ١٩٠٥) بين روسيا واليابان

قسم «التوثيق والأبحاث»



في ٥ ايلول سنة ١٩٠٥ وبناء على دعوة الرئيس الاميركي ثيودور روزفلت، ذهب مندوبو روسيا واليابان الى بورتسماوث، نيوهامبشاير في الولايات المتحدة الاميركية ووقعوا معاهدة بورتسماوث بين البلدين. وقد نصت المعاهدة على ما يلي:

اولا: يعم السلام والوئام من الان فصاعدا بين صاحبي الجلالة امبراطور اليابان وامبراطور روسيا وبين دولهما ورعاياهما.

ثانيا: تعترف الحكومة الروسية بمصالح اليابان السياسية، العسكرية والاقتصادية في كوريا متعهدة بعدم اعاقة او التدخل في حجم السيطرة التي تراها اليابان مناسبة لسيطرتها على كوريا.

ويفهم من ذلك، ان رعايا روسيا في كوريا يعاملون نفس المعاملة التي يلقاها رعايا الدول الاخرى. ولتلافي اي التباس، يمتنع الفريقان المتعاقدان عن القيام باي اجراءات عسكرية على الحدود الروسية ـ الكورية قد تهدد امن روسيا وكوريا.

ثالثا: تتعهد كل من روسيا واليابان باخلاء منشوريا ما عدا المنطقة التابعة لشبه جزيرة لياوتونغ المؤجرة ومن ثم اعادتها الى الصين. كما تعلن روسيا انه ليست لديها اي مصالح تمس السيادة الصينية.

رابعا: تتعهد كل من روسيا واليابان بعدم اعاقة اعمال الدول التي تتعامل مع الصين بشأن تنمية منشوريا تجاريا وصناعيا.

خامسا: تحول الحكومة الروسية الى الحكومة اليابانية بموافقة الحكومة الصينية تأجير «بورث ارثر» وتالين والمناطق المجاورة والمياه الاقليمية وكل الحقوق والامتيازات المتعلقة بالايجار

المذكور، كما تتعهد اليابان بحق الملكية للرعايا الروس في المنطقة المذكورة اعلاه.

سادسا: تتنازل الحكومة الروسية للحكومة اليابانية وبموافقة الحكومة الصينية عن خط سكة الحديد بين بورث ارثر وشانغ شون بما في ذلك جميع مناجم الفحم وجميع الحقوق والامتيازات المتعلقة بتلك المنطقة.

سابعا: يتعهد الفريقان باستعمال سكة الحديد في منشوريا لاهداف تجارية وصناعية وليس لاهداف استراتيجية.

ثامنا: تضع كل من روسيا واليابان ميثاقا يحددان فيه كيفية اتصال شبكتيهما الحديديتين في منشوريا.

تاسعا: تسلم الحكومة الروسية الجزء الجنوبي من جزيرة سخالين والجزر المجاورة الى اليابان ويكون خط العرض ٥٠ شمالا الحد الفاصل بين جنوب وشمال الجزيرة.

عاشرا: يحق للرعايا الروس في المنطقة المسلمة الى اليابان ان يبيعوا ممتلكاتهم ويعودوا الى وطنهم روسيا. واذا فضلوا ان يبقوا في تلك المنطقة فسوف تؤمن حمايتهم وحماية صناعاتهم شريطة ان يخضعوا للقوانين اليابانية. كما يكون لليابان كامل الحرية لسحب حق الاقامة او ان تنفي اي شخص غير مرغوب به بدون المس بكرامته.

حادي عشر: تتعهد روسيا بأن تسهل للرعايا اليابانيين حق الصيد في بحر اختسك وبرنغ.

اثنا عشر: تقوم روسيا واليابان بعقد اتفاقية تجارية وملاحية تقوم مقام الاتفاقية القديمة التي ألغتها الحرب.

ثالث عشر: يتم تبادل الاسرى حالما تطبق هذه المعاهدة.

رابع عشر: تصدق المعاهدة من امبراطور اليابان وامبراطور روسيا في مدة اقصاها ٥٠ يوماً من توقيع المعاهدة، ويبلغ التصديق الى امبراطور اليابان وروسيا بواسطة السفير الفرنسي في طوكيو وسفير الولايات المتحدة في بطرسبرج وعندها تصبح المعاهدة سارية المفعول. ●

المراجع

— Latourette, K.S. *The History of Japan.* New York: MacMillan, 1947.
— Wren, M.C. *The Course of Russian History.* New York: MacMillan, 1963.



قسيمة اشتراك

إقطع هذه القسيمة وأرسلها مرفقة بقيمة الاشتراك باسم مجلة تاريخ العرب والعالم الى العنوان التالي:

شارع السادات - بناية أبو هليل - ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان

الإسم الكامل: ____________________

العنوان: ____________________

المدينة: ____________________

الامضاء: ____________________

أرفق اشتراكي: ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريدية

اشتراك لمدة: ☐ سنة (١٢ عدد)

عمر بن الخطاب* وغنائم المسلمين

بعث عمر سلمة بن قيس الأشجعي إلى طائفة من الاكراد كانوا على الشرك؛ فخرج إليهم في جيش أرسله معه من المدينة.

فلما انتهى إليهم دعاهم إلى الاسلام أو إلى أداء الجزية، فأبوا، فقاتلهم فنصره الله عليهم؛ فقتل المقاتلة، وسبى الذرية، ووجد حلية وفصوصا وجواهر، فقال لأصحابه: أتطيب انفسكم ان نبعث بهذا إلى أمير المؤمنين؛ فإنه غير صالح لكم، وإن على أمير المؤمنين لمئونة واثقالا، قالوا: نعم، قد طابت انفسنا.

فجعل الجواهر في سفط[1]، وبعث به مع واحد من أصحابه، وقال له: سر فإذا اتيت البصرة فاشتر راحلتين فأوقرهما[2] زاداً لك ولغلامك، وسر إلى أمير المؤمنين.

قال: ففعلت فأتيت عمر وهو يُغذى الناس قائما متكئا على عصا كما يصنع الراعي، وهو يدور على القصاع؛ فيقول: يا يرفا[3]، زد هؤلاء لحماً، زد هؤلاء خبزا، زد هؤلاء مرقة.

فجلست في أدنى الناس، فإذا طعام فيه خشونة، طعامي الذي معي أطيب منه. فلما فرغ أدبر فاتّبعته، فدخل دارا فاستأذنت، ولم أُعلم حاجبه من أنا، فأذن لي، فوجدته في صفة[4] جالسا على مسح[5] متكئا على وسادتين من أدم[6] محشوتين ليفاً، وعليه ستر من صوف، فنبذ إلى إحدى الوسادتين، فجلست عليهما.

فقال: يا أم كلثوم، الا تعدوننا؟ فأخرجت إليه خبزة[7] بزيت في عرضها ملح لم يدق، فقال: يا أم كلثوم، الا تخرجين إلينا تأكلين معنا؟ فقالت: إني اسمع عندك حس[8] رجل، قال: نعم، ولا أراه من أهل هذا البلد. فقالت: لو أردت أن أخرج إلى الرجال لكسوتني كما كسا الزبير امرأته، وكما كسا طلحة امرأته!

قال: أو ما يكفيك أنك أم كلثوم ابنة علي بن ابي طالب، وزوجة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب؟ قالت: إن ذاك عندي لقليل الغناء! ثم قال: كل، فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا. فأكلت قليلا، وطعامي الذي معي أطيب منه. وأكل، فما رأيت أحدا احسن أكلا منه، ما يتلبث[9] طعامه بيده ولا فمه.

ثم قال: اسقونا، فجاءوا بعسّ[10] من سلت[11]، فقال: اشرب، فشربت قليلا، وإن سويقي الذي معي لأطيب منه، ثم أخذه فشربه حتى قرع القدح جبهته.

ثم قال: الحمد لله الذي أطعمنا فأشبعنا، وسقانا فأروانا؛ إنك يا هذا لضعيف الأكل ضعيف الشرب.

فقلت: يا أمير المؤمنين، إن لي حاجة، قال: ما حاجتك؟ قلت: أنا رسول سلمة بن قيس، قال: مرحباً بسلمة ورسوله، فكأنما خرجت من صلبه — حدثني عن المهاجرين كيف هم؟ قلت: كما تحب — يا أمير المؤمنين — من السلامة والظفر والنصر على عدوهم. قال: كيف أسعارهم؟ قلت: ارخص أسعار؛ قال: كيف اللحم فيهم فإنه شجرة العرب ولا تصلح العرب إلا على شجرتها؟ قلت: البقرة فيهم بكذا، والشاة فيهم بكذا. ثم قلت: سرنا يا أمير المؤمنين حتى لقينا عدونا من المشركين، فدعوناهم إلى الذي أمرتَ به من الاسلام فأبوا، فدعوناهم إلى الخراج فأبوا؛ فقاتلناهم فنصرنا الله عليهم، فقتلنا المقاتلة، وسبينا الذرية، وجمعنا الثروة، فرأى سلمة في الأموال حلية، فقال للناس: اتطيب انفسكم أن أبعث بها إلى أمير المؤمنين؟ قالوا: نعم! ثم استخرجت سفطي ففتحته.

فلما نظر إلى تلك الفصوص من بين أحمر وأخضر وأصفر، وثب وجعل يده في خاصرته يصيح

صياحا عاليا ويقول: لا أشبع الله إذن بطن عمر — يكررها!

فظن النساء أني جئت لأغتاله، فجئن إلى الستر فكشفنه، فسمعنه يقول: لفَّ ما جئت به، يا يرفأ، جأ عنقه[12]! فأنا أصلح سفطي، ويرفأ يجأ عنقي!

ثم قال: النجاء النجاء! قلت: يا أمير المؤمنين فاحملني! فقال: يا يرفأ، أعطه راحلتين من إبل الصدقة، فإذا لقيت أحداً أفقر إليهما منك فادفعهما إليه.

وقال: أظنك ستبطىء، أما والله لئن تفرق المسلمون في مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لأفعلن بك وبصاحبك الفاقرة[13].

قال: فارتحلت حتى أتيت إلى سلمة بن قيس، فقلت: لا بارك الله فيما اختصصتني به! اقسم هذا في الناس قبل أن تصيبني وإياك فاقرة، فقسمه فيهم، فكان الفص يباع بخمسة دراهم وبستة وهو خير من عشرين ألفا.

(*) ابن أبي الحديد: ٣:١٥٧.
(١) السفط: كالجوالق او كالقفة، جمعه اسفاط.
(٢) أوقر الدابة: حملها.
(٣) يرفأ: مولى عمر بن الخطاب.
(٤) الصفة من البنيان: شبه البهو الواسع.
(٥) المسح: ثوب من الشعر غليظ.
(٦) الأدم: جمع للأديم: وهو الجلد.
(٧) الخبزة: عجين يوضع في الملة حتى ينضج، والملة: الرماد والتراب الذي أوقد فيه لنار.
(٨) الحس: الصوت الخفي.
(٩) لا يتوقف.
(١٠) العس: القدم العظيم.
(١١) السلت: الشعير.
(١٢) وجأت عنقه: ضربته.
(١٣) الفاقرة: الداهية.

وامعتصماه*

وقف رجل على المعتصم[1] فقال: يا أمير المؤمنين؛ كنت بعمورية[2] وجارية من احسن النساء سيرة، قد لطمها علج[3] في وجهها، فنادت: وامعتصماه! فقال العلج: وما يقدر عليه المعتصم! يجيىء على أبلق وينصرك! وزاد ضربها.

فقال المعتصم: وفي أي جهة عمورية؟ فقال له الرجل — وأشار إلى جهتها: ها هي ذي؛ فرد المعتصم وجهه إليها، وقال: لبيك ايتها الجارية، لبيك؛ هذا المعتصم بالله أجابك. ثم تجهز اليها في اثني عشر ألف فرس أبلق، وحاصرها.

ولما طال مقامه عليها جمع المنجمين فقالوا له: إنا نرى أنك ما تفتحها الا في زمان نضج العنب والتين، فشق عليه ذلك واغتم، وخرج ليلة مع بعض حشمه متجسسا في العسكر يسمع ما يقول الناس، فمر بخيمة حداد يضرب نعال الخيل، وبين يديه غلام أقرع قبيح الصورة، وهو يضرب على السندان ويقول: في رأس المعتصم! فقال له معلمه: أتركنا من هذا، مالك وللمعتصم! فقال: ما عنده تدبير، له كذا وكذا يوما على هذه المدينة مع قوته ولا يفتحها، لو اعطاني الأمر ما بات غدا الا فيها.

فتعجب المعتصم مما سمع، وترك بعض رجاله موكلا به، وانصرف الى خبائه، فلما اصبح جاءوا به، فقال: ما حملك يا هذا على ما بلغني عنك؟ فقال الرجل: الذي بلغك حق، ولو وليتني الحرب فإني أرجو أن يفتح الله عليك. فقال: قد وليتك، وخلع عليه وقدمه على الحرب، ففتح الله عليه، ودخل المعتصم المدينة، ولم يثبت قول المنجمين.

ثم دعا بالرجل الذي بلغه حديث الجارية، فقال له: سر بي الى الموضع الذي رأيتها فيه، فسار به، واخرجها من موضعها، وقال لها: يا جارية، هل اجابك المعتصم؟ ثم ملكها العلج الذي لطمها، والسيد الذي كان يملكها وجميع ماله[4].

(*) محاضرات الابرار: ٢ — ٦٣.
(١) خليفة من اعاظم خلفاء الدولة العباسية وهو فاتح عمورية توفي سنة ٢٢٧هـ.
(٢) عمورية: بلدة من بلاد الروم.
(٣) العلج: الواحد من كفار العجم.
(٤) وفي هذه يقول ابو تمام قصيدته:

السيف أصدق أنباء من الكتب
في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في
متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الأرماح لامعة
بين الخميسين لا في السبعة الشهب
وخوفوا الناس من دهياء داهية
إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
تخرصاً وأحاديثا ملفقة
ليست بنبع إذا عدت ولا غرب

ثم عرض بتاريخ المنجمين في التين والعنب فقال:

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت
جلودهم قبل نضج التين والعنب

أحمد بن حنبل

قسم التوثيق والأبحاث

أحمد بن حنبل — هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، اشتهرت نسبته إلى جده حنبل إذ كان أشهر من أبيه فقد كان واليا للأمويين على مرخس من أعمال خراسان وكان إلى ذلك من دعاة الخلافة العباسية الذين نالهم بسبب ذلك بعض الأذى، أما والده فقد كان جنديا وقد ولد أحمد ببغداد عام ٧٨٠ (١٦٤هـ) بعد أن انتقلت إليها أمه حاملا به من مرو التي كان يقيم بها والده. ولم يلبث أن فقد أباه فكلاته أمه وأقامت على تربيته ورعايته فنشأ ببغداد وكانت عاصمة الخلافة العباسية التي زخرت بأنواع المعارف والفنون والعلوم ففيها القراء والمحدثون والفقهاء والصوفية وعلماء اللغة والفلاسفة. فكان لكل هؤلاء أثر في نشأته وثقافته ولقد جلس أول ما جلس لطلب العلم أمام أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب أبي حنيفة فأخذ عنه الفقه والحديث فرأى أن الحديث أصل للفقه ومعين له. فاتجه إلى دراسة الحديث وحفظه وكان للحديث مكانته ومنزلته في هذا العصر حتى لقد انتشر أصحابه في جميع البلاد الاسلامية. فابتدأ بدراسة الحديث وحفظه وروايته من ٧٩٥ (١٧٩هـ) إذ جلس إلى الامام هشيم بن بشير بن أبي حازم الواسطي المتوفي عام ٧٩٩ (١٨٣هـ) وكان في أيام حياته يتلقى الحديث من غيره أحيانا ويحضر فقد روي أنه سمع أيضا من عمير بن عبد الله بن خالد وغيره. وبعد موت هشيم أخذ يطلب الحديث ويتتبعه حيث وجده ومكث في بغداد إلى ٨٠٢ (١٨٦هـ) إذ ابتدأ رحلاته طالبا للحديث فرحل إلى البصرة وإلى الحجاز وإلى اليمن وإلى الكوفة وتوالت رحلاته إلى البلاد وتكررت فقد رحل إلى البصرة خمس مرات وإلى الحجاز خمس مرات حيث التقى بالشافعي وأخذ عنه كما أخذ عن عثمان بن عينية ثم التقى بالشافعي مرة أخرى بالحجاز وحبب إليه السفر إلى مصر ولكنه لم يوفق إلى ذلك.

وقد دأب، رضي الله عنه، في طلب الحديث وروايته حتى بعد أن بلغ مبلغ الامامة فيه ولقد قيل له في ذلك إلى متى وقد بلغت هذا المبلغ وصرت إمام المسلمين فقال: مع المحبرة إلى المقبرة.

وكان، رحمه الله، معنيا بتدوين كل ما يسمع من أحاديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وآثار أصحابه وفتاوى السلف من التابعين غير معتمد على حافظته وقدرته أضف إلى ذلك أن العصر كان عصر تدوين وتأليف ففيه دون الفقه ودون الحديث ودونت علوم اللغة وكان لذلك إذا حدث لا يحدث إلا من كتاب مع قوة حافظته حتى يكون على ثقة مما يروى.

ولم يكن احتفاء أحمد، رضي الله عنه، بالرواية وفتاوى الصحابة وآثارهم العلمية وما نقل من التابعين من أراء بصارف عن النظر في غيرها بل كان إلى هذا باحثا مستنبطا ناظرا في أقوال الفقهاء متخيرا منها ما تسنده النصوص فكان لذلك صاحب فتوى وصاحب رأي ونظر يقضي برأيه فيما لا يجد فيه تضامن النصوص يدل على حكمه ولذا كان الفقه والاستنباط فيه من أهدافه ولهذا التقى الحديث والفقه في أحمد، رضي الله عنه، فكان المحدث وكان الفقيه — غير أنه قد أثر عنه في الحديث مسنده وهو أثر من أخلد أثاره وأعظمها فائدة حوى أربعين ألف حديث اختارها من سبعمائة ألف حديث وخمسين ألفا كان يحفظها وفيه يقول أحمد ما اختلفتم فيه من حديث رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فارجعوا إليه فإن وجدتموه وإلا فليس بحجة — وهو قول يدل على ان هذا المسند قد جمع كل ما يصح ان يحتج به من حديث الرسول وليس نصا في ان كل ما يحويه من الأحاديث قد جانبه الضعف وان ذهب بعض العلماء إلى أن كل ما يحويه صحيح.

لقد أثر عن أحمد هذا المسند وهو عمل عظيم ولم يؤثر عنه في الفقه أي أثر وإنما أثرت أقواله

ونقلت إلينا برواية أصحابه وتكونت من ذلك مجموعة أحكام فقهية عظيمة منسوبة إليه. ويعزو ابن القيم عدم تركه لأثر فقهي مكتوب إلى أنه كان شديد الكراهية لتصنيف الكتب في غير الحديث ولكن الله قد علم حسن نيته فقبض له من تلاميذه وأصحابه من عني بتدوين كلامه وآرائه وفتاويه فجمع الخلال من ذلك في جامعه الكبير ما بلغ نحو عشرين سفرا كما جمع غيره كذلك مقدارا عظيما من ذلك حتى صار فقهه مذهبا له أتباع كثيرون في كثير من الأقطار الاسلامية ولعدم تركه أثرا مكتوبا في الفقه مع تركه ذلك الأثر الخالد في الحديث وهو مسنده طغت على فقهه نزعته إلى الحديث حتى لقد عده بعض العلماء محدثا ولم يعده فقهيا. ولكن الواقع أنه كان فقهياً إلى أنه كان محدثا يؤمن بذلك من نظر فيما أثر عنه من أقوال وفتاوى كونت مجموعة عظيمة من الأحكام تضمها أصول متحدة وقواعد واحدة وكلها تنبع من معين واحد وليس أدل على ذلك من أن مذهبه قد انتشر في كثير من الأقطار فهو الآن المذهب السائد في السعودية وله أتباع في سوريا والعراق واتباع قليلون في مصر.

ولقد كان، رضي الله عنه، ورعا زاهدا دينا متشددا في الحق الذي يراه مما أدى إلى تعرضه لمحنة عظيمة لقي فيها كثيرا من صنوف الأذى ومع ذلك لم تهن عزيمته وتلك هي محنة القول بخلق القرآن وخلق ألفاظه فأبى أن يقول بذلك لأنه يراه خلاف ما ورد به الأثر فسيق المأمون مقيدا مغلولا فلم يخضع وضربه المعتصم وحبسه فلم يرجع واختبره الواثق بالمنع والتضيق فلم يهن وكان لموقفه هذا أثر خالد في رفع مكانته واعتراف الناس بإمامته وتوفي عام ٨٥٥ (٢٤١هـ). ●

الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب

وجه معهد التراث العلمي العربي وجامعة حلب الدعوة إلى جميع العلماء والباحثين والمعنيين بالتراث العلمي العربي للمشاركة في الندوة العالمية لتاريخ العلوم عند العرب والتي ستعقد بين ١٠ و١٤ كانون الأول ١٩٨٣، والتي ستنظم بالمشاركة مع المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت. ولقد درج المعهد على أن يعقد مؤتمرا سنويا وندوة دولية عالية كل ثلاث سنوات. ولقد عقد المعهد مؤتمره السابع بنيسان الماضي وخصص لبحث الخوارزمي ودوره في النتاج الفكري العلمي العربي والعالمي.

وستخصص الندوة العالمية الثالثة لبحث الانجازات العربية في مجالات الري والزراعة وستشمل ابحاث الندوة على الموضوعات التالية:

١ ــ تحليل إضافات العلماء العرب في علوم النبات والري والفلاحة من واقع المخطوطات والمؤلفات التي أسهموا بها في هذه المجالات.

٢ ــ دراسة الجهود العربية لضبط المياه وإبراز اسهامات المهندسين العرب الرواد في مجالات توزيع المياه وإقامة شبكات الري.

٣ ــ تحليل ما ورد في كتب التراث العلمي وفي ملفات الجغرافيين القدامى وغيرهم من العلماء ــ عن الزراعة من حيث ضوابطها وانماطها وأساليبها وأنواع الحاصلات الزراعية.

٤ ــ مناهج البحث التي اتبعها العلماء في تناولهم لعلوم النبات والري والفلاحة (وصفيا وايكولوجيا وتصنيفيا ومقارنا).

٥ ــ تحليل انماط التوزيع النباتي القديم على ضوء ما ورد في كتابات علماء النبات العرب.

٦ ــ الاستخدام الانساني والقيمة الاقتصادية للنبات الطبيعي في المجالات الطبية وفي علوم العقاقير وفي الرعي.

٧ ــ دراسة أثر العلماء العرب وإضافاتهم في تطور علوم النبات والري والفلاحة كما أن المعهد وجّه دعوة إلى المتخصصين في علم النبات ومهندسي الري والأخصائيين الزراعيين وغيرهم من المهتمين بابراز الدور العربي في مجالات تخصصهم.



استجابة لرغبة المجلة في تعريف العرب بتاريخهم عبر دراسات علمية ومسؤولة، واستجابة لدعوتها الأساتذة والمؤرخين وطلاب الدراسات العليا لنشر موجز عن رسائلهم الجامعية، فقد وصلنا من الدكتورة «غادة المقدم عدرة» عرض لرسالتها الدكتوراه: تحقيق وتحليل «صفوة التصوف» لمحمد بن طاهر المقدسي «ابن القيسراني». ونحن في فتحنا هذا الباب نتمنى أن نزيد من اطلاع قرائنا على نتائج باحثينا مؤملين سد ثغرة في مكتبتنا العربية وفهارسها المعتمدة، لما يفيد الجميع.

□ دكتوراه دولة ــ قسم الفلسفة ــ جامعة القديس يوسف ١٩٨٣/٦/٢٤.

□ منحتها اللجنة المؤلفة برئاسة الأب لويس بوزية، وعضوية الدكاترة، سعاد الحكيم، علي زيعور وجيرار جهامي تقدير «جيد».

تحقيق وتحليل مخطوط «صفوة التصوّف» لمحمّد بن طاهر المقدسي (ابن القيسراني)

اهمية الرسالة:



كان المقدسي نبعا جديدا من الينابيع الصوفية الأولى لذلك انصب اهتمامي على دراسته للوصول إلى نتيجة مفيدة من كتاب الصفوة.

كشفت الدراسة لكتاب الصفوة وتحليل الفقرات عن النتائج العامة التالية:

١ ــ إن الصوفي رجل عمل وعلم ولقد سعى المقدسي لمحاربة الباطنيين أمثال الملاقيين الذين أساؤوا للتصوف.

٢ ــ انطلق المقدسي فقدم مذهبا صوفيا جديدا اعتمد على السنة وحاول الحفاظ عليها والرجوع إليها، فكان دفاعه عن التصوف دفاعا سنيا وعودة إلى النبع.

٣ ــ لم ينس المقدسي الناحية الفقهية، فإلى جانب ردة آداب الصوفية إلى سنة الرسول، فقد قيد التصوف بالقضايا العملية، كالصلاة وشروط آداب ومبطلات الأحكام الشرعية.

٤ ــ كان المقدسي عالما بالحديث وناقلا له وقد أغرم بالسفر كبقية المسلمين الساعين وراء الروحانية العلمية.

٥ ــ لم يكن المقدسي مجرد ناقلا وحافظا للأحاديث النبوية، إلا أن كتاباته كانت تحمل أفكارا مهمة تعزز الشريعة وخلفائها الذين نكل بهم في ذلك العهد قبل مجيء السلجوقيين ــ وحاول القضاء على الفرق التي ظهرت والتي حاولت الخروج عن لباب الشريعة.

الفصل الرابع: يتضمن تحليلاً لنصّ كتاب «صفوة التصوف» مع مقارنته بأُمّهات الكُتُب التي نالت شهرةً فائقة في الفكر العربي الحديث. وكان تحليلي لكتاب «الصفوة» ينقسمُ إلى قسمين؛ قسم صوفي وقسم فِقْهي.

أوضحْتُ في الأوّل مفهوم المقدسي لنشأة التصوُّف، وأخلاق الصوفية ومفاهيمهم وآدابهم عنده. وهنا نرى أنّ المقدسيَّ ربط التصوُّفَ بالشريعة، فكانت الحقيقةُ في كتابه «الصفوة» هي بيت الشريعة وبابه.

أمّا في القسمُ الثاني فكانت وقفتُنا عند المقدسي الفقيه الذي اهتمَّ بأمور الشريعة وأحكام التكاليف الدينية، فجعل التصوُّفَ مقيَّداً بالقرآن والسُّنّة وأحكام مَنْ سبقه من الصحابة وزُهّاد التابعين.

الفصل الخامس: لم أُغفل شخصيةً صوفيةً كبيرةً كان لها دورٌ هامٌ ألا وهي الإمام أبو حامد الغزالي وقد عاصره المقدسيُّ واتّفق معه في كثيرٍ من الموضوعات التي كانت مدارَ نقاشٍ في أيامه وعلى الأخصّ السماع لهذا كُلّه وجد فصل السماع لعرض آراء المقدسي والغزالي وإباحتهما للسماع؛ وإن كان الغزالي قد تحفّظ بعضَ الشيء؛ فكان تقاربُهُما دلالةً واضحةً على أهمية المقدسي. وهو لا يقلُّ قيمةً وشأناً عن الإمام أبي حامد في دنيا التصوف.

وبهذا الفصل أختم الجزء الأول من الأطروحة.

أمّا الكتابُ الثاني من هذه الأطروحة فقد احتوى على نَصّ «صفوة التصوف» محقَّقاً للمرةِ الأولى. وكاملاً للمرة الأولى.

الفصل الأول: تحقيق صفوة التصوف نسخة المكتبة الظاهرية مع المقارنة بنسختي ليبزيغ والفاتح.

الفصل الثاني: تحقيق صفوة التصوف للزيادات التي وُجدت في نسختي ليبزيغ والفاتح.

الفصل الثالث: تحقيق صفوة التصوف للزيادات التي وُجدت في نسخة الفاتح.

الفصل الرابع: فهرس لأبواب مخطوطة الظاهرية.

فهرس لأبواب مخطوطة ليبزنغ، فهرس لأبواب الفاتح، فهرس للأبواب المشتركة للنسخ الثلاث.

أما خاتمة الأطروحة فكانت خلاصة العمل وإبراز المقدسي من حيث هو صوفي وصاحب مذهب جديد وليس مجرد ناقلا وحافظا للأحاديث النبوية الشريفة.

هيكلية الأطروحة:

تقع الأطروحة في ٦٧٩ صفحة، وجاء عنوانها معبرا عن مضمونها، وقد قسمت إلى كتابين: احتوى الأول منهما على الفصول التالية:

الفصلُ الأول: تقديمُ الكاتب: مولدُهُ، شيوخُهُ ورُواتُه؛ مؤلَّفاتُهُ المطبوعةُ والمخطوطةُ، أسفارُهُ ونشاطاتُهُ، وآراءُ الناس فيه.

الفصلُ الثاني: كان دراسةً وتحليلاً تاريخياً وعقلياً للعمر الذي عاش فيه المقدسي، وقد بذلْتُ غاية الوُسْع في الغَوص بمعرفةِ هذه الفترة للتمهيد لدراسة المقدسي، ولا أكون مُبالِغةً إذا قلت إنني أعتبرُ هذا الفصل إبرازاً لأصالة المقدسي، وتحديداً لعمق شخصيته من خلال عصره.

الفصل الثالث: بحثْتُ فيه المواقف المختلفَة تجاه الصوفية من خلال مؤلّفاتٍ مؤثِّرةٍ في الحياة الصوفية، وقد كانت لي وقفةٌ في هذا الفصل عند أصل السماع واعتمادهم على كتاب قديم، إلى جانب نظرة المقدسي إلى هذه المسألة.

أمّا كتابُ «صفوة التصوف» فقد بَيّنّا منزلتَهُ الكبيرةَ، فهو كتابٌ قيِّمٌ وله أهميتُهُ بين كتب المقدسي إذ انتحى فيه منحىً دفاعياً عن آداب السلوك الصوفي.

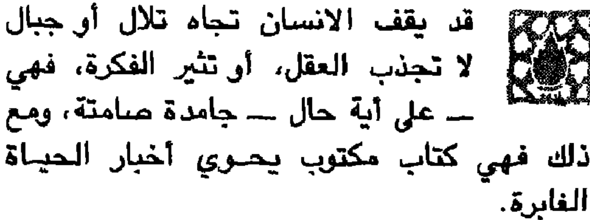
وهنا لا بُدَّ لنا من استعراض النشرةِ الأولى للصفوة والمآخِذ الكثيرة على ناسخِها إذ لا يمكنُنا الاعتمادُ على هذه النشرة، فقد كانت سقيمةً لعدم فهمِ مقاصد المؤلف. من هنا كانت ضرورةُ إعادة كلّ شيءٍ إلى مصدره لتبيُّن العناصر الأوّلية للكتاب، ومن ثَمّ المحاولة لفهم البناء الفكري والمنطَلَق الإيديولوجي الذي انطلقت منه الفكرة أساساً في القرنين الرابع والخامس الهجريَّيْن. إنَّ هذا النوع من التأليف الصوفي الذي يستندُ إلى الحديث والأثر يَضُمُّ بين جنباته تقاليدَ فكريةً عدة هي: تقليد الكِتابة الفنّية في أوساط الكُتّاب والإداريين وتقليد نصائح الملوك وتقليد الحكم والأمثال أو كُتُب السَمَر. وأخيراً التقاليد الحديثة والصوفية، ولا بُدّ من مُراعاةِ هذا كُلّه عند نشر الكتاب ليمكن إخْراج نصٍّ صحيحٍ ومفهومٍ معاً.

لهذا انصبَّ اهتمامي بما لم يقم به ناشروا الصفوة. ●

حضارات سادت ثم بادت

(قل سيروا في الأرض وانظر كيف بدأ الخلق) قرآن كريم

محمّد الفاكياني



قد يقف الانسان تجاه تلال أو جبال لا تجذب العقل، أو تثير الفكرة، فهي ــ على أية حال ــ جامدة صامتة، ومع ذلك فهي كتاب مكتوب يحوي أخبار الحياة الغابرة.

الكتاب فيه سجلات لم يكتبها أنس ولا جان، ولا هو كذلك شبيه بما يكتب الانسان.. صحيح أن الانسان في العصور القديمة قد سجل تاريخه على الصخور والأحجار، وكتبه على ورق البردي، أو جلد الغزال، لكن هذا الكتاب المرصود في الجبال أو التلال قد ظهر قبل أن يظهر الانسان بمئات الملايين من الأعوام، وفيه طبعات متقنة لبدايات الكائنات التي مهدت الأرض، وجعلتها صالحة للزرع والضرع قبل أن يظهر عليها الانسان الحكيم، وعندما جاء الانسان بدأ يقرأ ويقرأ صفحات الكتاب الذي يزن الملايين فوق ملايين من الأطنان، ومنه عرف الانسان كيف بدأت الحياة، وكيف تطورت وتعقدت في نبات وحيوان، وكيف اندثرت فمنها انقرض وزال؟ ومنها ما زال يواصل الحياة؟

للتاريخ أخبار

كان أرنولد توينبي يقول كلما وقف أمام حجر يحكي له قصة حضارة قديمة: (كنت أبكي عندما أرى الحضارات تموت والانسان حولي يغني).

ولم ينس توينبي (الحجر) الذي كان يقف عنده طويلا يتأمل النقوش المحفورة على سطحه الأطلس.. علم وفكر وفن.. فكتب عن العلاقة بين الانسان والحجر، قال: (لولا الجبال وأحجارها ما عرفنا أن حضارة قامت في وقت ما، وفي مكان ما، كان الانسان ذكيا عندما قطع الأحجار من الجبل، ونقش عليها وبنى بها حضارته من الاف السنين، من الحجر شيدوا بيوتهم في الحياة والموت، وكانت الاهرامات أعظمها في رحلة الاخرة، وكان سور الصين أحد عجائب الدنيا، صمود الحجر نقل إلينا حضارة أجدادنا، وتعلمنا منهم ولكننا لم نعد نقطع الأحجار من الجبل، وإنما نصنعها لهذا ستظل حضارتهم القديمة أقوى وأبقى، فهي الأصل: لغة قدماء المصريين عاشت مع الحجر سبعة الاف من السنين.

مدن قامت فوق مدن، وعصور جاءت فوق عصور، وحضارات سادت ثم بادت، لتقوم فوقها حضارات أخرى.. هكذا التاريخ.. منذ كان هناك تاريخ.. ومنذ كانت حياة:

مدينة الاسكندرية خلدها التاريخ

الاسكندرية: هي مدينة في مصر وهي من أعظم ثغور البحر المتوسط، ذات مركز تجاري وثقافي بفضل جامعتها. أسس المدينة الاسكندر الكبير سنة (٣٣) ق. م. واشتهرت بمنارتها وعلوها فقد بلغ علو منارتها حوالي ٤٠٠ قدم، وفي عهد البطالسة أصبحت الاسكندرية أعظم مدن الشرق بل العالم انذاك من حيث ثقافتها وتجارتها. فتحها (أكتافيوس) فضمها إلى الامبراطورية الرومانية (٣٠) ق. م. ثم أصبحت مركزا مسيحيا خطير الشأن في الشرق وقاعدة مدرسة لاهوتية. وكان من ملافنتها اكليمنضوس وأوريجينوس. واشتهرت الاسكندرية بمدرستها الفلسفية بأوائل القرن الثالث وحتى ٥٢٩. ومن أساتذتها أفلوطينوس. فتح العرب الاسكندرية عام ٦٤٥ م واتخذوها مرفأ. بنى سورها المتوكل عام ٨٥٨ م على أيام خلفاء الفاطميين. كما نقل

الأقباط كرسيهم البطركي منها إلى القاهرة، وحمل إليها الاغريق مكتبة غنية تضم أكثر من اربعمائة مجلد في علوم الطب والفلسفة والفيزياء والرياضيات والعلوم، احتلها الرومان، ثم غزاها الفرس من بعدهم، جاء العرب المسلمون ناشرين الاسلام، حاملين معهم حضارة وفكرا وفلسفة جديدة، ومعهم أيضا شاع الأمن والسلام.

يحدثنا المسعودي في كتاب «مروج الذهب» عن بناء الاسكندرية وعن عجائبها:

اختيار موقع الاسكندرية

يقول المسعودي أن الاسكندر المقدوني لما استقام ملكه في بلاده سار ليختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء، حتى انتهى به المطاف إلى موضع الاسكندرية، فأصاب في موضعها اثار بنيان عظيم وعمدا كثيرا من الرخام، وفي وسطها عامود عظيم مكتوب عليه بأقلام من أقلام حمير وملوك عاد: (انا شداد بن عاد بن شداد بن عاد، شددت ساعدي البلاد، وقطعت عظيم العماد من الجبال والأوتاد. وأنا بنيت أرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وأردت أن أبنيها ها هنا كأرم، وأنقل إليها كل ذي أقدام وكرم، ومن جميع العشائر والأمم، وذلك إذ لا خوف ولا هرم، ولا اهتمام ولا سقم).

نزل الاسكندر متفكرا في هذا الكلام. ثم جمع الصناع من البلاد وخط الأساس، وحشد إليها العمد والرخام، وأنواع المرمر والأحجار. ويقول المسعودي تم بناء الاسكندرية سنة ٣٣٢ ق. م. وقد كتب على أبوابها هذه العبارات:

(هذه الاسكندرية، أردت أن أبنيها على الفلاح والنجاح واليمن والسعادة والسرور والثبات في الدهور) فقد بنيتها وأحكمت بناءها وشيدت أسوارها. وقد أتاني الله من كل شيء علما وحكمة، وسهل لي وجوه الأسباب، فلم يتعذر علي شيء في العالم مما أردته، ولا امتنع عني شيء مما طلبته.. لطفا من الله عز وجل، وصنعا بي، وصلاحا لي ولعباده من أهل عصري والحمد لله رب العالمين.

هذا ورسم الاسكندر بعد هذه الكتابة كل ما يحدث ببلده من الأحداث في مستقبل الزمان: من الآفات، والعمران، والخراب، ما يؤول إليه نهاية العالم

يقول المسعودي: إن بناء الاسكندرية طبقات، وتحتها قناطر مقنطرة، عليها دور المدينة، يسير تحتها الفارس وبيده رمح لا يضيق به المكان حتى يذور تلك القناطر التي تحت المدينة، وقد عمل لتلك العقود مخاريق، وتنفسات للضياء ومنافذ للهواء.

ويقول المسعودي: كانت الاسكندرية تضيء بالليل من غير مصباح، لشدة بياض الرخام والمرمر، وإن أسواقها وشوارعها وأزقتها، مقنطرة لئلا يصيب أهلها شيئا من المطر.

هذا وقد كان عليها سبعة أسوار من كافة أنواع الحجارة المختلفة الألوان، وبينها خنادق، وبين كل خندق وسور فاصلان، وقد علق على جدران الاسكندرية أقمشة من الحرير الأخضر والأسود، لاختطاف بياض الرخام خوفا على أبصار الناس لشدة بياضها.

فلما انتهى بناؤها، وسكنها أهلها، كانت افات البحر وسكانه — على ما تواردت الأخبار من المصريين والاسكندريين — تخطف بالليل أهل هذه المدينة، فيصبحون وقد فقد منهم العدد الكثير.

صنع التماثيل

لما علم الاسكندر بذلك غضب غضبا عظيما وقد اتخذ الترتيبات، فجمع الكهان والمنجمين والفلكيين وأصحاب الطلاسم، وطلب منهم عمل الطلاسم وتعليقها على أعمدة المدينة من كافة أطرافها وهي لا تزال باقية من اثارها حتى الآن، وكان شكل العواميد على هيئة شجر السرو، وقد بلغ طول العامود ثمانين ذراعا وهو مصنوع من النحاس، وجعل على الأعمدة هذه التماثيل، وكان كل تمثال يعلّم عند انخفاض درجات الحرارة وارتفاعها.

وذكر المسعودي: أن أصحاب الطلسمات كانوا من المنجمين والفلكيين، وقد صنعوا أيضا أرصادا للشمس والفلك فإذا ارتفع الفلك درجة من الحرارة أو انخفض درجة في مدة يذكرونها من السنين نحو ستماية سنة، فكان فعل

الطلسمات منها النافعة ومنها المانعة ومنها الدافعة.

منارة الاسكندرية

يقول المسعودي: إن منارة الاسكندرية التي بناها الاسكندر بن فيلبس المقدوني. وبعض المؤرخين يقولون أن العاشر من فراعنة مصر هو الذي بناها.

وبعضهم قال: إن الذي بنى مدينة روما هو الذي بنى مدينة الاسكندرية ومنارتها وقد أضيفت إلى الاسكندرية لشهرته بالاستيلاء على اكثر ممالك العالم فشهرت به. ويوجد في الاسكندرية تمثال قد أشار بسبابته اليمنى نحو الشمس أينما اتجهت من الفلك، فإذا ارفعت الشمس ارتفعت سبابته، وإذا انخفضت انخفضت يده سفلا، ويدور معها حيث دارت.

كما يوجد تمثال يشير بيده إلى البحر إذا صار العدو على قرب منه من نحو البلد أي نحو ليلة، صرخ ذلك التمثال بصوت هائل يسمع من مسافة ميلين أو أكثر. فيعلم أهل المدينة أن العدو قد اقترب ودنا منهم فيرمقونه بأبصارهم ويأخدون حذرهم.

ويوجد تمثال أيضا كلما مضى من الليل او النهار ساعة سمعوا له صوتا جميلا بخلاف ما سمعوا في الساعة التي قبلها، وكان لهذا الصوت طرب وشجى عظيم.

هدم منارة الاسكندرية

بلغ ارتفاع المنارة حوالي ألف ذراع وقد وضع مرآة في رأس المنارة والتماثيل جلوس حولها. فإذا نظروا إلى العدو في البحر، في ضوء تلك المرآة صوتوا ونشروا أعلاما مختلفة الأشكال والألوان فيراها عن بعد وعلى مسافة ميلين أو أكثر من ذلك كما ينذرون البلد، فلا يكون للعدو عليهم سبيل.

يقول المسعودي: كان أحد ملوك الروم في زمن الوليد بن عبد الملك بن مروان قد أرسل إليه خادما من خاصة خدمه ذا رأي ودهاء، وجاء مستأمنا إلى بعض الرى وبرفقته أشخاص ومعهم الات الهدم، فجاء إلى الوليد فأخبره أنه يريد الاسلام فأسلم على يد الوليد، وتقرب منه ومن قلبه، وقدم إليه دفائن قد استخرجها من بلاد دمشق وغيرها من بلاد الشام، وكتب كان حملها معه فيها صفة تلك الدفائن. فلما رأى الوليد تلك الدفائن والكتب قال للوليد: إنه يوجد (تحت منارة الاسكندرية أموال الأرض وكنوزها، وذلك أن الاسكندر احتيو على الأموال والجواهر التي كانت لشداد بن عاد وملوك العرب بمصر والشام، فبنى لها البناء تحت الأرض، وقنطر لها الأقباء والقناطر والسراديب، وأودعها تلك الذخائر من العين والورق والجواهر وبنى فوق ذلك هذه المنارة).

فبعث الوليد مع الخادم بجيش من خاصة جيشه حماية له، فهدم نصف المنارة من أعلاها، وأزيلت المرآة، فضج الناس أهل الاسكندرية وغيرها، وعلموا أنها مكيدة وحيلة انطلت على الوليد.

ولما شعر الخادم بانتفاضة الشعب أخذ ما يحتاج إليه وفر هاربا في الليل في مركب قد أعده لذلك. فنجا بحياته وحياة الآخرين معه.

هذا وبقيت المنارة على وضعها الحالي إلى هذا الوقت، ويقول المسعودي: إن حول منارة الاسكندرية في البحر غواصين يخرجون منه قطع اللؤلؤ والجواهر وغيرها من عجائب البحر. ويقال أن ما خلف الاسكندر من أواني الشراب والطعام وأواني المائدة، كسرتها أمه عند موته ورمت بها في ذلك الموضع من البحر.

ومنهم من قال أن الاسكندر اتخذ ذلك الموضع ليغرق من الجواهر حول المنارة لكيلا يخلو الناس من حولها، وأن يكون ذلك المكان مطلوبا فيكون الموضع على دوام الأوقات والأزمان معمورا بالناس.

لمحة خاطفة عن حياة الاسكندر

كان الاسكندر عالما فذا، وفارسا عظيما، وكانت تهابه وتخافه جميع ملوك الأرض، وبلغت حاشيته ووزراؤه ما ينوف عن ثلاثين حكيما وفيلسوفا، ولا يستطيع أن يغلبه أحد بالعلم من هؤلاء الحكماء لغزارة علمه واطلاع معرفته. وكان يجمع هؤلاء الحكماء ويستريح إلى كلامهم ولا يصدر أمرا أو حكما إلا عن رأيهم ومشورتهم. ●



الفهرس العام للسنة الخامسة

الموضوع	الكاتب	العدد	الصفحة
تاريخ لبنان			
■ نصوص تاريخية عن السيل الجارف في بعلبك ٧١٧هـ/١٣١٧م. والريح العاصفة في أعمال طرابلس	د. عمر عبد السلام تدمري	٤٩	٣٧
■ فن العمارة الاسلامية في لبنان	تعريب: عبد الأحد حناوي	٤٩	٥٣
■ مهمات تاريخية في الشرق: البعثة العسكرية الأميركية لاستكشاف لبنان وأنهاره	د. ابراهيم فريد الدُر	٥٠	٤٤
■ العثمانيون وبنو المطرجي	فضل المقدم	٥٠	٥٢
■ في أساس الصمود	معالي اللاأستاذ روجيه شيخاني	٥٢	٣
■ لبنان والسياسة الخارجية	معالي الأستاذ جوزف أبو خاطر	٥٢	٤
■ عملية الاعمار الكبرى بين الشعب والدولة	د. محمد عطا الله	٥٢	١٠
■ نشأة السياحة اللبنانية ومراحل تطورها	الشيخ حبيب كيروز	٥٢	٢٢
■ دور الاعلام في لبنان الجديد	محمد البعلبكي	٥٢	٢٨
■ المؤسسات السياسية في لبنان	د. بهيج طبارة	٥٢	٣٢
■ من المتصرفية إلى الجمهورية	د. نقولا زيادة	٥٢	٣٨
■ الجامعات في لبنان	د. محمد المجذوب	٥٢	٤٤
■ بيروت: ذكريات.. وواقع	جبران التويني	٥٢	٥٠
■ تضامن المجتمع اللبناني	د. باسم الجسر	٥٢	٥٦
■ ١٩٤٣ ــ ١٩٨٣، أربعون عاماً من الاستمرارية الدستورية	د. داوود الصايغ	٥٢	٧٤
■ الثوابت في النظام السياسي اللبناني وفي المجالس النيابية، الهيئة الانتخابية الموحدة	د. انطوان مسرة	٥٢	٨٠
■ الرياضة في لبنان خلال نصف قرن	ناصيف مجدلاني	٥٢	٨٦
■ من ذكرياتي عن الانتداب الفرنسي على لبنان سنة ١٩٣١	جان سرور	٥٤	٥٦
■ نصوص مختارة من سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس	د. عمر عبد السلام تدمري	٥٥	٢٦
■ صفحة مطوية من تاريخ جبل عامل النضالي، مقاومة سياسة الجزار التدميرية (١٧٧٥ ــ ١٧٨٥)	د. حسين سلمان سليمان	٥٥	٤٤

تاريخ فلسطين

حضارة عربية



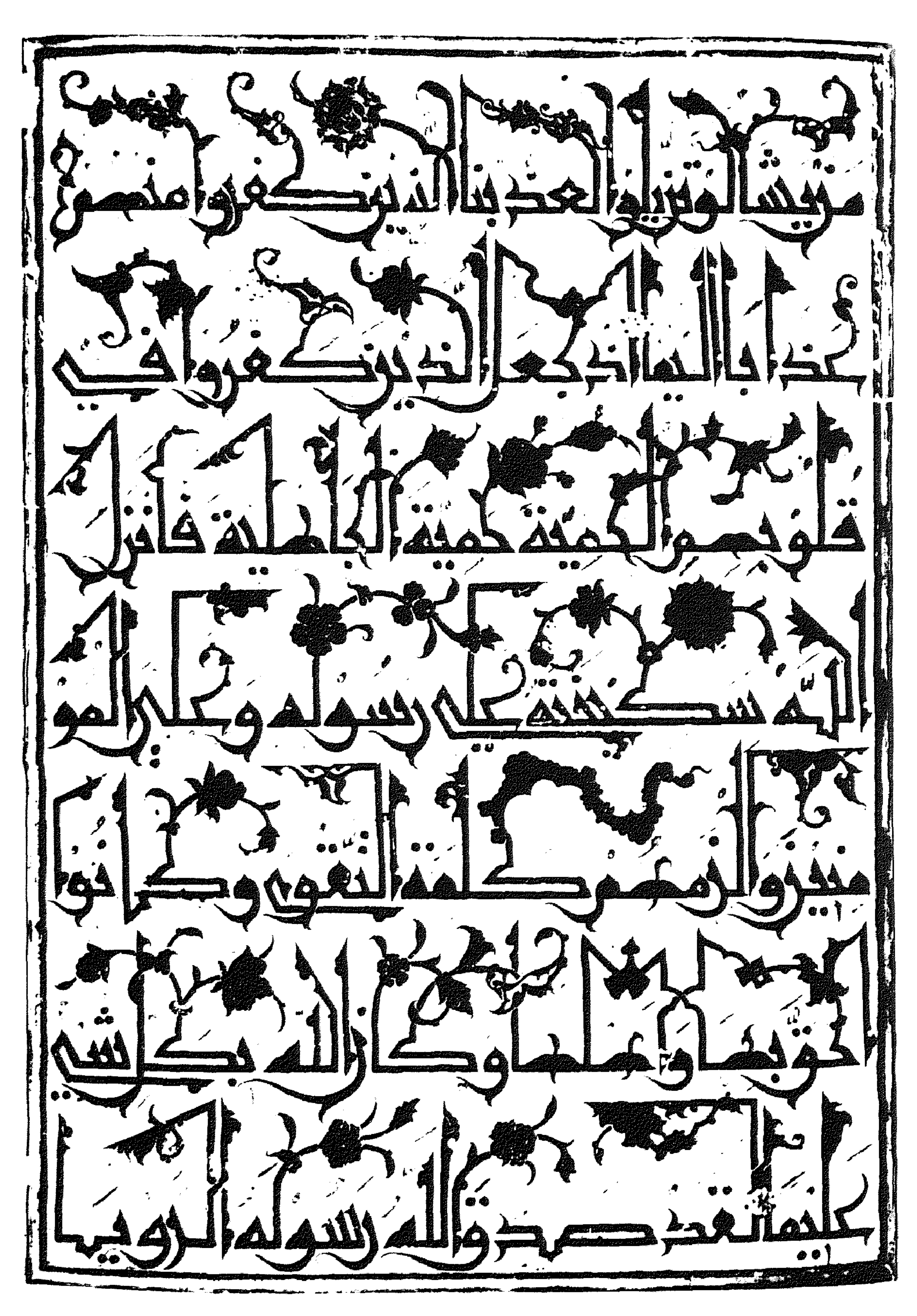
إلى المشتركين الكرام

نرجو من جميع مشتركينا في الخارج، إفادتنا عن أي نقص يحصل لديهم في اعداد المجلة، خلال مدة أقصاها ثلاثة أشهر من تاريخ صدور العدد، وخلال شهرين بالنسبة لمشتركينا في الداخل.
وذلك، لتعذر تأمين الأعداد لهم بعد هذه المدة، بسبب تحويلها إلى قسم التجليد.

الإدارة

موطنها لبنان
أرزة طيران الشرق الأوسط الخطوط الجوية اللبنانية
جذورها راسخة في الشرق الأوسط
وأغصانها ممتدة في أرجاء الدنيا





من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم
عذابا أليما إذ جعل الذين كفروا في
قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل
الله سكينته على رسوله وعلى المو
منين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا
أحق بها وأهلها وكان الله بكل شي
عليما لقد صدق الله رسوله الرويا

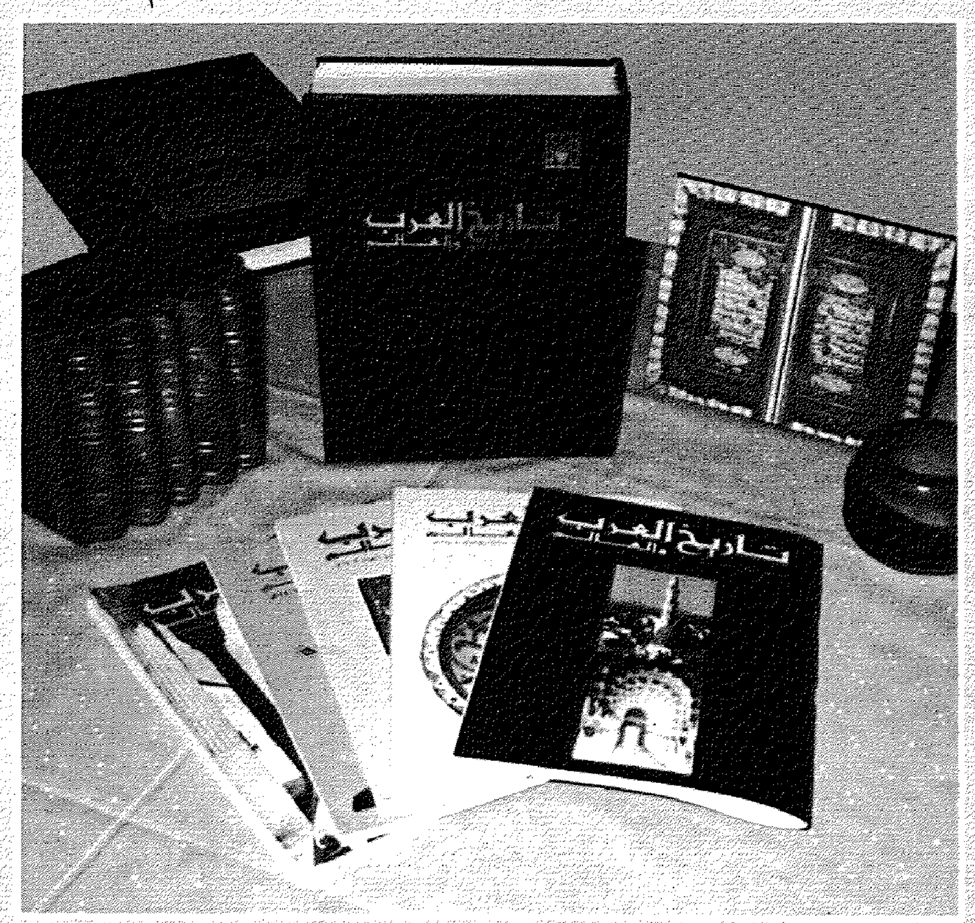
□ صفحة من القرآن الكريم بالخط الكوفي.

احتفظ بمجلّدات السّنوات الأربع من مجلة

تاريخ العرب والعالم

مجلة شهرية مصورة تبحث في التاريخ العربي

سبعة مجلّدات فخمة + اشتراك مجّاني لعام كامل



١٣٠٠ ل.ل. أو ما يُعادلها بما فيها أجور البريد المضمون

إقطع هذه القسيمة وأرسلها مرفقة بقيمة المجلّدات باسم مجلة تاريخ العرب والعالم إلى العنوان التالي:
شارع السادات - بناية أبو هليل - ص.ب: ٥٩٠٥ - بيروت، لبنان

الاسم الكامل: ____________________

العنوان: ____________________

المدينة: ____________________

الامضاء: ____________________

أرفق القيمة: ☐ شك ☐ شك بريدي ☐ حوالة بريدية